

JUN 15 2019

Princeton University Library



32101 074441872

Ibn Hazm, ALI ibn Ahmad

طوق الحمامة

Tawq al-hamamah

في الألفه والألاف

تأليف

الإمام الفقيه

أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم

المتوفى ٤٥٦ هـ



وقدم له

الأستاذ إبراهيم البياري

حققه وصوبه وفهرس له

الأستاذ حسن كامل الصبري

١٢٦٩ هـ — ١٩٥٠ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تعريف وتقدير

بقلم

الأستاذ إبراهيم الأياري

الحديث عن ابن حزم أبي محمد على يلفتنا إلى الرجوع إلى آبائه وحيث أوطنوا ، فهو كما يقول العارفون بالأنساب ، ابن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح ابن خلف بن معدان بن صفيان بن يزيد ، مولى يزيد بن أبي سفيان . فهو من أرومة مشرقية ، أول نازح منها إلى الأندلس « خلف » ، ولم تكن « لبلة » التي في غربي الأندلس ، والتي اتخذها الآباء موطنهم ، مقام خلف الأول فيما نظن ، ولا تسعفنا المصادر بشيء مجمل أو مفصل عن تلك الأيام الخالية من حياة الجد النازح ، ولكننا نكاد نلمس من نشأة ابن حزم وأبيه أبي عمرو أحمد بن سعيد أن الأسرة كانت على إرث من علم وآخر من نباهة وجاء مكثا للوالد ثم للابن من بعده في أن يكونا بين رجالات الدولة المقدورين ومن أعلامها المبرزين ، وأن يزر ابن حزم للمستظهر بالله عبد الرحمن ثم للمعتمد بالله ، بعد أن وزر أبوه للنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر ولائته المظفر بعده .

وكانت الرغبة في العلم والإفادة منه شغل ابن حزم الشاغل ، وأعباء الوزارة صارفة ، والاضطلاع بمهام الدولة معوق ، بله ما يحاك لأولى الأمر من دس ، وبيت لهم بليل ، ويزور عليهم من قول ، فهذا إلى غيره يعوزه رجل لا يفرغ

2271
4584
2380
2264
10674
789

إلا له ولا يلتفت لسواه ، إن كلف بالبقاء للحكم يديره ، وشاء أن يخلص له منصب يحميه . ولم تكن تلك ذات نفس ابن حزم ، فالرجل كان عالما قبل أن يكون وزيرا ، مقبلا على الاستزادة من العلم ، مشغوبا بالنظر فيه والتأليف عنه ، حريصا على أن تشيع له آراؤه وتخلد نظراته ، لهذا برم بما يرغب فيه غيره ، وانصرف عن جاه الحكم إلى جاه العلم يكتب وينظر ويحاج .

ولسنا ممن يرى الأمر رغبة صرفت عن أختها ، ولكننا نكاد نخال بابن حزم فترة نشأ بها ، وضعفا لم يملك القوة عليه ، ثم غلبة لخصومه ، وحيلة ظافرة ، وكلمة مسموعة . فليس في طبع الانسان أن يعدل عن جاه مطموح فيه إلى عزلة وانزواء لهذا الذي يذكره الذكرون عن ابن حزم من رغبة في العلم والانقطاع له . والرجل نافث على أعدائه ، واغر الصدر عليهم ، متربص بهم ، راج أن يديل منهم كما أدالوا منه ، تسمع له ذلك بين سطور كتابه هذا الذي تقدم له . ومن يحمل لخصومه ما حمل ابن حزم بعيد أن يترك الحكم راغبا عنه زاهدا فيه لرغبة في العلم والافادة منه ، ولكن شيئا آخر جدير أن يُضم إلى تلك الرغبة وذلك الزهد ، هو قلة حيلة ابن حزم عن أن يصمد لخصومه ، وضيقة بأمرهم ذرعا . فهرب إلى حيث يجد مأمنه ، وفرغ إلى حيث يرى أنه بمنجاة من أذاهم ، وخلص إلى علمه وكتبه .

ولغير الجاه الزماني عادي المعادون ابن حزم ، أو قل إن أردت أن تكون مع الحقيقة ، لم يكن هذا وحده داعي الخصومة وباعث هذا الشر ، بل كان أكثره هذا الذي فرَّ إليه ابن حزم يرجو فيه الهدأة والطمأنينة .

فالرجل كان على رأى لا يقره عليه العلماء من حوله ، كان ظاهريا صريحا في غير موارد ، جريئا لاتلين له قناة ، قائلا بما يعتقد ، ناطقا عن فكر صقلته البيئة الأندلسية بما تضم من رفاهية حرة ، وغذته من تقاليد شائعة موروثة .

وحفة طويلة كالحقبة التي نشأت ابن حزم كفيلة بأن تزيد وتشكل ، وتغير

وتبدل في مفهوم من هم على طوعية واستجابة لداعي البيئة وحاديها ، وما بنا أن
نكشف لك أوجه الخلاف بين ابن حزم ومساجليه ، فذلك شيء يطول ومرده
إلى ما ألفت ، وإلى ما تعلم عن كل ظاهري ، ولكنك واجد في تنكر الناس لرأيه
ونفرتهم من قوله ما يققك على أن ابن حزم كان على غير ما يرى الناس ، وأن الناس
كانوا على غير ما يرى ، وأنهم رأوه ضالاً منحرفاً ، فسعوا به وحر كواله العامة
فامتدت أيديهم إلى كتبه حرقاً وتمزيقاً ، وهو لا يملك إلا أن يقول :

وإن تحرقوا القراطاص لا تحرقوا الذي تضمنه القراطاص بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائي | وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدرى
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة فكم دون ما تبغون لله من ستر

وفر ابن حزم منهم بعدما فر من الوزارة حيث يصيب الأمن المنشود ، والمقر
المودود ، يترك بادية إلى بادية ، وقد ضيق عليه في مراده ، فيقول في حساده :
أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطالعي الغرب
وإن رجالاً ضيعوني لضيع وإن زماناً لم أنل خصبه جذب
ولا أحيلك على غير موجود لتفيد شيئاً عن ابن حزم وتعرف من رأيه ، فبين
يديك كتابه « طوق الحمامة » لم يسكت فيه الرجل عن شيء رآه يقوم دليلاً على
ما يرى إلا ذكره ، ولا يطوى فيه ما درج الناس على أن يطووا مثله ، فهو يرى
أنه بسبيل التدليل على فكرة ، وما أحوج الفكرة إلا أن تبسط معها أدلتها
وشواهدا تثبت وتصح . والحب وما إليه شيء أف الناس أن يكتموا أسراره
ويخفوا ما يحيط به ، وأن ينزهوا أنفسهم عن معالقه ويظهروا البراءة من مأخذه ،
وأن يطلعوا على الناس في غير مظانه ، بعداء عن أسبابه . ويرى ابن حزم أن يعلن
حيث يسرون ، ويحجر حين يكتمون ، إذ الحقيقة لا يحصها إلا أن يشيع عنها ما لها

وما عليها ، ويمهد لدرسها بكل ما يتصل بها . فانطلق يورد له وللجدة من حوله ما عُرف لهم وسمع عنهم ، في غير استحياء ولا نقصان ، لا يريد تشهيراً فيما نعلم ، ولكنه أسلوبه في الدرس ، وطريقته في التمهيد .

هذا مثل لابن حزم يدل على نهجه في التفكير وطريقته في الدرس تستطيع أن تعرف به الرجل بعض المعرفة ، ويكشف لك عن شيء مما أثاره الناس حوله وكان سبباً لتلك الحرب التي صلى بها إلى أن مات رحمه الله سنة ٤٥٦ من الهجرة .

أما عن علم الرجل وطول باعه فيه وجلده عليه وسهره له فشيء تناقله الرواة وكتبه له المؤرخون . ذكروا أن الباجي أبا الوليد سليمان شارح الموطأ اجتمع به يوماً يفاظره فقال له الباجي وهو يحاوره : أنا أعظم منك همة في طاب العلم لأك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب ، وطلبته وأنا أسهر بقنديل . فقال له ابن حزم : هذا كلام عليك لا لك ، لأنك طلبت العلم رجاء حال تريد تبديها بمثل حالي ، ولكني طلبته لا أرجو إلا نفعه دنيا وأخرى .

وفيه يقول ابن بشكوال : كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلم الإسلام وأوسعهم معرفة ، مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار .

وقريب من هذا قول أبي مروان بن جيان فيما يروي عنه : كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعليم القديمة من المنطق والفلسفة .

وما دمنا قد رجعنا إلى الأثبات نذكر لهم رأيهم في ابن حزم ، فما أحقنا أن نستأنس بشيخين جليلين ، أما أولهما فهو الذهبي وإليك قوله : وكان إليه المنتهى في الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل

العربية والآداب والمنطق والشعر ، مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب .

وأما ثانيهما فالغزالي فاسمع إليه : وجدت في أسماء الله تعالى كتابا لأبي محمد ابن حزم يدل على عظم حفظه وسلامة ذهنه .

وبعد هذا فمؤلفات الرجل كثيرة أجلبها في أصول الفقه وشروحه . يروى ابنه الفضل أبو رافع أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة .

ويهلول هذا ياقوت فيقول : وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفا .

ويغريني هذا إلى أن أعود إلى لين ابن حزم أمام خصومه ، وفوزهم دونه بقلوب الملوك وعقول العامة ، ثم نيلهم منه هذا النيل الذي أسلفنا بيانه .

وقد عرفتك بالرجل صريحا قوالا ، لا يعي رأسه الرأي إلا انحدر منه على لسانه ، ودلتك على كتابه « طوق الحمامة » شاهد ما أقول .

ولكن ترى هذا وحده يمكن للخصوم من مقتل الرجل ، ويجمع العامة مع الخاصة عليه ؟ وأرى ابن خلدان يضم إلى الرأي رأيا ويزيدنا عن صراحة الرجل بيانا فيقول : وقد قال أبو العباس ابن العريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين ، وكان كثير الوقوع في العلماء المتقدمين لا يكاد يسلم أحد من لسانه . فنفرت عنه القلوب واستهدف لفقهاء وقته فماتوا على بغضه وردوا قوله وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم من الدنو إليه والأخذ عنه .

وقد استجاب لهم هؤلاء وهؤلاء ، فهجر ابن حزم كرسي الحكم عن برم به بعد رغبة من الملوك عنه ، وبطش به العلماء بأيدي العامة لأنه ملك أن يقول

بلسانه فى موروث عاداتهم وتقاليدهم ، وهذه وتلك من هوى العامة ودينهم ، فما أسرع هبتهم لها وأقرب ثورتهم .

بقى أن أزيدك عن سر خلاف الرجل عن نهج قومه وخروجه على مألوفهم ، وقد سُقت إليك طرفا وكتمت طرفا : قلت لك إن آباء ستة سبقوا ابن حزم فى هذه البيئة الأندلسية ، وفيها بنوا بيوتهم ونسلا ، وكلما مر بهم يوم أخذوا من البيئة وأعطوا ، ولم يظفر المهديان حزم سنة أربع وثمانين وثلثمائة إلا بعد أن أظلت سماء الأندلس هذا البيت الحزمى قرابة قرن ونصف قرن . وغير هذا البيت صحبته هذه السنون أو فوقها دون أن تحور فى بنيان عقله . وهنا مكان الطرف المكتوم ، فقد انتهيت عند سوق آباء ابن حزم الى «يزيد» وعرفتكم به مولى ليزيد من أبى سفيان ولم أزد ، فاعرف أن هذا المولى كان على غير الإسلام فأسلم ، ومن الفرس أصله . ومن هنا التقت فى ابن حزم طبيعتان ، إحداهما موروثه والأخرى مكسوبة ، وقد مكنت الموروثه للمكسوبة أن تستشرى ، فكان من هذا المزاج «ابن حزم» الناقد الحر الجريء ، ذو الأسلوب الجديد وصاحب النهج المبتدع . وأرانى قد قلت كثيرا عن ابن حزم ولم أقل عن كتابه طوق الحمامة إلا فى معرض الاستشهاد به عن صراحة الرجل وحرصه على أن يجمع بين يدى موضوعه أدلة لا يستثنى .

وقبل أن أصلاك بما حوى الكتاب وضم يعينى أن أنقل إليك أن الذين ترجوا لابن حزم سكتوا عن ذكر هذا الكتاب بين مؤلفاته ، غير «المقرى» فى نفح الطيب ، وابن القيم الجوزية فى روضة الحبين . أما ابن القيم فقد صرح باسم الكتاب فى غير موضع . وأما المقرى فقد أورد هذا الخبر ، وأنا أورده هنا لأن الأصل المنشور يفقده ، قال المقرى : قال ابن حزم فى طوق الحمامة : إنه مر يوما هو وأبو عمر بن عبد البر صاحب الاستيعاب بسكة الخطابين بمدينة إشبيلية ، فلقيهما شاب حسن الوجه . فقال أبو محمد : هذه صورة حسنة . فقال له أبو عمر :

لم تر إلا الوجه فلعل ماسترته الثياب ليس كذلك . فقال ابن حزم ارتجالا :

وذى غذل فيمن سباني حسنه يطيل ملاحي في الهوى ويقول

أمن أجل وجهه لاح لم تر غيره ولم تدر كيف الجسم أنت عليل

فقلت له أسرفت في اللوم فأتشد فعندى رد لو أشاء طويل

ألم تر أنى ظاهري وأنتي على ماأرى حتى يقوم دليل

ولسنا نحاول أن ننفي عن الرجل كتابه ، وأن نضع الشك موضع مايقن

الناس به . ففي الكتاب من الأخبار المروية عن ابن حزم والحديث عن أبيه

ومعاصريه مايدفع هذا . وإنما أردنا شيئا آخر نذكرك به حين نذكرك بتلك

الجاهة التي ذهبت بكتب الشيخ أو قل نالت منها .

وقد عاش الشيخ بعدهما عمرا ليس بالقليل ، ولعله فرغ في تلك الحقبة يلم

بما تفرق ، ويجدد ما تحرق ، ويسد الخلل ويرقع الفتق .

ويكاد يملأ علينا إهمال جل المتحدثين عن ابن حزم ذكر هذا الكتاب بين

مؤلفاته أن الكتاب وضع بأخرة وقبل النكبة بقليل . وأقطع أنه كان بعد أن نبذ

الوزارة ونبذته ، فقد حدث في الكتاب عن نفسه ، فهو يقول : « وبيع على بن

حمود الحسنى ، المسمى بالناصر ، بالخلافة . . . وفي إثر ذلك نكبني جيران صاحب

المرية ، إذ نقل إليه عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي أنا نسعى في القيام بدعوة

الدولة الأموية .

وغير هذا — ولا أكاد أقطع — أن الكتاب — وكان استجابة لرغبة

صديق فقيه محدث متأدب — لو عرف لابن حزم متقدما ، وهو على غرار يفيد

منه خصومه ، لذاع اسمه وشاع ولم يخف على من خفى عنهم .

أعنى أنه لم يمكن له من الظهور والشيوع ، لذلك الذي حال بين الناس

وابن حزم أن ينقلوا له ويأخذوا عنه .

وشىء أخير ، وهو أن يذكر « المقرئ » نقلا عن الكتاب ما ليس في الكتاب

المعروف للناش ، ومنه يعود الشك أقرب إلى اليقين أن الكتاب كان من بين ما امتدت إليه الأيدي ، وأن ما وجد منه بين يدي فئة كان غير ما وجد منه عند غيرهم زيادة ونقصا ، وإن صح هذا فقد يصح غيره . ولعل تلك اللفتة تكاد تملئ علينا بأن الكتاب منقوص ولا يزال منه في بطون الغيب أوراق ، لم يسعها مخطوط ولم تتصل بتدوين مدون ، ولا يعلم إلا الله مصيرها .

وبعد فإن يعرض ابن حزم للحب على ورع منه ونسك ، فيعالجه معالجة صريحة حازمة ، ويخوض فيه غير كاتم ولا مُبِق في ذلك السرد الطريف ، وعلى هذا النهج القويم وبتلك الفكرة العميقة ، والنظرة الدقيقة ، لشيء يثير الإعجاب ويدعو إلى التقدير ، وكأني بابن حزم حين عانى الحب وذاقه ، ووجد مذاقه على السنة من حوله من إخوان له ، رآه بابا للحديث ، وهو العالم الناظر ، فسجل فيه رأيه مستمدا شواهد من حوله ، وما أصدقها شواهد .

وأكاد أقف ولا أمضي فبين يدي بحث طويل ممتع لأستاذ الجليل صاحب المعالي الدكتور طه حسين بك ، فصل فيه الرأي عن ابن حزم تفصيلا ، وربط بينه وبين « ستندال الايطالي » . وأفاض في الكلام على الرجلين ، وقد كنت حريصا على أن أنفع به فأسوقه هنا كله ، إذ اقتطاعه لا يغني ، ولكنني أكنفي بأن أشير إلى مكانه من مجلة الكاتب المصري في العدد الخامس من المجلد الثاني الذي صدر في فبراير سنة ١٩٤٦

بقي على بعد هذا أن هذا أن أعود إلى الصديق الناشر الأستاذ الشاعر حسن كامل الصيرفي الذي هيا لي أن أنظر في عمل له جدير بالقدر والشكر ، فأهنته على جهده وما عانى ، في أصل شاه وجهه ، وانحرفت كلماته ، فقوم منه ما وسعه التقويم ، وصوب وحقق ، فجاء صورة مقروءة أقرب إلى السلامة وأدنى إلى الصواب . ولعل الزمن والسعي يسعفانه بأصل جديد يحقق به الأمنية الأخيرة لهذا الكتاب القيم .

والله أسأل له ولى العون والتوفيق .

ابراهيم الابيارى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

قال أبو محمد عفا الله عنه : أفضل ما أبدى به حمد الله عز وجل بما هو أهله ، ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة ، وعلى جميع أنبيائه عامة ، وبعد . عصمنا الله وإياك من الخيرة ، ولا حملنا ما لا طاقة لنا به ، وقبض لنا من جميل عونه دليلاً هادياً إلى طاعته ، ووهبنا من توفيقه أدباً صارفاً عن معاصيه ، ولا وكنا إلى ضعف عزائمنا وخور قوانا ووهاء بنيتنا وتلد آرابنا وسوء اختيارنا وقلة تمييزنا وفساد أهوائنا ؛ فإن كتابك وردني من مدينة المرية إلى مسكني بحضرة شاطبة تذكر من حسن حالك ما يسرني . وحمدت الله عز وجل عليه وأستدمته لك واستزدته فيك . ثم لم ألبث أن اطلع على شخصك وقصدتني بنفسك ، على بعد الشقة وتنائي الديار وشحط المزار وطول المسافة وغول الطريق ، وفي دون هذا ما سلى المشتاق ونسى الذاكر ، إلا من تمسك بجمل الوفاء مثلك ، ورعى سالف الأذمة ووكيد المودات وحق النشأة ومحبة الصبي وكانت مودته لله تعالى . ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون . وكانت معانيك في كتابك زائدة على ما عهدته من سائر كتبك ، ثم كشفت إليّ بإقبالك غرضك وأطلعتني على مذهبك ، سجية لم تزل علينا من مشاركتك لي في حلوك ومرك وسرك وجهرك ، يحدوك الود الصحيح الذي أنا لك على أضعافه ، لا أبتغي جزاء غير مقابلته بمثله . وفي ذلك أقول مخاطباً لعبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر رحمه الله في كلمة لي طويلة وكان لي صديقاً :

أودك ودا ليس فيه غضاضة
وأحضيتك النصيح الصريح وفي الحشى
وبعض مودات الرجال سراب
لودك نقش ظاهر وكتاب

فلو كان في رُوحى هواءك أقتلته ومُرَّق بالكفين عنه إهاب
وما لي غيرُ الود منك إرادة ولا في سواه لي إليك خطاب
إذا حُرته فالأرض جماء والوري هباء وسكان البلاد ذباب
وكلفتني أعزك الله أن أصنّف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه
وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا مُتزيّداً ولا مُفترفاً ، لكن مُورداً
لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه ، حيث أنهى حفظي وسعة باعى فيما
أذكره ، فبدرتُ إلي مرغوبك . ولولا الإيجاب لك لما تسكّفته ، فهذا من
الفقر ، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألاّ نصرفها إلا فيما نرجو به رَحْب المقلب
وحسن المآب غداً . وإن كان القاضي حمام بن أحمد حدثني عن يحيى بن مالك
عن عائذ بإسناد يرفعه إلى أبي الدرداء أنه قال : أجموا النفوس بشيء من الباطل
ليكون عوناً لها على الحق . ومن أقوال الصالحين من السلف المرضى . مَنْ
لم يحسن يتقّى لم يحسن يتقوى . وفي بعض الأثر : أريحوا النفوس فإنها تصدأ
كما يصدأ الحديد .

والذي كلفتني لا بد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي وأدركته عنايتي
وحدثني به الثقات من أهل زمانه ، فاعفّر لي الكناية عن الأسماء فهي إما
عورة لا نستجيز كشفها وإما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً .
وبحسبي أن أسمى من لا ضرر في تسميته ولا يلحقنا والمسمي عيب في
ذكره ، إما لاشتهار لا يُغنى عنه الطيّ وترك التبیین ، وإما لرضي من
المخبر^(١) عنه بظهور خبره وقلة إنكار منه لنقله .

وسأورد في رسالتي هذه أشعاراً قلّتها فيما شاهدته ، فلا تنكر أنت ومن
رأها عليّ أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه ، فهذا مذهب المتحلّين
بقول الشعر ، وأكثر من ذلك فإن إخواني يحشّموني القول فيما يعرض لهم على
طرائقهم ومذاهبهم . وكفاني أني ذاكر لك ما عرض لي مما يشاكل ما نحوت
نحوه وناسبه إليّ .

والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك ، والاقتصار على ما رأيتُ
أو صحَّ عندى بنقل الثقات ، ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسييلهم غير
سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضى مطية سواى ، ولا
أتحملى بحلى مستعار ، والله المستغفر والمستعان لا ربَّ غيره .

باب

وقسمت رسالتى هذه على ثلاثين باباً ، منها فى أصول الحب عشرة . فأولها
هذا الباب ، ثم باب فى علامات الحب ، ثم باب فيه ذكر من أحبَّ فى النوم ، ثم
باب فيه ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة ،
ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة ، ثم باب التعريض بالقول ،
ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير .

ومنها فى أعراض الحب وصفاته الحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً ، وإن كان
الحب عَرَضاً والعرض لا يحتتمل الأعراض ، وصفة والصفة لا تُوصف . فهذا على
مجاز اللغة فى إقامة الصفة مقام الموصوف ، وعلى معنى قولنا : وجودنا عرضاً أقل
فى الحقيقة من عرض غيره ، وأكث وأحسن وأقبح فى إدراكنا لها علمنا أنها
متباينة فى الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة ، إذ لا تقع فيها الكمية
ولا التجزى ، لأنها لا تشغل مكاناً وهى : باب الصديق المساعد ، ثم باب الوصل ،
ثم باب طى السر ، ثم باب الكشف والاذاعة ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ،
ثم باب من أحب صفة لم يُحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب القنوع ، ثم باب
الوفاء ، ثم باب القدر ، ثم باب الضنى ، ثم باب الموت .

ومنها فى الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب ، وهى باب العاذل ، ثم
باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الهجر ، ثم باب البين ، ثم باب السلو .
من هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الأبواب المتقدمة
الذكر ، وهما باب العاذل : وضده باب الصديق المساعد ؛ باب الهجر وضده

باب الوصل . ومنها أربعة أبواب لاضد لها من معاني الحب ، وهى باب الرقيب ، وباب الواشى ، ولاضد لها إلا ارتفاعهما . وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفاع الأول ، وإن كان المتكلمون قد اختلفوا فى ذلك . ولولا خوفنا إطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصيناه .

وباب البين وضده تصاقب الديار ؛ وليس التصاقب من معاني الحب التى نتكلم فيها . وباب السلو وضده الحب بعينه ؛ إذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه . ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة ، وهما : باب الكلام فى قبح المعصية ، وباب فى فضل التعفف . ليكون خاتمة إيرادنا وآخر كلامنا الحز على طاعة الله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فذلك مفترض على كل مؤمن . لكننا خالفنا فى نسق بعض هذه الأبواب هذه الرتبة المقسمة فى درج هذا الباب الذى هو أول أبواب الرسالة ، فجعلناها على مبادئها إلى منتهاها واستحقاقها فى التقدم والدرجات والوجود ، ومن أول مراتبها إلى آخرها ، وجعلنا الضد إلى جنب ضده . فأختلف المساق فى أبواب يسيرة ، والله المستعان .

وهيئتها فى الإيراد أولها هذا الباب الذى نحن فيه وفيه صدر الرسالة وتقسيم الأبواب والكلام فى باب ماهية الحب ، ثم باب علامات الحب ، ثم باب من أحب بالوصف ، ثم باب من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب من لا يحب إلا مع المطاولة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير ، ثم باب طى السر ، ثم باب إذاعته ، ثم باب الطاعة ، ثم باب الخالفة ، ثم باب العاذل ، ثم باب المساعد من الإخوان ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الوصل ، ثم باب الهجر ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب البين ، ثم باب القنوع ، ثم باب الضنى ، ثم باب السلو ، ثم باب الموت ، ثم باب قبح المعصية ، ثم باب التعفف .

الكلام فى ماهية الحب

الحب — أعزك الله — أوله هزل وآخره جد . دقت معانيه لجلالته عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالعانة . وليس بمنكر فى الديانة ولا بمحذور فى الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل . وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير ، منهم باندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدعجاء ، والحكم بن هشام ، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطروب أم عبد الله أبنه أشهر من الشمس ، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم ، والحكم المستنصر وأفتانه بصبح أم هاشم المؤيد بالله رضى الله عنه وعن جميعهم وأمتناعه عن التعرض للولد من غيرها . ومثل هذا كثير . ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة — وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيسه الحزم وإحياء الدين ، وإنما هو شيء كانوا ينفردون به فى قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الإخبار به عنهم — لأوردت من أخبارهم فى هذا الشأن غير قليل .

وأما كبار رجالهم ودعائم دولتهم فأكثر من أن يحصوا ، وأحدث ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفر بن عبد الملك بن أبى عامر بواحد ، بنت رجل من الجبائين حتى حمله حبها أن يتزوجها ، وهى التى خلف عليها بعد فناء العامر بن الوزير عبد الله بن مسleme ، ثم تزوجها بعد قتله رجل من رؤساء البربر .

ومما يشبه هذا أن أبا العيش بن ميمون القرشى الحسينى أخبرنى أن نزار بن معد صاحب مصر لم ير أبنه منصور بن نزار ، الذى ولى الملك بعده وأدعى الإلهية إلا بعد مدة من مولده ، مساعدة لجارية كان يحبها حباً شديداً ، هذا ولم يكن له ذكر ولا من يرث ملكه ويحيى ذكره سواه .

ومن الصالحين والفقهاء فى الدهور الماضية والأزمان القديمة من قد أستغنى بأشعارهم عن ذكرهم . وقد ورد من خبر عبيد الله بن عتبة بن مسعود وشعره ما فيه

الكفاية . وهو أحد فقهاء المدينة السبعة . وقد جاء من فتيا ابن عباس رضى الله عنه ما لا يحتاج معه إلى غيره حين يقول : هذا قتيل الهوى لا عقل ولا قود . وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا ، والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع ، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة . الأرواح أكر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوى ومجاورتها في هيئة تركيبها . وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال . والشكل دأباً يستدعى شكله ، والمثل إلى مثله ساكن ، وللهجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد ، والتنافر في الأضداد والموافقة في الأنداد ، والزراع فيما تشابه موجود فيما يبيننا فكيف بالنفس ، وعالمها العالم الصافى الخفيف . وجوهرها الجوهر الصعّاد المعتدل ، وسنخها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار . كل ذلك معلوم بالفطرة (١) في أحوال تصرّف الانسان (٢) ، فيسكن إليها ، والله عزّ وجل يقول : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) فجعل علة السكون أنها منه . ولو كان علة الحب حُسن الصورة الجسدية لوجب ألاّ يستحسن الأنقص من الصورة . ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد محيداً لقلبه عنه . ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يؤاقيقه . فعلمنا أنه شيء في ذات النفس وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب ، وتلك تنفى بفناء سببها . فمن ودّك لأمر ولّى مع انقضائه . وفي ذلك أقول :

وِدَادِي لَكَ الْبَاقِي عَلَى حَسَبِ كَوْنِهِ تَنَاهَى فَلَمْ يَنْقُصْ شَيْءٌ وَلَمْ يَزِدْ
وَلَيْسَتْ لَهُ غَيْرُ الْإِرَادَةِ عِلَّةٌ وَلَا سَبَبٌ حَاشَاهُ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ

(١) في الأصل : « بالحضرة » .

(٢) ظاهر أن في الكلام هنا قصا مؤداه : « وزوجه »

إذا ما وجدنا الشيء علّة نفسه فذاك وجودٌ ليس يَفني على الأبد
وإمّا وجدناه لشيءٍ خِلافه فإِعدامه في عُدْمنا ما له وُجد (١)
وما يؤكّد هذا القول أننا علمنا أن المحبة ضُروب . فأفضلها محبة المتحابين
في الله عز وجل ؛ إمّا لاجتهاد في العمل ، وإمّا لاتفاق في أصل النحلة والمذاهب ،
وإمّا لفضل عِلْم يُمنحه الإنسان .

ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة
ومحبة البريعة المرء عند أخيه ، ومحبة الطمع في جاه الحبوب ، ومحبة المتحابين
لسرّيحة معان عليه يلزمهما ستره ، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر ، ومحبة العشق
التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس ، فكل هذه الأجناس منقضية
مع انقضاء عللها وزائدة بزيادتها وناقصة بنقصانها ، متأكدة بدنوها فاترة
ببعدها . حاشى محبة العشق الصحيح المُمكن من النفس فهي التي لا فناء لها
إلا بالموت . وإنك لتجد الإنسان السالى برغمه (٢) . وذا السنّ المتناهية ، إذا
ذكرته تذكر وارتاح وصبا واعتاده الطرب واهتاج له الحنين .

ولا يعرض في شيء من هذه الأجناس المذكورة ، من شغل البال والخليل
والوسواس وتبدّل الغرائز المركبة وأستحالة السجاياء المطبوعة والتحول (٣) والزفير
وسائر دلائل الشجا ما يعرض في العشق ، فصَحّ بذلك أنه أَسْتَحْسَن رُوحاني
وأمتزاج نفساني . فإن قال قائل : لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما
مستوية ، إذ الجزآن مشتركان في الاتصال وحظّهما واحد . فالجواب عن ذلك
أن نقول : هذه لعمري معارضة صحيحة ، ولكنّ نفس الذي لا يحب من يُحبسه
مكتنفةُ الجهات ببعض الأعراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبائع

(١) في الاصل : « بإعدامه في عُدْمنا ما له وُجد » .

(٢) في الاصل : « بزعمه » .

(٣) في الاصل : « التحول » .

الأرضية فلم تُحس بالجزء الذى كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هى ، ولو تخلصت لاستويا فى الاتصال والمحبة . ونفس الحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها فى المجاورة ، طالبة له قاصدة إليه باحثة عنه مشبهة لملاقاته ، جاذبة له لو أمكنها كالمغناطيس والحديد ، قوة جوهر المغناطيس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكمها ولا من تصفيتها أن تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها ، كما أن قوة الحديد لشدها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه ، إذ الحركة أبداً إنما تكون من الأقوى ، وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحاجس ، تطلب ما يشبهها وتنقطع إليه وتنهض نحوه بالطبع والضرورة وبالاختيار والتعمد . وأنت متى أمسكت الحديد بيدك لم ينجذب إذ لم يبلغ من قوته أيضاً مغالبة الممسك له مما هو أقوى منه . ومتى كثرت أجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها ، ففى عظم جرم المغناطيس ووازت قواه جميع قوى جرم الحديد عادت إلى طبعها المعهود . وكالنار فى الحجر لا تبرز على قوة الحجر (١) فى الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلا بعد التدح ومجاورة الجرمين بضغطهما وأصطكاكما ، وإلا فهى كامنة فى حجرها لا تبدو ولا تظهر .

ومن الدليل على هذا أيضاً أنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق الصفات الطبيعية لا بد فى هذا وإن قل ، وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة . فانظر هذا تراه عياناً ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ، وقول مروى عن أحد الصالحين : أرواح المؤمنين تتعارف . ولهذا ما أعظم بقراط حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ما أحبنى إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه .

(١) فى الأصل : « لا تبرز على قوة النار » .

وذكر أفلاطون أن بعض الملوك سجنه ظمأً ، فلم يزل يحتجّ عن نفسه حتى أظهر براءته ، وعلم الملك أنه له ظالم ، فقال له وزيره الذي كان يتولى إيصال كلامه إليه : أيها الملك ، قد استبان لك أنه برىء فمالك وله ؟ فقال الملك : لعمرى مالى إليه سبيل ، غير أنى أجد لنفسى استئقالا لأدرى ما هو . فأدّى ذلك إلى أفلاطون . قال : فاحتجت أن أفتش فى نفسى وأخلاقى [أجد] شيئاً أقابل به نفسه وأخلاقه مما يشبهها ، فنظرت فى أخلاقه فإذا هو محب للعدل كاره للظلم ، فميزت هذا الطبع فىّ ، فما هو إلا أن حركته ^(١) هذه الموافقة وقابلت نفسه بهذا الطبع الذى بنفسى ^(٢) فأمر بإطلاقى ، وقال لوزيره : قد انحل كل ما أجد فى نفسى له .

وأما العلة التى توقع الحب أبداً فى أكثر الأمر على الصورة الحسنة ، فالظاهر ان النفس حسنة تولع بكل شىء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة ، فهى إذا رأت بعضها تثبتت فيه ، فإن ميزت وراءها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية ، وإن لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة ، وذلك هو الشهوة .

وإن للصور لتوصيلاً عجيباً بين أجزاء النفوس النائية . وقرأت فى السفر الأول من التوراة أن النبي يعقوب عليه السلام أيام رعيه غنماً لابن خاله مهراً لابنته شارطه على المشاركة فى إنساها ، فكل بهيم ليعقوب وكل أغرّ للابان ، فكان يعقوب عليه السلام يعمد إلى قضبان الشجر يسلخ نصفاً ويترك نصفاً بحاله ، ثم يلقى الجميع فى الماء الذى ترده الغنم ، ويتعمد إرسال الطروقة فى ذلك الوقت فلا تلد إلا نصفين ، نصفاً بهماً ونصفاً غُرّاً .

وذكر عن بعض القافة أنه أتى بابن أسود لأبيضين ، فنظر إلى أعلامه فرآه

(١) فى الاصل : « حركت » .

(٢) فى الاصل : « بنفسه » .

لها غير شك . فرغب أن يُوقَفَ على الموضع الذى اجتمعما عليه . فأدخل البيت الذى كان فيه مَضْجَعُهُمَا ، فرأى فيما يوازى نظر المرأة صورة أسود فى الحائط ، فقال لأبيه : من قبل هذه الصورة أُتيتَ في أبنك .

وكثيراً ما يصرف شعراء أهل الكلام هذا المعنى فى أشعارهم ، فيخاطبون المرئى فى الظاهر خطاب المعقول الباطن ، وهو المستفيض فى شعر النظام إبراهيم ابن سيمار وغيره من المتكلمين ، وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

مألة النَّصر فى الأعداء تعرفها	وعلة الفِرِّ منهم أن يَفْرُونا
إلا نزاعُ نفوس الناس قاطبةً	إليك يا لؤلؤاً فى الناس مكنونا
من كنتَ قدامه لا ينتئى أبداً	فهم إلى نورك الصَّعْداء يَعْشُونا
ومن تكن خلفه فالنفسُ تُصرفه	إليك طوعاً فهم دأباً يَكُرونا

ومن ذلك أقول :

أمن عالم الأملآك أنت أم أنسى	أبن لى فقد أزرى بتمييزى العى
أرى هيئة إنسية غير أنه	إذا أعمل التفكير فالجرم علوى
تبارك من سوى مذاهب خلقه	على أنك النور البنيق الطبيعى
ولا شك عندى أنك الروح ساقه	إلينا مثال فى النفوس اتصالى
عَدِمنا دليلاً فى حدوثك شاهداً	نقيس عليه غير أنك مرئى
ولولا وقوع العين فى الكون لم نقل	سوى أنك العقل الرفيع الحقيقى

وكان بعض أصحابنا يُسمي قصيدة لى « الإدراك المتوهم » منها :

ترى كل ضدد به قائماً	فكيف تحدد أختلاف المعانى
فيأبها الجسم لا ذا جهات	ويا عرضاً ثابتاً غير فان
نقضت علينا وجوه الكلام	فما (١) هو مُذْ لُحتَ بالمُسْتَبان

وهذا بعينه موجود فى البغضة ، ترى الشخصين يتباغضان لالمعنى ، ولا علة ،

(١) فى الأصل : « بما » .

ويستعمل بعضهما بعضاً بلا سبب . والحب أعزك الله داء عيَاء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ، ومقامٌ مستلذ ، وعلة مشتهاة لا يودّ سليمها البرء ، ولا يتمنى علمها الإفاقة . يُزَيِّن للمرء ما كان يأنف منه ، ويسهّل عليه ما كان يصعب عنده حتى يُحِيل الطبائع المركبة والحيلة المخلوقة . وسيأتى كل ذلك ملخصاً في بابه إن شاء الله .

هــبـر :

ولقد علمتُ فتى من بعض معارفى قد وَجِل في الحب وتورَّط في حباله ، وأضر به الوجد ، وأنضح الدنف ، وما كانت نفسه تطيب بالدعاء إلى الله عزَّ وجل في كشف ما به ولا ينطلق به لسانه ، وما كان دعاؤه إلا بالوصل والتمكن ممن يُحب ، على عظيم بلائه وطويل همه ، فما الظنَّ بسقيمه لا يريد فقد سقمه . ولقد جالسته يوماً فرأيت من إكبابه وسوء حاله وإطراقه ما ساء في فقلت له في بعض قولي : فرَّج الله عنك . فلقد رأيتُ أثر الكراهية في وجهه . وفي مثله أقول من كلمة طويلة :

وأستلذّ بلائى فيك يا أملئ ولستُ عنك مدى الأيام أنصرفُ
إن قيل لى تتسلى عن مودته فما جوابى إلا اللامُ والألف

هــبـر :

وهذه الصفات مخالفة لما أخبرنى به عن نفسه أبو بكر محمد بن قاسم بن محمد القرشى . المعروف بالشلشى ، من ولد الإمام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ، أنه لم يُحب أحداً قط ، ولا أسيف على إلف بانٍ منه ، ولا تجاوز حد الصُّحبة والألفة إلى حدِّ الحب والعشق منذ خلق .

باب علامات الحب

والحب علامات يقفوها القطن ، ويهتدى إليها الذكى . فأولها إدمان النظر ،

والعينُ باب النفس الشارح ، وهى المنقبة عن سرائرها ، والمعبرة لضمائرها .
والمُعربة عن بواطنها . فترى الناظر لا يطرف ، ينتقل بتنقل المحبوب وينزوى
بانزوائه ، ويميل حيث مال كالخرباء مع الشمس . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :
فليس لعينى عند غيرك موقفٌ كأنك ما يحكون من حَجَرِ البَهْتِ
أَصْرَفُهَا حَيْثُ انصرفتُ وكيفما تَقْلِبْتَ كَالْمَنْعُوتِ فى النَّحْوِ وَالنَّعْتِ

ومنها الإقبال بالحديث ، فما يكاد يُقبل على سوى محبوبه ولو تعمد [غير]
ذلك ، وإن التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه ، والإنصات لحديثه إذا حدث ،
واستغراب كل ما يأتى به وكأنه عينُ الحال وخرق العادات ، وتصديقه وإن
كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعه كيف سلك وأىَّ
وجه من وجوه القول تناول .

ومنها الإسراعُ بالسير نحو المكان الذي يكون فيه ، والتعمد للعود بقربه
والدنو منه ، واطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه ، والاستهانة بكل خطب جليل
داعٍ إلى مفارقتة ، والتباطؤ فى الشئ عند القيام عنه . وفى ذلك أقول شعراً :
وإذا قمتُ عنك لم أمش إلا مشىَ عانٍ يُقادى نحو القناء
فى مَجِيئِى إِلَيْكَ أحتثُّ كالبدور إذا كان قاطعاً للسماء
وقيامى إن قمتَ كالأنجم العالٍ ليةِ الثابتات فى الإبطاء
ومنها بهت يقع وروعة تبدو على الحب عند رؤية من يُحب فجأة
وطلوعه بفتة .

ومنها اضطراب يبدو على الحب عند رؤية من يُشبه محبوبه أو عند سماع
اسمه فجأة . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

إذا ما رأتُ عيناى لابسَ مُحَرِّقٍ تَقَطَّعَ قلبى حَسرةً وتفظراً
غدا لدماء الناس باللحظ سافكاً وضُرِّجَ منها ثوبه فتعصفراً
ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل

ذلك ، كأنه هو الموهوب له والمسمى في حظه ، كل ذلك ليُبدي محاسنه ويُرغب في نفسه . فكم بخيل جاد ، وقطوب تطلّق ، وجبان تشجّع ، وغليظ الطبع تطرب ، وجاهل تأدب ، وتفل^(١) تزين ، وفقير تجمل . وذى سن تفتى ، وناسك تفتّك ، ومصون تبدّل^(٢) .

وهذه العلامات تكون قبل استعمار نار الحب وتأجج حريقه وتوقد شعله واستطارة لهبه . فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سراراً ، والإعراض عن كل ما حضر إلا عن المحبوب جهاراً . ولى أبيات جمعت فيها كثيراً من هذه العلامات ، منها :

أهوى الحديث إذا ما كان يذكركلى فيه ويعبق لى عن غير أرج
إن قال لم أستمع ممن يجالسنى إلى سوى لفظة المستطرف الغنج
ولو يكون أمير المؤمنين معى ما كنت من أجله عنه بمنعرج
فإن أقم عنه مضطراً فإنى لا أزال ملتفتاً والمشى مشى وجى
عينى فيه وجسمى عنه مرتحل مثل ارتقاب الغريق البرّ فى اللجج
أغصّ بالماء إن أذكر تباعده كمن تشاء وسط النقع والوهج
وإن تقلّ ممكن قصد السماء أقل نعم وإنى لأدرى موضع الدرّج
ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل ذى بصر الأنساض الكثير الزائد ،
والتضايق فى المكان الواسع ، والمجاذبة على الشئ يأخذه أحدهما ، وكثرة الغمز
الخفى ، والميل بالأتسكاء ، والتعمد لمس اليد عند الحادثة ، ولمس ما أمكن من
الأعضاء الظاهرة . وشرب فضلة ما أبقي المحبوب فى الإناء ، وتجرى المكان الذى
يقابله فيه .

ومنها علامات متضادة ، وهى على قدر الدواعى والعوارض الباعثة
والأسباب المحركة والخواطر المهيجة ، والأضداد أنداد ، والأشياء إذا أفرطت

(١) النفل ، كفرج : المتغير الربيع . (٢) فى الأصل : « تمسك » .

في غايات تضادها . ووقفت في انتهاء حدود اختلافها تشابهت ، قدرة من الله عز وجل تضلّ فيها الأوهام ، فهذا الثلج إذا أدمن حبسه في اليد فعل فعل النار ، ونجد الفرح إذا أفرط قتل ، والغم إذا أفرط قتل ، والضحك إذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين . وهذا في العالم كثير ، فنجد المحبين إذا تكافيا في المحبة وتأكدت بينهما تأكداً شديداً أ كثر بهما جدّها بغير معنى ، وتضادّها في القول تعمداً ، وخروجُ بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور ، وتتبع كلّ منهما لفظةً تقع من صاحبه وتأولها على غير معناها ، كل هذه تجربة ليمدو ما يعتقده كل واحد منهما في صاحبه . والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحنة ومخارجة التشاجر سرعة الرضى . فإنك بينما ترى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذى لا يقدر يصلح عند الساكن النفس السالم من الأحقاد في الزمن الطويل ولا ينجبر عند الحقود أبداً ، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجل الصّحبة ، وأهدرت المعاتبة ، وسقط الخلاف ، وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة ، هكذا في الوقت الواحد مراراً . وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يُخالجك شك ولا يدخلنك ريبٌ البتة ولا تمارّ في أن بينهما سرّاً من الحب دفيئاً ، واقطع فيه قطع من لا يصرفه عنه صارف . ودونكها تجربةٌ صحيحةٌ وخبرةٌ صادقة . هذا لا يكون إلا عن تكلفٍ في المودة واتلافٍ صحيح ، وقد رأيته كثيراً .

ومن أعلامه أنك تجد الحب يستدعى سماع اسم من يُحب ، ويستلذ الكلام في أخباره ويجعلها هُجّيراً ، ولا يرتاح لشيء ارتياحه لها ، ولا ينهيه عن ذلك تخوّفٌ أن يظن السامع ويفهم الحاضر ، وحُبك الشيء يُعمى ويُصم . فلو أمكن المحبّ ألاّ يكون حديثٌ في مكان يكون فيه إلا ذكر من يُحبه لما تعدّاه . ويعرض للصديق المودة أن يتبدى في الطعام وهوله مُشتهٍ فها هو إلا وقتٌ ، ماتتهاج له من ذكر

من يُحب صار الطعام غُصةً في الحلق وشجى في المرء . وهكذا في الماء وفي الحديث فإنه يفتاحه متبجحاً فتعرض له خُطرة من خطرات الفكر فيمن يُحب فتستبين الحِوالة في منطقة والتقصير في حديثه ، وآية ذلك الوجوم والإطراق وشدة الانفلاق ، فبينما هو طَلَقَ الوجه خفيفُ الحركات صار مُنطبقاً متناقلاً حائر النفس جامداً الحركة يبرم من الكلمة ويضجر من السؤال .

ومن علاماته حُبُّ الوحدة والأنس بالانفراد ، ونُحول الجسم دون حدٍّ يكون فيه ولا وجع مانع من التقلب والحركة والمشى . دليل لا يكذب ونُخبِر لا يخون عن كلمة في النفس كامنة .

والسهرُ من أعراض المحبين . وقد أكثر الشعراء في وصفه وحكوا أنهم رُعاة السكواكب وواصفوا طول الليل . وفي ذلك أقول وأذكر كتمان السرِّ وأنه يتوسَّم بالعلامات :

تَعَلَّمتِ السَّحَابُ من شُؤُونِي	فَعَمَّتِ بِالْحَيَا السَّكْبِ الْهَتُونِ
وهذا الليلُ فيكَ غدا رَفِيقِي	بذلك أُم على سَهْرِي مُعِينِي
فإن لم يَنْقِضِ الإِظْلَامُ . . . (١)	أَلَا ما أَطْبَقْتَ نوماً جُفُونِي
فليس إلى النهار لنا سَبِيلُ	وسُهد زائد في كُلِّ حين
كَأَنَّ نَجْمَومَه وَالْعَمِيمُ يُخْفِي	سناها عن مُلاحِظَةِ العُيُونِ
ضَمِيرِي في وِدَادِكَ يَا مُنَايَا	فليس يَبِينُ إِلَّا بِالظُّنُونِ

وفي مثل ذلك قطعةٌ منها :

أَرعى النُّجُومَ كأنِّي كُنْتُ أَن	أَرعى جَمِيعَ ثُبُوتِها وَالْخُنُسِ
فكأنها والليلُ نِيرانُ الجَوَى	قد أَضْرَمْتُ في فِكْرَتِي من حِنْدَسِ
وكأنِّي أَمْسَيْتُ حارسَ رَوْضَةٍ	خَضراءَ وَشَعَّ نَبْتُها بِالرَّجَسِ

لو عاش بَطْلِيمُوسَ أَيْقَنَ أَنِّي أَقْوَى الْوَرَى فِي رَصْدِ جَرَى الْكُتْسِ
والشئ قد يذكرك لما يُوجبه : وقع لى فى هذه لأبيات تشبيه شيئين بشيئين
فى بيت واحد . وهو البيت الذى أوله « فكأنها والليل » وهذا مستغرب فى
فى الشعر . ولى ما هوأ كملُ منه ، وهو تشبيه ثلاثة أشياء فى بيت واحد ، وتشبيه
أربعة أشياء فى بيت واحد . وكلاهما فى هذه القطعة التى أوردتها ، وهى :

مَشُوقٌ مُعْنَى مَا يَنَامُ مُسَهَّدٌ بِخَمَرٍ التَّجَنَّى مَا يَزَالُ يُعْرَبُ
ففى ساعةٍ يُبْدَى إِلَيْكَ عَجَائِباً يُمَرُّ وَيَسْتَحْلِي وَيُدْنَى وَيُبْعَدُ
كَأَنَّ النَّوَى وَالْعَتَبَ وَالْمَجْرُ وَالرَّضَى قِرَانُ وَأَنْدَادُ وَنَحْسُ وَأَسْعَدُ
رَتَى لَغْرَامِي بَعْدَ طَوْلِ تَمَنُّعٍ وَأَصْبَحْتُ مُحْسُوداً وَقَدْ كُنْتُ أَحْسَدُ
نَعَمْنَا عَلَى نُورٍ مِنَ الرُّوضِ زَاهِرٍ سَقَتَهُ الْغَوَادِي فَهُوَ يُثْنَى وَيَحْمَدُ
كَأَنَّ الْحَيَا وَالْمُزْنَ وَالرُّوضِ عَاطِراً دُمُوعٌ وَأَجْفَانُ وَخَدٌّ مُورَدُ
ولا ينكر على مُنْكَرِ قَوْلِي « قِرَان » فأهل المعرفة بالكواكب يسمون
التقاء كوكبين فى درجة واحدة قراناً .

ولى أيضاً ما هو أتم من هذا ، وهو تشبيه خمسة أشياء فى بيت واحد فى
هذه القطعة ، وهى :

خَلَوْتُ بِهَا وَالرَّاحُ ثَالِثَةٌ لَهَا وَجُنْحُ ظَلَامِ اللَّيْلِ قَدْ مَدَّ مَا أَنْبَلَجَ
فَتَاةٌ عَدِمْتُ الْعَيْشَ إِلَّا بِقُرْبِهَا فَهَلْ فِي أَبْتِغَاءِ الْعَيْشِ وَيَحْكُ مِنْ حَرَجٍ
كَأَنِّي وَهْيٌ وَالْكَاسُ وَالْخَمْرُ وَالْدُّجَى ثَرَى وَحَيَاً وَالذُّرُّ وَالتَّبَرُّ وَالسَّنَجُ
فهذا أمر لا مزيدَ فيه ولا يقدر أحدٌ على أكثر منه ، إذ لا يحتمل
العروضُ ولا بنية الأسماءُ أكثر من ذلك . .

ويعرض للمُحِبِّينَ الْقَلْقُ عِنْدَ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ :

أحدهما عند رجائه لقاء من يُحِبُّ فيعرض عند ذلك حائل .

خبر :

وإني لأعلم بعض مَنْ كان محبوبه يَعده الزيارة ، فما كنتُ أراه إلا جاثياً
وذاهباً لا يقربه القرارُ ولا يثبت في مكان واحد ، مقبلاً مديراً قد استخفه السرور
بعد ركانة ، وأشاطه بعد رزاة . ولى في معنى أنتظار الزيارة :

أقمتُ إلى أن جاءني الليلُ راجياً لقاءك يا سؤلى ويا غاية الأمل
فأيا سنى الإِظلامُ عنك ولم أكن لأياس يوماً إن بدا الليلُ يتصل
وعندى دليلٌ ليس يكذب خبره بأمثاله في مُشكل الأمر يُستدل
لأنك لورُمتَ الزيارة لم يكن ظلامٌ ودام الثورفينا ولم يزل

والثانى عند حادثٍ يحدث بينهما من عتاب لا تُدرى حقيقته إلا بالوصف .
فعند ذلك يشتدّ القلق حتى توقف على الجليلة ، فإما أن يذهب تحمّله إن رجا
العفو ، وإما أن يصير القلق حزناً وأسفاً إن تخوف الهجر .

ويعرض للمحب الأستكانةُ لجفاء المحبوب عليه . وسيأتى مفسراً في بابه
إن شاء الله تعالى .

ومن أعراضه الجزع الشديد والحمة المقطعة تغلب عند ما يرى من إعراض
محبوبه عنه ونفاره منه ، وآية ذلك الزفير وقلة الحركة والتأوه وتنفس الصعداء .
وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

جميلُ الصبر مسجون ودمع العين مسفوح (١)

ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته حتى يكونوا
أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته .

والبكاء من علامات المحب ولكن يتفاضلون فيه ، فمنهم غزير الدمع هامل
الشؤون تجيبه عينه وتحضره عبرته إذا شاء ، ومنهم جمود العين عديم الدمع ،
وأنا منهم . وكان الأصل في ذلك إدمانى أكل الكندر لخفقان القلب ، وكان

(١) فى الاصل : « ودموع العين سارحة » .

عَرَضَ لِي فِي الصَّبَا ، فَإِنِّي لَأَصَابُ بِالمُصِيبَةِ الفَادِحَةِ فَأَجِدُ قَائِي يَنْفَطِرُ وَيَنْقَطِعُ
وَأَحْسُ فِي قَائِي غُصَّةَ أَمْرٍ مِنَ العَلَقَمِ تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ تَوْفِيَةِ الكَلَامِ حَقًّا
مُخَارِجِهِ ، وَتَسْكَادُ تَشَوَّقِي النَفْسُ أَحْيَانًا وَلَا تَجِيبُ عَيْنِي الْبَتَّةَ إِلَّا فِي النَّدْرَةِ بِالشَّيْءِ
الْيَسِيرِ مِنَ الدَّمْعِ .

قَبْر :

وَلَقَدْ أَذْكَرَنِي هَذَا الْفَصْلُ يَوْمًا : وَدَعْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ صَاحِبِي
أَبَا عَامِرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَامِرٍ صَدِيقَنَا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي سَفَرَتِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ الَّتِي لَمْ نَرَهُ بَعْدَهَا ،
فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَبْكِي عِنْدَ ودَاعِهِ وَيُنْشِدُ مِثْمَلًا بِهَذَا الْبَيْتِ :
أَلَا إِنْ عَيْنًا لَمْ تَجِدْ يَوْمَ وَاسِطٍ عَلَيْكَ بِيَاقِي دَمْعُهَا بِجُودٍ
وَهُوَ فِي رِثَاءِ يَزِيدَ بْنِ عَمْرِو بْنِ هَبِيرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَنَحْنُ وَقُوفٌ عَلَى سَاحِلِ
الْبَحْرِ بِمَالَقَةِ ، وَجَعَلْتُ أَنَا أَكْثَرَ التَّفَجُّعِ وَالْأَسْفِ وَلَا تَسَاعِدُنِي عَيْنِي ، فَقُلْتُ
مُحِبِّيًا لِأَبِي بَكْرٍ :

وَأَنْ أَمْرًا لَمْ يُفْنِ حُسْنَ أَصْطِبَارِهِ عَلَيْكَ وَقَدْ فَارَقْتَهُ الْجَلِيدَ
وَفِي الْمَذْهَبِ الَّذِي عَلَيْهِ النَّاسُ أَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ قَلْتُهَا قَبْلَ بُلُوغِ الْحِلْمِ ، أَوَّلُهَا :
دَلِيلَ الْأَسَى نَارٌ عَلَى الْقَلْبِ تَلْفَحُ وَدَمْعٌ عَلَى الْخَدَّيْنِ يَحْمَى وَيَسْفَحُ
إِذَا كَتَمَ الْمَشْغُوفُ سِرَّ ضُلُوعِهِ فَإِنْ دَمُوعُ الْعَيْنِ تُبْدَى وَتَقْضَحُ
إِذَا مَا جُفُونَ الْعَيْنِ سَالَتْ شُؤْنَهَا فِي الْقَلْبِ دَاءٌ لِلْغَرَامِ مُبْرِحُ
وَيَعْرِضُ فِي الْحُبِّ سُوءُ الظَّنِّ وَأَتِهَامُ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْ أَحَدِهِمَا وَتَوَجُّيْهَا إِلَى
غَيْرِ وَجْهِهَا ، وَهَذَا أَصْلُ الْعِتَابِ بَيْنَ الْحَبِيبَيْنِ . وَإِنِّي لِأَعْلَمُ مِنْ كَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ
ظَنًّا وَأَوْسَعَهُمْ نَفْسًا وَأَكْثَرَهُمْ صَبْرًا وَأَشَدَّهُمْ احْتِمَالًا وَأَرْحَبَهُمْ صَدْرًا ، ثُمَّ لَا يَحْتَمِلُ
مَنْ يُحِبُّ شَيْئًا وَلَا يَقَعُ لَهُ مَعَهُ أَيْسَرُ مُخَالَفَةٍ حَتَّى يَبْدَى مِنَ التَّعَدِيدِ فَنُونًا وَمِنْ سُوءِ
الظَّنِّ وَجُوهًا . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ شِعْرًا ، مِنْهُ :
أَسَىءَ ظَنِّي بِكُلِّ مُحْتَقِرٍ تَأْتِي بِهِ وَالْحَقِيرُ مِنْ حَقَرٍ

كى لا يُرى أصلُ هجرةٍ وقلِّ فالنارُ في بدءِ أمرها شرَّ
وأصلُ عَظْمِ الأمور أهونها ومن صغير النوى ترى الشجر
وترى المحب ، إذا لم يثق ببقاء^(١) طويَّة محبوبه له ، كثير التحفظ مما لم يكن
يتحفظ [منه] قبل ذلك ، متقفاً لكلامه ، مزيناً لحركاته ومرامى طرفه ، ولا سيما
إن دُهي بمتجنِّ وبلى بمُعربد .
ومن آياته مراعاةُ المحبِّ لمحبوبه ، وحفظه لكل ما يقع منه ، وبحشه عن
أخباره حتى لا تسقط عنه دقيقة ولا جليلة ، وتتبعه لحركاته . ولعمري لقد ترى
البليد بصيراً في هذه الحالة ذكياً ، والغافل فطناً .

خبر :

ولقد كنتُ يوماً بالمرية قاعداً في دكانِ إسماعيل بن يونس الطيب الاسرائيلي ،
وكان بصيراً بالقراسة مُحسناً لها ، وكُنَّا في لمة ، فقال له مجاهد بن الحصين القيسى :
ما تقول في هذا ؟ وأشار إلى رجل مُنتبذ عنَّا ناحية أسمه حاتم ويكنى أبا البقاء ،
فنظر إليه ساعةً يسيرة ثم قال : هو رجل عاشق . فقال له : صدقت ، فمن أين
قلت هذا ؟ قال : لِبُهْتٍ مُفرط ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته ، فعلمت
أنه عاشق وليس بمُرَّيب .

باب من أحب في النوم

ولا بُد لكل حُب من سبب يكون له أصلاً ، وأنا مبتدئ بأبعد ما يمكن
أن يكون من أسبابه ليجرى الكلامُ على نسق ، أو أن يُبتدأ أبداً بالسهل
والأهون . فمن أسبابه شيء لولا أني شاهدته لم أذكره لغرابته .

خبر :

وذلك أني دخلتُ يوماً على أبي السريِّ عمار بن زياد صاحبنا مولى المؤيد

(١) في الأصل : « بقاء » .

فوجدته مفكراً مهتماً فسألته عما به ، فتمنّع ساعةً ثم قال : لى أَعْجوبة ما سمعت قط . قلت : وما ذاك ؟ قال : رأيت فى نَوْمى الليلةَ جاريةً فَاسْتَيْقِظْتُ وقد ذهب قلبى فيها وهَمَّتْ بها وإنى لنى أصعب حال من حبها ، ولقد بقى أياماً كثيرة يزید على الشهر مغموماً مهموماً لا يهنته شىءٌ وجداً ، إلى أن عدلته وقلت له : من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة ، وتعلق وهمك بمعدوم لا يوجد . هل تعلم من هى ؟ قال : لا والله . قلت : إنك لقليل الرأى مُصاب البصيرة إذ تحب من لم تره قط ولا خلق ولا هو فى الدنيا ، ولو عشقت صورة من صور الحمام لكنت عندى أعذر . فما زلتُ به حتى سلا وما كاد .

وهذا عندى من حديث النفس وأضعافها ، وداخل فى باب التنى وتخيل الفكر . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

يَالَيْتَ شَعْرَى مَنْ كَانَتْ وَكَيْفَ سَرَتْ أَطْلَعَةَ الشَّمْسِ كَانَتْ أَمْ هِىَ الْقَمَرُ
أَظَنَّهُ الْعَقْلُ أَبْدَاهُ تَدَبَّرَهُ أَوْ صُورَةَ الرُّوحِ أَبْدَتْهَا لى الْفِكْرُ
أَوْ صُورَةَ مَثَلَتْ فى النَّفْسِ مِنْ أَمَلَى فَقَدْ تَخَيَّلَ فى إِدْرَاكِهَا الْبَصَرُ
أَوْ لَمْ يَكُنْ كُلُّ هَذَا فِى حَادِثَةٍ أَتَى بِهَا سَبِيلاً فى حَتْفِ الْقَدَرِ

باب من أحب بالى صف

ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة ، وهذا أمر يُتَرَقَّى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسلة والمكاتبة والهم والوجد والسهر على غير الأبصار ، فإن للحكايات ونعت الحاسن ووصف الأخبار تأثيراً فى النفس ظاهراً .

وأن تسمع نغمتها من وراء جدار ، فيكون سبباً للحب واشتغال البال . وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ، ولكنه عندى بُنيان هار على غير أس ، وذلك أن الذى أفرغ ذهنه فى هوى من لم ير لا بد له إذ يخلو بفكره أن يُمَثِّلَ لنفسه صورةً يتوهمها وعيناً يُقِيمُهَا نُصْبَ ضميره ، لا يُمَثِّلُ فى هاجسه غيرها ،

قد مال بوجهه نحوها ، فإن وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية ، وكلا الوجهين قد عرض وعُرف ، وأكثر ما يقع هذا في ربّات القُصور المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال ، وحُب النساء في هذا أثبت من حُب الرجال لضعفهن وسُرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن ، وتمكّنه منهن . وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

ويا مَنْ لامنّى في حُـبٍّ مَنْ لم يَره طرُفي

لقد أفرطتَ في وصفك لي في الحب بالضعف

فقل هل تُعرف الجنّة يوماً بسوى الوصف

وأقول شعراً في استحسان النّعمة دون وقوع العين على العيان : منه :

قد حلّ جيش الغرام سَمْعِي وهو على مُقلتي ييسدو

وأقول أيضاً في مخالفة الحقيقة لظنّ المحبوب عند وقوع الرؤية :

وصفوك لي حتى إذا أبصرت ما وصفوا علمتُ بأنه هذيان

فالطبل جلد فارغ وطنينه يرتاع منه ويفرق الإنسان

وفي ضد هذا أقول :

لقد وصفوك لي حتى ألتقينا فصار الظنُّ حقاً في العيان

فأوصاف الجنان مُقصّرات على التّحقيق عن قدر الجنان

وإن هذه الأحوال لتحدّث بين الأصدقاء والإخوان ، وعني أحدث .

ضمير :

إنه كان بيني وبين رجل من الأشراف ودّ وكيد وخطاب كثير ، وما تراءينا

قط . ثم منح الله لي لقاءه ، فما مرّت إلا أيام قلائل حتى وقعت لنا مُنافرة عظيمة ووحشة شديدة متصلة إلى الآن ، فقلت في ذلك قطعة ، منها :

أبدلت أشخاصنا كرهاً وفرط قلّي كما الصحائف قد يُبدلن بالنّسخ

ووقع لي ضدّ هذا مع أبي عامر بن أبي عامر رحمة الله عليه ، فإنّي كنت له

على كراهة صحيحة وهو لى كذلك ، ولم يرني ولا رأيته ، وكان أصل ذلك تنقيلاً
يُحمل إليه عنى وإلى عنه ، ويؤكدده انحراف بين أبويننا لتنافسهما فيما كانا فيه من
صُحبة السلطان ووجاهة الدنيا ، ثم وفق الله الاجتماع به فصار لى أود الناس
وصرت له كذلك ، إلى أن حال الموت بيننا . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

أخ لى كَسَبَني اللقاء وأوجدنى فيه عِلْقاً شريفاً
وقد كنتُ أكره منه الجوار وما كنتُ أرغبه لى أليفاً
وكان البغيضَ فصار الحبيبَ وكان الثقيلَ فصار الخفيفا
وقد كنتُ أدمن عنه الوَجيفَ فصرتُ أديم إليه الوَجيفا

وأما أبو شاكر عبد الرحمن بن محمد القبرى فكان لى صديقاً مدةً على غير
رؤية ، ثم التقينا فتأكدت المودة واتصلت وتمادت إلى الآن .

باب من أحب من نظرة واحدة

وكثيراً ما يكون لُصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة . وهو ينقسم قسمين ،
فالقسم الواحد مخالف للذى قبل هذا ، وهو أن يعشق المرء صورة لا يعلم من هى
ولا يدرى لها اسماً ولا مستقرّاً ، وقد عرض هذا لغير واحد .

ضبر :

حدثنى صاحبنا أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق عن ثقة أخبره سقط عنى
اسمه ، وأظنه القاضى ابن الحذاء ، أن يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرّمادى
كان مجتازاً عند باب العطارين بقرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى
جارية أخذت بمجامع قلبه وتخلّل حبّها جميع أعضائه ، فأنصرف عن طريق
الجامع وجعل يتبعها وهى ناهضة نحو القنطرة ، فجازتها إلى الموضع المعروف
بالربّض . فلما صارت بين رياض بنى مروان - رحمهم الله - المبنية على قبورهم فى
مقبرة الربض خلف النهر . نظرت منه مُنفرداً عن الناس لاهمة له غيرها ، فأنصرفت
إليه فقالت له : مالك تمشي ورأى ؟ فأخبرها بعظيم بليّته بها . فقالت له : دَع

عنك هذا ولا تطلب فضيحتي فلا مطمع لك في النية ولا إلى ما ترغبه سبيل .
 فقال : إني أقنع بالنظر . فقالت : ذلك مُباح لك . فقال لها : يا سيدتي ، أحره أم
 مملوكة ؟ قالت : مملوكة . فقال لها : ما أسمك ؟ قالت : خلوة . قال : ولين أنت ؟
 فقالت له : علمك والله بما في السماء الساعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع
 الحال . فقال لها : ياسيدتي ، وأين أراك بعد هذا ؟ قالت : حيث رأيتني اليوم
 في مثل تلك الساعة من كل جمعة . فقالت له : إما أن تنهض أنت وإما أنهض أنا .
 فقال لها : أنهض في حفظ الله . فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه أتباعها لأنها
 كانت تلتفت نحوه لترى أيسارها أم لا . فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها
 فلم يقع لها على مسألة .

قال أبو عمر ، وهو يوسف بن هارون : فوالله لقد لازمت باب العطارين
 والربض من ذلك الوقت إلى الآن فواقعتُ لها على خير ولا أدرى أسماءاً لحسنتها
 أم أرض بلعتها ، وإن في قلبي منها منها لأحر من الجمر . وهي خلوة التي يتغزل
 بها في أشعاره .

ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سببها إلى سرقة في قصة
 طويلة . ومثل ذلك كثير . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

عيني جنت في فؤادي لوعة الفكر فأرسل الدمع مُقتصاً من البصر
 فكيف تبصر فعل الدمع مُنتصفاً منها يا عراقها في دمعها الدرر
 لم ألقها قبل إبصارى فأعرفها وآخر العهد منها ساعة النظر

والقسم الثاني مخالف للباب الذي يأتي بعد هذا الباب إن شاء الله ، وهو أن
 يعلق المرء من نظرة واحدة جارية معروفة الأسم والمكان والمنشأ ، ولكن
 التفاضل يقع في هذا في سرعة الفناء وإبطائه ، فمن أحب من نظرة واحدة
 وأسرع العلاقة من لحظة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر ، ونخبير بسرعة السلو ،

وشاهد الظرافة والملل . وهكذا في جميع الأشياء أسرعها نمواً أسرعها فناً ، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاذاً .

ضمير :

إني لأعلم فتى من أبناء الكتّاب ورأته امرأة سرّية النشأة ، عالية المنصب ، غليظة الحجاب ، وهو مجتاز ، ورأته في موضع تطلّع منه كان في منزلها ، فعلقته وعلقها وتهاديا المراسلة زماناً على أرق من حد السيف ، ولولا أني لم أقصد في رسالتي هذه كشف الحيل وذكر المكائد لأوردت مما صحّ عندي أشياء تحير اللبيب وتدهش العاقل ، أسبل الله علينا ستره وعلى جميع المسلمين بمنّه ، وكفانا .

باب من لا يحب الا مع المطاولة

ومن الناس من لا تصحّ محبته إلا بعد طول المخافاة (١) وكثير المشاهدة ومتامدى الأنس ، وهذا الذي يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مرث الليالي ، فمادخل عسيراً لم يخرج يسيراً ، وهذا مذهبي . وقد جاء في الأثر أن الله عز وجل قال للروح حين أمره أن يدخل جسد آدم ، وهو فخار ، فهاب وجزع : أدخل كرهاً وأخرج كرهاً . حدّثناه عن شيوخنا .

ولقد رأيت من أهل هذه الصفة من إن أحسن من نفسه بابتداء هوى ، أو توجّس (٢) من استحسانه ميلاً إلى بعض الصور أستعمل الهجر وترك الإمام ، لئلا يزيد ما يحب فيخرج الأمر عن يده ، ويحلّ بين القير والتزّوان . وهذا يدل على لصوق الحب بأكباد أهل هذه الصفة ، وأنه إذا تمكّن منهم لم يحلّ أبداً . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

سأبعد عن دواعي الحبّ إني رأيت الحزم من صفة الرشيد

(١) المخافاة : إمرار المطلق .

(٢) في الاصل : «توحش» .

رَأَيْتُ الْحُبَّ أَوَّلَهُ التَّصَدَّى بِعَيْنِكَ فِي أَزَاهِيرِ الْخُدُودِ
فَبَيْنَا أَنْتَ مَغْتَبِطٌ مُحَلَّى إِذَا قَدْ صَرَبْتَ فِي حَلَقِ الْقَيُودِ
كَمْغَتَرْتُ بِضَحَضَاحٍ قَرِيبٍ فَذَلَّ فَغَابَ فِي غَمْرِ الْمُدُودِ (١)

وإني لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجمل حبه إلا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون في ظني متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً في حجاب القلب فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهرأ وأخذني معه في كل جدّ وهزل ، وكذلك أنا في السلو والتوق ، فما نسيت ودّاً لي قط ، وإن خنيتني إلى كل عهد تقدم لي ليُفِصّني بالطعام ويُشْرِقني بالماء ، وقد استراح من لم تكن هذه صفته . وما مللت شيئاً قط بعد معرفتي به ، ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقاء لي له ، وما رغبت في الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذكنت ، لا أقول في الألف والإخوان وحدهم ، لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعم وغير ذلك ، وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق والانفلاق مذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجّي يعتادني وولوع هم ما ينفك يطرّقني ، ولقد نقص (٢) تذكري ما مضى كلّ عيش أستأنفه ، وإني لقتيل الموم في عداد الأحياء ، ودفن الأسي بين أهل الدنيا . والله الحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

محبة صدقي لم تكن بنت ساعة ولا ورّيت حين ارتياد زنادها
ولكن على مهل سرت وتولدت بطول أمتزاج فاستقرّ عمادها
فلم يدن منها عزمها وانتقاضها ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة تتمّ سريعاً عن قريب معادها

(١) المدود : جمع مد ، وهو الماء الكثير .

(٢) في الاصل : « نقص » .

ولكنني أرض عزاز صليبة مَنيع إلى كل الغروس أنقيادها
فما نَقدت منها لديها غُروقا فليست تُبالي أن يَجود عِبادُها
ولا يظن ظانّ ولا يتوهم متوهم أن كل هذا مخالف لقولي المسطر في صدر
الرسالة ، أن الحب اتصال بين النفوس في أصل عالمها العلوي ، بل هو مؤكّد له .
فقد علمنا أن النفس في هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب ، ولحقتها الأغراض ،
وأحاطت بها الطبائع الأرضية الكونية ، فسترت كثيراً من صفاتها وإن كانت
لم تحلّه ، لكن حالت دونه فلا يُرجى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس
والأستعداد له ، و بعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها ، ومقابلة الطبائع
التي خفيت مما يُشابهها من طبائع المحبوب ، فحينئذ يتصل أنصلاً صحيحاً
بلا مانع .

وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسديّ ،
وأستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان ، وهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة ،
فإذا غلبت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافق الفصل اتصال نفساني تشترك فيه
الطبائع مع النفس يُسمّى عشقاً . ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يُحب
اثنين ويعشق شخصين متغايرين ، فإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا آنفاً ،
وهي على الجواز تسمى محبة لا على التحقيق ، وأما نفس الحب فما في الميل به فضل
يصرفه من أسباب دينه وديناه فكيف بالأشتغال بِحُب ثان . وفي ذلك أقول :

كذب المدعى هوَى اثنين حتماً مثل ما في الأصول أ كذب ما
ليس في القلب موضعٌ لحبيبي ن ولا أحدثُ الأمور ثانياً
فكما العقلُ واحدٌ ليس يدرى خالقاً غيرَ واحد رَحمان
فكذا القلبُ واحدٌ ليس يهوى (١) غيرَ فردٍ مُباعدٍ أو مدان
هو في شريعة المودة ذو شكّ بعيد من صحة الإيمان

وكذا الدين واحدٌ مستقيمٌ . وكفور من عنده دينان .
 وإني لأعرف فتى من أهل الجدِّ والحسب والأدب كان يبتاع الجارية وهي
 سالمة الصدر من حُبِّه ، وأكثَر من ذلك كارهة له لقلَّة حلاوة شمائل كانت فيه ،
 وقُطوب دائم كان لا يفارقه ولا سيما مع النساء ، فكان لا يلبث إلا يسيراً ريثما
 يصل إليها بالجماع ويعود ذلك الكره حُبًّا مُفرطاً وكلفاً زائداً واستهتاراً مكشوفاً ،
 ويتحول الضجر لصحبته ضجراً لفراقه . صحبه (١) هذا الأمر في عدة منهن . فقال
 بعضُ إخواني : فسألته عن ذلك فتبسَّم نحوى وقال : إذاً والله أخبرك ، أنا أبطأ
 الناس إنزالاً ، تقضى المرأة شهوتها وربما ثلثت وإنزالي وشهوتي لم ينقضيا بعد ،
 وما فترت بعدها قط ، وإني لأبقى بمنَّتِي بعد انقضائها الحين الصالح . وما لاقى
 صدرى صدر امرأة قط عند الخلوة إلا عند تعمدي المعانقة ، وبحسب ارتفاع
 صدرى نزولٌ مؤخرى .
 فمثل هذا وشبهه إذا وافق أخلاق النفس ولَد الحبة ، إذ الأعضاء الحساسة
 مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها .

باب

من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها
 وأعلم أعزك الله أن للحُب حكماً على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ، وأمرأ
 لا يخالف ، وحداً لا يعصى ، وملسكاً لا يتعدى ، وطاعة لا تُصرف ، ونفاذاً
 لا يُرد ؛ وأنه ينتقض المرَر ، ويَحُلُّ المُبرم ، ويَحُلُّ الجامد ، ويَحُلُّ الثابت ، ويَحُلُّ
 الشغاف ، ويَحُلُّ المنوع ، ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يُتممون في تمييزهم ،
 ولا يُخاف عليهم سقوط في معرفتهم ، ولا اختلال بحُسن اختيارهم ، ولا تقصير
 في حدسهم ، قد وصفوا أحباباً لهم في بعض صفاتهم بما ليس بمُستحسن عند الناس
 ولا يرضى في الجمال ، فصارت هجيراتهم ، وعُرْضة لأهوائهم ، ومنتهى استحسنهم .

ثم مضى أولئك إما بسلو أو بين أو هجر أو بعض عوارض الحب ، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تفضيلها ، على ما هو أفضل منها في الخليقة ، ولا مالوا إلى سواها ؛ بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم إلى أن فارقوا الدنيا وأنقضت أعمارهم ، حينئذ منهم إلى من فقدوه . وألفه لمن صحبوه . وما أقول إن ذلك كان تصنعاً لكن طبعاً حقيقياً واختياراً لا دخل فيه ، ولا يرون سواه ، ولا يقولون في طي عقدهم بغيره . وإني لأعرف من كان في جيد حبيبه بعض الوقص فما استحسّن أعيد ولا غيداء بعد ذلك . وأعرف من كان أول علاقته بحارية مائلة إلى القصر فما أحبّ طويلة بعد هذا . وأعرف أيضاً من هوى جارية في فمها فوه لطيف فلقد كان يتقدّر كل فم صفير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف عن مَنعوصي الحظوظ في العلم والأدب لكن عن أوفر الناس قسطاً في الإدراك ، وأحقهم بأسم الفهم والذراية .

وعني أخبرك أني أحببت في صباى جارية لي شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه . وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت ، لا تؤاينني نفسي على سواه ولا تحب غيره البتة ، وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضى الله عنه وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله .

وأما جماعة خلفاء بني مروان — رحمهم الله — ولا سيما ولد الناصر منهم ، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ، لا يختلف في ذلك منهم مختلف . وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر ، نزاعاً إلى أمهاتهم ، حتى قد صار ذلك فيهم خلقة ، حاشى سليمان الظافر رحمه الله ، فإني رأيته أسود اللثة واللحية .

وأما الناصر والحكم المستنصر رضى الله عنهما فحدثني الوزير أبي رضى الله

وغيره أنهما كانا أشقرين أشهلين ، وكذلك هشام المؤيد ومحمد المهدي وعبد الرحمن المرتضى رحمهم الله ، فإني قد رأيتهم مراراً ودخلت عليهم فرأيتهم شُقرًا شُهلاً ، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم ، فلا أدري أذلك أستحسان مركب في جميعهم أم لرواية كانت عند أسلافهم في ذلك فجزوا عليها . وهذا ظاهر في شعر عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن أمير المؤمنين الناصر وهو المعروف بالطليق ، وكان أشعر أهل الأندلس في زمانهم ، وأكثر تغزله فبالشُقر ، وقد رأيته وجالسته .

وليس العجب فيمن أحب قبيحاً ثم لم يصحبه ذلك في سواه ، فقد وقع من ذلك ، ولا فيمن طبع مذ كان على تفضيل الأدنى ، ولكن فيمن كان ينظر بعين الحقيقة ثم غلب عليه هووى عارض بعد طول بقائه في الجماعة فأحاله عما عهدته نفسه حواله صارت له طبعاً ، وذهب طبعه الأول وهو يعرف فضل ما كان عليه أولاً . فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأبى إلا الأدنى . فأعجب لهذا التغلب الشديد والتسلط العظيم ، وهو أصدق المحبة حقاً ، لا من يتحلّى بشيم قوم ليس منهم ، ويدعى غريزة لا تقبله فيزعم أنه يتخير من يحب ، أما لو شغل الحب بصيرته ، وأطاح فكرته ، وأجحف بتمييزه ، لحال بينه وبين التخييل والأرتياد . وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

منهم قتي كان في محبوبه وقص	كأنما الغيّد في عَيْنيه جنّان
وكان مُنبسطاً في فضل خبّرتّه	بحُجّة حقّها في القول تَبَيّان
إنّ المّها وبها الأمثال سائرّة	لا يُنكر الحسن فيه الدهر إنسان
وُقَصّ فليس بها عنقاء واحدة	وهل تُزان بطول الجيد بُعْران
وآخر كان في محبوبه قوّة	يقول حسبي في الأفواه غزلان
وثالث كان في محبوبه قصر	يقول إنّ ذوات الطول غيلان

وأقول أيضاً :

يَعْيِيُونَهَا عِنْدِي بِشُقْرَةٍ شَعْرَهَا فَقُلْتُ لَهُمْ هَذَا الَّذِي زَانَهَا عِنْدِي
يَعْيِيُونَ لَوْنَ النَّوْرِ وَالتَّبَرِّ ضِلَّةً لَرَأَى جَهْوَلٌ فِي الْغَوَايَةِ مَمْتَدَةً
وَهَلْ عَابَ لَوْنَ التَّرْجَسِ الْغَضَّ عَائِبٌ وَلَوْنَ النُّجُومِ الزَّاهِرَاتِ عَلَى الْبُعْدِ
وَأَبْعَدُ خَلَقَ اللَّهُ مِنْ كُلِّ حِكْمَةٍ مُفَضَّلَ جَرِيمٍ فَاحِمِ اللَّوْنِ مُسَوِّدَ
بِهِ وَصَفَتْ أَلْوَانَ أَهْلِ جَهَنَّمَ وَلِبْسَةَ بَاكِ مُشْكَلِ الْأَهْلِ مُحْتَمِدَ
وَمُذْ لَاحَتْ الرَّاياتُ سُودًا تَيَقَّنَتْ نَفُوسُ الْوَرَى أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الرُّشْدِ

باب التعريض بالقول

ولا بُدَّ لِكُلِّ مَطْلُوبٍ مِنْ مَدْخَلٍ إِلَيْهِ ، وَسَبَبٍ يُتَوَصَّلُ بِهِ نَحْوَهُ ، فَلَمْ يَنْفَرِدْ
بِالْإِخْتِرَاعِ دُونَ وَاسِطَةِ إِلَّا الْعَلِيمُ الْأَوَّلُ جَلَّ ثَنَاهُ . فَأَوَّلُ مَا يَسْتَعْمَلُ طَلَّابُ
الْوَصْلِ وَأَهْلُ الْحُبِّ فِي كَشْفِ مَا يَجِدُونَهُ إِلَى أَحْبَبِهِمُ التَّعْرِيزُ بِالْقَوْلِ ، إِمَّا بِإِنْشَادِ
شَعْرٍ ، أَوْ بِإِرْسَالِ مُثَلٍّ ، أَوْ تَعْمِيَةِ بَيْتٍ ، أَوْ طَرَحِ لَفْظٍ ، أَوْ تَسْلِيْطِ كَلَامٍ .
وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى قَدَرِ إِدْرَاكِهِمْ ، وَعَلَى حَسَبِ مَا يَرُونَهُ مِنْ
أَحْبَبِهِمْ مِنْ نَفَارٍ أَوْ أُنْسٍ أَوْ فُطْنَةٍ أَوْ بِلَادَةٍ . وَإِنِّي لِأَعْرِفُ مِنْ أُبْتَدَأَ كَشْفَ
مَحَبَّتِهِ إِلَى مَنْ كَانَ يُحِبُّ بِأَبْيَاتٍ قَلَّتْهَا . فِهَذَا وَشَبَّهَ يَبْتَدِئُ بِهِ الطَّالِبُ الْمَوْدَةَ ،
فَإِنْ رَأَى أُنْسًا وَتَسْهِيلًا زَادَ ، وَإِنْ يُعَايِنُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي حِينِ إِنْشَادِهِ
لشَيْءٍ مِمَّا ذَكَرْنَا ، أَوْ إِرَادَهُ لِبَعْضِ الْمَعَانِي الَّتِي حَدَّدْنَا ، فَانْتَظَرَهُ الْجَوَابَ ، إِمَّا بِلَفْظٍ
أَوْ بِهَيْئَةِ الْوَجْهِ وَالْحَرَكَاتِ ، لِمَوْقِفٍ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْيَأْسِ هَائِلٍ ، وَإِنْ كَانَ حِينًا
قَصِيرًا ، وَلَكِنَّهُ إِشْرَافٌ عَلَى بُلُوغِ الْأَمَلِ أَوْ انْقِطَاعِهِ .

وَمِنْ التَّعْرِيزِ بِالْقَوْلِ : جَنْسُ ثَانٍ ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الْأَتْفَاقِ وَمَعْرِفَةِ
الْحُبِّ مِنَ الْمَحْبُوبِ ، خَيْمًا يُذِيقُ التَّشْكِيَّ وَعَقْدَ الْمَوَاعِيدِ وَالتَّغْيِيرِ وَإِحْكَامَ الْمَوَدَاتِ
بِالتَّعْرِيزِ ، وَبِكَلَامٍ يَظْهَرُ لِسَامِعِهِ مِنْهُ مَعْنَى غَيْرُ مَا يَذْهَبَانِ إِلَيْهِ ، فَيَجِيبُ السَّامِعُ
عَنْهُ بِجَوَابٍ غَيْرِ مَا يَتَأَدَّى إِلَى الْمَقْصُودِ بِالْكَلَامِ ، عَلَى حَسَبِ مَا يَتَأَدَّى إِلَى سَمْعِهِ
وَيَسْبِقُ إِلَى وَهْمِهِ ، وَقَدْ فَهَمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ وَأَجَابَهُ بِمَا لَا يَفْهَمُهُ

غيرُهما ، إلا من أيد بحسّ نافذ ، وأعين بذكاء ، وأمدّ بتجربة ، ولا سيما إن أحسن من معانيهما بشيء . وقلّما يغيب عن المتوسّم المُجيد ، فهناك لا خفاء عليه فيما يريدان .

وأنا أعرف فتى وجارية كانا يتحaban ، فأرادها في بعض وصاها على بعض مالا يجمّل . فقالت : والله لأشكوكنك في الملاء علانية ، ولأفضحنك فضيحة مستورة . فلما كان بعد أيام حضرت الجاريةُ مجلس بعض أكابر الملوك وأركان الدولة وأجلّ رجال الخلافة ، وفيه ممن يتوقّي أمره من النساء والخدم عددٌ كثير ، وفي جملة الحاضرين ذلك الفتى ، لأنه كان بسبب من الرئيس ، وفي المجلس مغنيات غيرُها . فلما انتهى الغناء إليها سوّت عودها وأندفعت تغنى بأبيات قديمة ، وهي :

غزال قد حَكى بدرَ التّمام	كشمس قد تجلّت من غمام
سبى قلبي بألحاظٍ مراضٍ	وقدّ الغُصن في حُسن القوام
خضعتُ خضوعَ صَبٍّ مُستكين	له وذَلّت ذِلّة مُستهام
فَصِلْنِي يافديتُك في حلال	فما أهوى وصالاً في حرام

وعلمت أنا هذا الأمر فقلت :

عِتابٌ واقع وشكاةٌ ظلم	أنت من ظالم حَكَم وخَصَم
تَشَكَّتْ ما بها لم يدْرَحْلق	سوى المشكوما كانت تُسمّى

باب الاشارة بالعين

ثم يتلو التعريضَ بالقبول ، إذا وقع القبولُ والموافقة ، الإشارةُ بالخط العين . وإنه ليقوم في هذا المعنى المقام المحمود ، ويبلغ المبلغ العجيب ، ويُقطع به ويتواصل ، ويُوعَد ويُهدد ، ويُنتهر ويبسط ، ويُؤمر وينهى ، وتُضرب به الوعود ، ويُنبّه على الرقيب ، ويضحك ويحزن ، ويسأل ويجاب ، ويمنع ويعطى .

ولسلك واحد من هذه المعانى ضرب من هيئة اللحظ لا يُوقف على تحديده إلا بالرؤية ، ولا يمكن تصويره ولا وصفه إلا بالأقل منه . وأنا واصف ماتيسر من هذه المعانى :

فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهى عن الأمر ، وتفتيرها إعلام بالقبول ، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف ، وكسر نظرها آية الفرح .

والإشارة إلى اطباقها دليل على التهديد ، وقلب الحدة إلى جهة ماثم صرفها بسرعة تنبيه على مُشار إليه .

والإشارة الخفية بمؤخر العينين ككتاهما سؤال ، وقلب الحدة من وسط العين إلى الموق بسرعة شاهد المنع ، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام . وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة .

واعلم أن العين تنوب عن الرُّسل ، ويدرك بها المراد . والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً ، وهى رائد النفس الصادق ودليلها المهادى ومرآتها المجلوة التى بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المجسوسات . وقد قيل : ليس المخبر كالمعاین . وقد ذكر ذلك افليمون صاحب الفراسة وجعلها معتمده فى الحكم . وبحسبك من قوة إدراك العين أنها إذا لاقى شعاعها شعاعاً مجلّواً صافياً ، إما حديثاً مفصولاً أو زجاجاً أو ماء أو بعض الحجارة الصافية أو سائر الأشياء المجلوة البراقة ذوات الرفيف والبصيص والمعان ، يتصل أقصى حدوده بجسم كثيف سائر مناع كدر ، انعكس شعاعها فأدرك الناظر نفسه ومازها عياناً . وهو الذى ترى فى المرأة ، فأنت حينئذ كالناظر إليك بعين غيرك . ودليل عيانى على هذا أنك تأخذ مرأتين كبيرتين فتُمسك إحداها يمينك خلف رأسك والثانية بيسارك قبالة وجهك ثم تزويها قليلا حتى يلتقيان بالمقابلة ، فإنك ترى قفالك وكل ما وراءك . وذلك لانعكاس ضوء العين إلى ضوء المرأة التى خلفك ، إذ لم تجد

منفذاً في التي بين يديك ، ولما لم يجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف إلى ماقابله من الجسم . وإن كان صالح غلام أبي إسحاق النظام خالف في الإدراك فهو قول ساقط لم يوافقه عليه أحد . ولو لم يكن من فضل العين إلا أن جواهرها أرفع الجواهر وأعلاها مكاناً ، لأنها نورية لا تدرك الألوان بسواها ، ولا شيء أبعد مرعي ولا أنأى غاية منها ، لأنها تدرك بها أجرام الكواكب التي في الأفلاك البعيدة ، وترى بها السماء على شدة ارتفاعها وبعدها ، وليس ذلك إلا لاتصالها في طبع خيلقتها بهذه المرأة ، فهي تدركها وتصل إليها بالنظر ، لا على قطع الأماكن والحلول في المواضع وتنقل الحركات ، وليس هذا شيء من الحواس مثل الذوق واللمس لا يدركان إلا بالمجاورة ، والسمع والشم لا يدركان إلا من قريب . ودليل على ما ذكرناه من النظر أنك ترى المصوت قبل سماع الصوت ، وإن تعمدت إدراكهما معاً . وإن كان إدراكهما واحداً لما تقدمت العين السمع .

باب المراسلة

ثم يتلو ذلك إذا أمتزجا المراسلة بالكتب . وللكتب آيات . ولقد رأيت أهل هذا الشأن يُبادرون لقطع الكتب ومجملها في الماء وبمحواثرها ، فرب فضيحة كانت بسبب كتاب . وفي ذلك أقول :

عزيرُ على اليوم قطع كتابكم ولكنه لم يُلَفَ للود قاطعُ
فأثرت أن يبقى ودادُ وينمحي مدادُ فإن القرع للأصل تابع
فكم من كتاب فيه ميتة ربه ولم يدركه إذ نمقته الأصابع

وينبغي أن يكون شكل الكتاب أطف الأشكال ، وجنسُه أملح الأجناس . ولعمري إن الكتاب لسان في بعض الأحيان ، إما لخصر في الإنسان وإما لحياء وإما لهيبة . نعم ، حتى إن لوصول الكتاب إلى المحبوب وعلم المحب أنه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ، وإن لرد الجواب

والنظر إليه سروراً يَعْدِلُ اللقاء ، ولهذا ما ترى العاشق يَضَعُ الكتابَ على عينيه وقلبه ويُعَانِقُهُ . ولعهدي ببعض أهل الحجة ، ممن كان يَدْرِي ما يقول ويحسن الوصف ويعبر عما في ضميره بلسانه عبارةً جيدةً ويُجِدُ النظر ويدقق في الحقائق ، لا يدع المُرَاسَلَةَ وهو مُمَكِّنُ الوصل قريب الدار أتَى المَزار ، ويحكي أنها وجوه اللذة . ولقد أُخْبِرْتُ عن بعض السَّقَّاطِ الوُضْعَاءِ أنه كان يضع كتابَ محبوبه على إحليله . وأن هذا النوع من الاعتلام قبيح وضرب من الشَّبَقِ فاحش .

وأما سقى الحَبْرِ بالدَّمع فأعرف مَنْ كان يفعل ذلك ويُقَارِضُهُ محبوبه ، يسقى الحبر بالرَّيْقِ . وفي ذلك أقول :

جوابُ أتاني عن كتاب بعثته	فسكن مُهْتَاجاً وهيَّج ساكناً
سقيتُ بدَمع العين لما كتبته	فِعالُ مُحِبٍّ ليس في الود خائناً
فما زال ماء العين يَمْحُو سُطُورَهُ	فيما ماء عيني قد محوت المحاسنا
غداً بدُموعي أول الحظ بيننا	وأضحى بدَمعي آخرُ الحظ بائنا

فَهِر :

ولقد رأيتُ كتابَ المُحِبِّ إلى محبوبه ، وقد قَطَعَ في يده بسكين له فسال الدم واستمد منه وكتب به الكتاب أجمع . ولقد رأيت الكتاب بعد جُفُوفِهِ فما شككت أنه بصنغ اللك .

باب السفير

ويقع في الحب بعد هذا ، بعد حُلُولِ الثَّقة وتَمَامِ الاِسْتِثْناس ، إدخال السفير . ويجب تخيُّره وأرتياده واستجاده واستفراجه ، فهو داليل عقل المرء ، وييده حياته وموته ، وسره وفضيحته بعد الله تعالى . فينبغي أن يكون الرسول ذا هيئة ، حاذقاً يكتفي بالإشارة ، ويقرطس عن الغائب ، ويحسن من ذات نفسه ويضع من

عقله ما أغفله (١) باعثه ، ويؤدى إلى الذى أرسله كل ما يشاهد على وجهه كأنما كان للأسرار حافظا ، وللعهد وفيا ، قنوعا ناصحا . ومن تعدى هذه الصفات كان ضرره على باعته بمقدار ما نقصه منها . وفى ذلك أقول شعرا ، منه :

رسولك سيفٌ فى يمينك فأستجِدْ حُساماً ولا تُضرب به قبل صقله
فمن يك ذا سيفٍ كهم فضُرَّه يعود على المعنى منه بمجهله
وأكثر ما يستعمل المحيئون فى إرسالهم إلى من يُحبونه ، إما خاملا لا يؤبه له ولا يهتدى للتحفظ منه ، لصباه أو لهيئة رثة أو بدادة فى طلعته .

وإما جليلاً لا تلحقه الظنن لنسكٍ يظهره أو لسنٍ عالىة قد بلغها . وما أكثر هذا فى النساء ولا سيما ذوات العكاز والتساييح والتوبين الآخرين . وإنى لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حينما رأيتها .

أو ذوات صناعة يقرب بها من الأشخاص . فمن النساء كالطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والناحنة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصنّاع فى المغزل والتسيج ، وما أشبه ذلك .

أو ذا قرابة من المرسل إليه لا يشحّ بها عليه . فكم منيع سهل بهذه الأوصاف . وعسير يُسرّ ، وبعيد قرُب . وجموح أنس ، وكم داهية دعت الحجب المصونة ، والأستار الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، لأرباب هذه النعوت . ولولا أن أنبه عليها لذكرتها ، ولكن لقطع النظر فيها وقلة الثقة بكل واحد . والسعيد من وعظ بغيره . وبالضد تتميز الأشياء . أسبل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره ، ولا أزال عن الجميع ظل العافية .

هــبـر :

وإنى لأعرف من كانت الرسول بينهما حمالة مؤدبة ، ويُعقد الكتاب فى جناحها . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

(١) فى الأصل : « ما أغفله » .

تَحَيَّرَهَا نُوحٌ فَمَا خَاب ظَنُّهُ لَدَيْهَا وَجَاءَتْ نَحْوَهُ بِالْبَشَائِرِ
سَأَوْدِعَهَا كُتُبِي إِلَيْكَ فَهِيَ كَمَا رَسَائِلَ تُهْدَى فِي قَوَادِمِ طَائِرِ

باب طى السر

ومن بعض صفات الحب الكتمان باللسان ، ووجود المحب إن سئل ،
والتصنع بإظهار الصبر ، وأن يرى أنه عزّاهة خلى . ويأبى السرّ الدقيق ،
ونار الكلف المتأججة في الضلوع ، إلا ظهوراً في الحركات والعين ، وديباً كديب
النار في الفحم والماء في بيبس المدر . وقد يمكن التّمويه في أول الأمر على غير
ذى الحسن اللطيف ، وأما بعد استحكامه فمحال . وربما يكون السبب في الكتمان
تصاؤن المحب عن أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنها بزعمه من
صفات أهل البطالة ، فيفرّ منها ويتفادى ، وما هذا وجه التصحيح ، فبحسب
المرء المسلم أن يعفّ عن محارم الله عزّ وجل التي يأتيها بأختياره ويحاسب عليها
يوم القيامة . وأما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه ،
إذ القلوب بيد مقلبيها ، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب
وأن يعتقد الصحيح باليقين . وأما المحبة خِلقة ، وإنما يملك الانسان حركات
جوارحه المكتسبة . وفي ذلك أقول :

يَوْمَ رَجُلٌ فِيكَ لَمْ يَعْرِفُوا الْهَوَى	وَسَيِّئَانِ عِنْدِي فِيكَ لَاحٍ وَسَاكُتٌ
يَقُولُونَ جَانِبَتِ التَّصَاوُنُ مُجَلَّةً	وَأَنْتَ عَلَيْهِم بِالْشَّرِيعَةِ قَانِتٌ
فَقُلْتُ لَهُمْ هَذَا الرِّيَاءُ بَعِينُهُ	صُرَاحًا وَزَيٌّ لِلرَّائِينَ مَاقِتٌ
مَتَى جَاءَ تَحْرِيمُ الْهَوَى عَنْ مُحَمَّدٍ	وَهَلْ مَنَعَهُ فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ ثَابِتٌ
إِذَا لَمْ أَوَاقِعْ مُحَرَّمًا أَتَقَى بِهِ	تَجَمُّعِي يَوْمَ الْبَعْثِ وَالْوَجْهِ بَاهِتٌ
فَلَسْتُ أَبَالِي فِي الْهَوَى قَوْلَ لَأُمِّ	سِوَاءَ لَعَمْرِي جَاهِرٌ أَوْ مُخَافِتٌ
وَهَلْ يَلْزَمُ الْإِنْسَانَ إِلَّا اخْتِيَارُهُ	وَهَلْ يَنْجَبَايَا الْلفظُ يُؤْخَذُ صَامِتٌ

نصر :

وإني لأعرف بعضَ من أمتحن بشيء من هذا فسكن الوجدُ بين جوانحه ،
فراهم جَحَدَه إلى أن غَلِظَ الأمر ، وعرف ذلك في شمائله من تعرّض للمعرفة ومن
لم يتعرض . وكان من عَرَضَ له بشيء نَجَبِه (١) وقَبَحِه . إلى أن كان من
أراد الحُظوة لديه من إخوانه يُؤهم تصديقَه في إنكاره وتكذيب من ظن به
غير ذلك ، فسر بهذا . ولعهدي به يوماً قاعداً ومعه بعض من كان يعرض له بما
في ضميره ، وهو ينتفي غاية الانتفاء ، إذ اجتاز بهما الشخص الذي كان يُتهم
بعلاقته ، فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب وفارق هيئته الأولى
وأصفر لونه وتفاوتت معاني كلامه بعد حُسن تثقيف ، فقطع كلامه المتكلم معه .
فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره . فقيل له : ما عدا عما بدا . فقال : هو ماتظنون ،
عذر من عذر ، وعذل من عذل . ففي ذلك أقول شعراً ، منه :

مما يرى من تباريح الضنى فيه ما عاش إلا لأنّ الموتَ يرحمه
وأنا أقول : دُموع الصبّ تنسفكُ وسِرّ الصبّ ينهتكُ
كان القلبَ إذ يبدو قطاة ضمهّا شرك
فيا أصحابنا قولوا فإن الرأي مُشترك
إلى كم ذا أكتمه وما لي عنه مُترك

وهذا إنما يعرض عند مقاومة طبع السكمان ، والتصاوت لطبع المحب وغلبته ،
فيكون صاحبه متحيراً بين نارين مُحْرِقَتَيْن . وربما كان سبب السكمان إبقاء
المحب على محبوبه ، وإن هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع . وفي ذلك أقول :

دري الناسُ أني فتى عاشقٌ كئيبٌ معني ولكنّ يمينُ
إذا عاينوا حالتي أيقنوا وإن فتشوا رجعوا في الظنّ
كخطٍ يرى رسمه ظاهراً وإن طلبوا شرحه لم يُبين

(١) النجبة : استقبال الرجل بما يكره وردك إياه عن حاجته ، أو هو أقبح الرد .

كصوت حمام على أَيْكَة يرجع بالصوت في كُلِّ فنٍّ
تَلَذُّ بِفَضْوَاهِ أَسْمَاعُنَا ومعناه مُسْتَعْجِمٍ لَمْ يَبِينِ
يقولون بالله مَمَّ الذي نفَى حُبَّهُ عَنْكَ طَيْبُ الْوَسَنِ
وهيات دون الذي حاولوا ذَهَابُ الْعُتُولِ وَخَوْضُ الْفِتَنِ
فهم أبدأ في اختلاج الشكوك بظنٍ كقطع وقطع كظنٍ
وفي كتمان السر أقول قطعة ، منها :

للسر عندي مكانٌ لو يحلَّ به حتى إِذَا لَا أَهْتَدِي رَيْبُ الْمَنُونِ لَهُ
أَمِيتهُ وَحَيَاةُ السَّرِّ مِيتَتُهُ كما سُرُورُ الْمَعْنَى فِي الْهَوَى الْوَالَهُ
وربما كان سبب الكتمان توقى الحب على نفسه من إظهار سره ، لجلالة
قدر الحبوب .

نهر :

ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعراً تغزل فيه بصُبح أم المؤيد
رحمه الله . فغنت به جاريةٌ أَدْخَلَتْ عَلَى الْمَنْصُورِ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي عَامِرٍ لِيُبْتَلَاَهَا ،
فَأَمَرَ بِقَتْلِهَا .

نهر :

وعلى مثل هذا قُتِلَ أَحْمَدُ بْنُ مُغِيثٍ . وَأُسْتُصَالُ آلِ مُغِيثٍ وَالتَّسْجِيلُ
عَلَيْهِمْ أَلَّا يُسْتَعْدَمَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ أَبَدًا حَتَّى كَانَ سَبَبًا لِهَلَاكِهِمْ وَأَنْقَرَضَ بَيْتُهُمْ .
فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا الشَّرِيدُ الضَّالُّ . وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ تَغَزُّلُهُ بِإِحْدَى بَنَاتِ الْخُلَفَاءِ .
وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ .

وَيُحْكِي عَنْ الْحَسَنِ بْنِ هَانِيءٍ أَنَّهُ كَانَ مُغْرَمًا بِحُبِّ مُحَمَّدِ بْنِ هَارُونَ الْمَعْرُوفِ
بِابْنِ زُبَيْدَةَ . وَأَحْسَنَ مِنْهُ بَعْضُ ذَلِكَ فَانْتَهَرَهُ ، عَلَى إِدَامَةِ النَّظَرِ إِلَيْهِ . فَذَكَرَ
عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ إِنَّهُ كَانَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُدِيمَ النَّظَرَ إِلَيْهِ إِلَّا مَعَ غَلْبَةِ الشُّكْرِ عَلَى مُحَمَّدٍ .
وَرَبَّمَا كَانَ سَبَبُ الْكِمَانِ أَلَّا يَنْفِرَ الْحَبُوبُ أَوْ يَنْفِرَ بِهِ . فَإِنِّي أَدْرِي مَنْ كَانَ

محبوبه له سكناً وجليساً ، لو باح بأقل سبب من أنه يهواه لكان منه مناط الثريا قد تعلت نجومها . وهذا ضرب من السياسة ، ولقد كان يبلغ من أنبساط هذا المذكور مع محبوبه إلى فوق الغاية وأبعد النهاية ، فما هو إلا أن باح إليه بما يجد فصار لا يصل إلى التافه اليسير مع التيه ودالة الحب وتمتع الثقة بملك القواد ، وذهب ذلك الانبساط ووقع التصنع والتجنى ، فكان أحاً فصار عبداً ، ونظيراً فعاد أسيراً ، ولو زاد في بوحه شيئاً إلى أن يعلم خاصة المحبوب ذلك لما رآه إلا في الطيف ، ولأقطع القليل والكثير ، ولعاد ذلك عليه بالضرر .

وربما كان من أسباب الكتمان الحياء الغالب على الإنسان . وربما كان من أسباب الكتمان أن يرى الحب من محبوبه انحرافاً وصدّاً ويكون ذا نفس أئيمّة ، فيستتر بما يجد لئلا يشمت به عدو ، أو يريهم ومن يحب هوان ذلك عليه .

باب الإذاعة

وقد تعرّض في الحب الإذاعة ، وهو من منكر ما يحدث من أعراضه ، ولها أسباب ، منها :

أن يُريد صاحبُ هذا الفعل أن يتزيّياً بزيّ المحبين ويدخل في عدادهم ، وهذه خلافة لا تُرضى ، وتخليج بغيض ، ودعوى في الحب زائفة .

وربما كان من أسباب الكشف غلبة الحب وتسوّر الجهر على الحياء . فلا يملك الانسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عدلاً . وهذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحكمه على العقل ، حتى يمثل الحسن في تمثال القبيح ، والقبيح في هيئة الحسن . وهنالك يرى الخير شرّاً ، والشر خيراً . وكَم من مَصون الستر مُسبل القناع مسدول الغطاء قد كشف الحب ستره ، وأباح حريمه ، وأهمل حماه . فصار بعد الصيانة علماً ، وبعد السكون مثلاً . وأحبُّ شيء إليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره ، ولطالت استعاذته منه . فسَهِّل ما كان وعراً ، وهان ما كان عزيزاً ، ولان ما كان شديداً .

ولم يهدى بفتى من سرّوات الرجال وعِلية إخواني قد دُهي بمحبة جارية
مقصورة هام بها وقطعه حبّها عن كثير من مصالحه ، وظهرت آيات هواه
لنكل ذى بصر ، إلى ان كانت هي تعذله على مآظير منه مما يقوده
إليه هواه .

نهر :

وحدثني موسى بن عاصم بن عمرو قال : كنت بين يدي أبي الفتح والذي
رحمه الله وقد أمرني بكتاب أكتبه . إذ لحت عيني جارية كنت أكلف
بها ، فلم أملك نفسي ورميت الكتاب عن يدي وبادرت نحوها . وبُهِت أبي
وظن أنه عرض لي عارض . ثم راجعني عقلي فمسحت وجهي ثم عُدت واعتذرت
بأنه غلبني الرُعاف .

وأعلم أن هذا داعية نِفار المحبوب ، وفساد في التدبير ، وضعف في السياسة .
وما شيء من الأشياء إلا ولما أخذ فيه سنة وطريقة ، متى تعدّاها الطالب ، أو خرق
في سلوكها أنعكس عمله عليه ، وكان كدّه عناء ، وتعبه هباء ، وبجته وباء . وكما
زاد عن وجه السيّرة انحرافاً وفي تحنّبها إغراقاً وفي غير الطريق إيغالا ازداد عن
بلوغ مراده بعداً . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

وَلَا تَسْنَعْ فِي الْأَمْرِ الْجَسِيمِ تَهَازُءًا ۖ وَلَا تَسْعَ جَهْرًا فِي الْيَسِيرِ تُرِيدُهُ
وَقَابِلُ أَفَانِينَ الزَّمَانِ مَتَى يَرِدُ عَلَيْكَ فَإِنَّ الدَّهْرَ جَمٌّ وَرُودُهُ
فَأَشْكَالُهَا مِنْ حُسْنِ سَعْيِكَ يَكْفُكَ الْيَسِيرُ بِغَيْرِ الشَّرِيدِ شَرِيدُهُ ^(١)
أَلَمْ تُبْصِرِ الْمِصْبَاحَ أَوَّلَ وَقْدِهِ وَإِشْعَالَهُ بِالنَّفْخِ يُطْفِئُهُ وَقُودُهُ
وَإِنْ يَتَصَرَّمْ لَفَحَهُ وَلَهْيَبُهُ فَنَفْخُكَ يَذْكِيهِ وَتَبْدُو مُدَوْدُهُ
نهر :

وإني لأعرف من أهل قرطبة من أبناء الكتاب وجلة الخدّمة من أسمه

(١) كذا ورد هذا البيت في الأصل .

أحمد بن فتح ، كنت أعهد كثر التصاون ، من بغاة العلم وطُلاب الأدب ، ييز أصحابه في الانقباض ، ويفوتهم في المدعة ، لا ينظر إلا في حلقة فضل ، ولا يرى إلا في محفل مرضى ، محمود للمذاهب ، جميل للطريقة ، بائناً بنفسه ، ذاهباً بها . ثم أبعدت الأقدار داري من داره ، فأول خبر طراً على بعد نزولي شاطبة أنه خلع عذاره في حب فتى من أبناء الفتانين يُسمى إبراهيم بن أحمد أعرفه ، لاستأهل صفاته محبة من بيته خير وتقدم ؛ وأموال عريضة ووفر تاليد ، وصحّ عندي أنه كشف رأسه وأبدى وجهه ورعى رسته وحسر محيائه وشمر عن ذراعيه وصمد صمد الشهوة ، فصار حديثاً للسمار ومُدافعاً بين نقلة الأخبار ، وتهودى ذكره في الأقطار ، وجرت نقلته في الأرض راحلةً بالتعجب ، ولم يحصل من ذلك إلا على كشف الغطاء ، وإذاعة السر ، وشنعة الحديث . وفتح الأحداث ، وشُرود محبوبه عنه جملة . والتحذير عليه من رؤيته ألبتة ، وكان غنياً عن ذلك وبمندوحة ومعرزل رحب عنه . ولو طوى مكنون سرّه ، وأخفى بليّات ضميره لأستدام لباس العافية ، ولم يُنهج (١) بُرد الصيانة ، ولكان له في لقاء من يلي به ومحادثته ومحالسته أمل من الآمال ، وتعلل كاف ، وإن حبّ العذر ليقطع به ، والحجة عليه قائمة ، إلا أن يكون مُختلطاً في تمييزه ، أو مصاباً في عقله بجليل مافدحه . فربما آل ذلك لمدح صحيح ، وإما أن كانت بقية من عقل أو ثبتت مُسكه فهو ظالم في تعرضه ما يعلم أن محبوبه يكرهه ويتأذى به .

هذا غير صفة أهل الحب ، وسيأتى هذا مفسراً في باب الطاعة إن شاء الله تعالى .

ومن أسباب الكشف وجه ثالث

وهو عند أهل العقول وجه مردول وفعل ساقط ، وذلك أن يرى الحب من محبوبه غدرًا أو مللاً أو كراهة ، فلا يجد طريق الانتصاف منه إلا بما ضرره

(١) نهج الثوب : أخذه .

عليه أعود منه على المقصود من الكشف والاشتهار . وهذا أشد العار وأقبح
الشنار وأقوى بشواهد عدم العقل ووجود السخف . وربما كان الكشف من
حديث ينتشر وأقاويل تفشو ، توافق قلة مبالاة من المحب بذلك ، ورضى بظهور
سره ، إما لإعجاب وإما لاستظهار على بعض ما يؤمله . وقد رأيت هذا الفعل
لبعض إخواني من أبناء القواد ، وقرأت في بعض أخبار الأعراب أن نساءهم
لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حبه ويجاهر ويعلن
وينوه بذلك ؛ ولا أدري ما معنى هذا ، على أنه يذكر عنهن العفاف ، وأى
عفاف مع امرأة أقصى منها وسرورها الشهرة في هذا المعنى .

باب الطاعة

ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه ، وصرفه طباعه قسراً
إلى طباع من يُحبه وربما يكون المرء شرس الخلق ، صعب الشكيمة ، جموح القياد ،
ماضى العزيمة ، حمى الأنف ، أبى الخسف ، فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحب ،
ويتورط غمره ، ويعوم في بحره ، فتعود الشراسة لياناً ، والصعوبة سهولة ، والمضاء
كلالة ، والحمية استسلاماً . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

فهل للوصال إلينا معاد وهل لتصاريف ذا الدهر حدٌ

فقد أصبح السيف عبد القضيبي وأضحى الغزال الأسير أسد

وأقول شعراً ، منه :

وإني وإن تعبت لأهون هالك كذائب نقر^(١) رل من يد جهيد

على أن قتلى في هواك لداذة فيا عجباً من هالك متلذذ

ومنها .

ولو أبصرت أنوار وجهك فارس لأغناهم عن هرّ مزان ومؤيد

وربما كان المحبوب كارهاً لإظهار الشكوى متبرماً بسماع الوجد ، فترى

(١) نقر ، بالضم : جمع نقرة ، وهى النقطة الدائبة من الذهب والفضة .

المُحِبُّ حينئذٍ يَكْتُمُ حزنه ويكْظِمُ أسفه وينطوى على علته . وإن الحبيب مُتَجَنِّبٌ ، فعندَها يقع الاعتذار عند كل ذنب والإقرار بالجريمة ، والمرءُ منها برىء ، تسليماً لقوله وتركاً لمخالفته . وإني لأعرف من دُهِىَ بمثل هذا فما كان ينفكَّ من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له ، وإيقاع العتاب عليه والسخط وهو نقي الجلد .

وأقول شعراً إلى بعض إخواني ، ويقرب مما نحن فيه وإن لم يكن منه :
 وقد كنت تلقاني بوجه لقُرْبِهِ تَدَانٍ وَلِلْهَجْرَانِ عَنْ قُرْبِهِ سَخَطُ
 وما تكره العَتَبَ اليسير سَجِيَّتِي على أنه قد عِيبٌ فِي الشَّعْرِ الْوَخَطُ
 فقد يُتَعَبُ الْإِنْسَانُ فِي الْفِكْرِ نَفْسَهُ وقد يَحْسُنُ الْخِيْلَانُ فِي الْوَجْهِ وَالنَّقْطُ
 تَزِينٌ إِذَا قَلَّتْ وَيَفْخُشُ أَمْرَهَا إِذَا أَفْرَطْتَ يَوْمًا وَهَلْ يُحْمَدُ الْفَرَطُ
 ومنه :

أَعِنَهُ فَقَدْ أَضْحَى لَفَرَطٍ هُمُومُهُ يَبْكِي إِذَا الْقِرطاسُ وَالْحَبْرُ وَالْخَطُ
 ولا يقولنَّ قائل إن صبر المحب على ذلَّة المحبوب دَنَاءَةٌ فِي النَفْسِ فَقَدْ أخطأ ، وقد علمنا أنَّ المحبوب ليس له كفوٌّ ولا نظيراً فيُقَارَضُ بأذاه ، وليس سبُّه وجفاه مما يعيِّر به الإنسان ويبقى ذكره على الأحقاب ، ولا يقع ذلك في مجالس الخلقاء ، ولا في مقاعد الرؤساء ، فيكون الصبر جازاً للشدَّة ، وضراعة قاندة للاستهانة ، فقد ترى الإنسان لا يكلف بأَمْتِهِ التي يملك رقبها ، ولا يحول حائل بينه وبين التعدي عليها فكيف الانتصارُ منها . وسبل الامتعاظ من السبب غير هذه ، إنما ذلك بين عِلْيَةِ الرجال الذين تحصل أنفاسهم وتتبع معاني كلامهم فتوجه لها الوجود البعيدة ، لأنهم لا يُوقِعُونَهَا سُدًى ولا يُلْقُونَهَا هَملاً ، وأما المحبوب فمُعَدَّةٌ ثَابِتَةٌ وقضيبٌ مُنَادٍ ، يجفوَ ويرضى متى شاء لا لمعنى . وفي ذلك أقول :

ليس التذلل في الهوى يُسْتَنْكَرُ فالحُبُّ فِيهِ يَخْضَعُ الْمُسْتَكْبِرُ

لا تعجبوا من ذلك في حالة
ليس الحبيب مماثلاً ومكافئاً
قد ذلّ فيها قبلي المستبصر
فيكون صبرك ذلّةً إذ تصبر
تفاحة وقعت فآلم وقعها
هل قطعها منك أنتصاراً يذكر

نهر :

وحدثني أبو دلف الوراق عن مسامة بن أحمد الفيلسوف المعروف
بالمرجيطي أنه قال في المسجد الذي بشرق مقبرة قريش بقرطبة الموازي لدار
الوزير ابن عمرو أحمد بن محمد جدير رحمه الله : في هذا المسجد كان
مقدم بن الأصفر مريضاً أيام حادثته لعشق بعجيب ، قى الوزير أبي عمرو
المذكور . وكان يترك الصلاة في مسجد مسرور وبها كان سكناه ، ويقصد في
الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب ، حتى أخذ الحرس غير مأمرة في الليل
في حين أنصرافه عن صلاة العشاء الآخرة ، وكان يقعد وينظر منه إلى أن
كان الفتى يقضب ويضجر ويقوم إليه فيؤجعه ضرباً ويلطم خديّه وعينيّه ،
فيسر بذلك ويقول : هذا والله أقصى أمنيّ والآن قرّرت عيني ، وكان على
هذا زماناً يماشيه .

قال أبو دلف : ولقد حدثنا مسلم بهذا الحديث غير مرة بحضرة عجيب
عندما كان يرى من وجهة مقدّم بن الأصفر وعرض جاهه وعافيته ، فكانت
حال مقدّم بن الأصفر هذا قد جلت جدا وأختص بالمظفر بن أبي عامر اختصاصاً
شديداً واتصل بوالدته وأهله وجرى على يديه من بنيان المساجد والسقايات
وتسهيل وجوه الخير غير قليل ، مع تصرفه في كل ما يتصرف فيه أصحاب السلطان
من العناية بالناس وغير ذلك .

نهر :

وأشنع من هذا أنه كانت لسعيد بن منذر بن سعيد صاحب الصلاة في
جامع قرطبة أيام الحكم المستنصر بالله رحمه الله جاريةٌ يحبها حباً شديداً ،

فعرض عليها أن يُعتقها ويتزوجها . فقالت له ساخرة به ، وكان عظيم اللحمة : إن لحيتك أستبشع عِظْمَهَا فَإِنْ حَذَقْتُ مِنْهَا كَانَ مَاتَرَعْبِهِ . فَأَعْمَلُ الْجَمَلِينَ فِيهَا حَتَّى لَطُفْتُ . ثم دعا بجماعة شهود وأشهدهم على عتقها ، ثم خطبها إلى نفسه فلم ترض به . وكان في جملة من حضر أخوه حكيم بن منذر فقال لمن حضر : أعرض عليها أني أخطبها أنا ، ففعل فأجابت إليه . فتزوجها في ذلك المجلس بعينه ورضى بهذا العار الفادح على ورعه ونسكه وأجتهاده .

فأنا أدركت سعيداً هذا وقد قتله البربر يوم دخولهم قرطبة عنوة وأنهبهم إياها وحكم المذكور أخوه هو رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم ، وهو مع ذلك شاعر طيب وفقهه . وكان أخوه عبد الملك بن منذر متهماً بهذا المذهب أيضاً . ولى خطبة الرد (١) أيام الحكم رضى الله عنه . وهو الذى صلبه المنصور بن أبى عامر إذا آتهمه هو وجماعة من الفقهاء والقضاة بقرطبة أنهم يُبَايعُونَ سِرّاً لعبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر رضى الله عنهم ، فقتل عبد الرحمن وصلب عبد الملك بن منذر وبدد شمل جميع من آتهم . وكان أبوه قاضى القضاة منذر بن سعيد متهماً بمذهب الاعتزال أيضاً . وكان أخطب الناس وأعلمهم بكل فن وأورعهم وأكثرهم هزلاً ودُعابة . وحكم المذكور فى الحياة فى حين كتابتى إليك بهذه الرسالة قد كُفَّ بصره وأسَنَّ جداً .

نهر :

ومن عجيب طاعة المحب لمحبوبه أنى أعرف من كان سهر الليالى الكثيرة ولقى الجهد الجاهد فقطعت قلبه ضروبُ الوجد . ثم ظفر بمن يُحب وابتس به امتناع ولا عنده دفع ، فحين رأى منه بعض الكراهة لما نواه تركه وأنصرف عنه ، لا تعففاً ولا تخوفاً لكن توقفاً عند موافقته رضاه . ولم يجد من نفسه معيناً

(١) فى الأصل : « الرى » .

على إتيان ما لم يرَ له إليه نشاطاً وهو يَجِد ما يجد . وإني لأعرف من فعل هذا الفعل ثم تندم لعذر (١) ظهر من المحبوب . فقلت في ذلك :

غافِصُ الفُرْصَةِ وأَعْلَمُ أَهْمَها كَمُضِيَّ البرقِ تَمُضِي الفُرْصِ
كَمْ أُمُورٍ أُمَكَّنْتَ أَهْمَها هِيَ عِنْدِي إِذْ تَوَلَّتْ غُصَصِ
بَادِرُ الكَنْزِ الذِي أَلْفَيْتَهُ وَأُنْتَهَرُ صَبْرًا كِبَارِ يَقْنُصِ

ولقد عرض مثلُ هذا بعينه لأبي المطرِّ عبد الرحمن بن أحمد بن محمود صديقنا وأنشدته أبياتاً لي فطار بها كل مطار ، وأخذها مني فكانت هيراه .

فهر :

ولقد سألتني يوماً أبو عبد الله محمد بن كليب من أهل القيروان أيامَ كوني بالمدينة ، وكان طويل اللسان جداً متقفاً للسؤال في كل فن ، فقال لي وقد جرى بعض ذكر الحب ومعانيه : إذا كرهه من أحب لقاءى وتجنب قربى فما أصنع ؟ قلت : أرى أن تسعى في إدخال الرُّوح على نفسك بلقاؤه وإن كره . فقال : لكنى لا أرى ذلك بل أوتر هواه على هواى ومُراده على مرادى ، واصبر ولو كان في ذلك الحُتِف . فقلت له : إني إنما أحببتُه لنفسي ولالتذاذها بصورته فأنا أتبع قياسى وأقود أصلى وأقفو طريقي في الرغبة في سرورها . فقال لي : هذا ظلم من القياس ، أشد من الموت ماتمى له الموت . وأعز من النفس ما بذلت له النفس . فقلت له : إن بذلت نفسك لم يكن اختياراً بل كان اضطراراً ، ولو أمكنك ألا تبذلها لما بذلتها ، وتركك لقاء اختياراً منك أنت فيه ملوم لإضرارك بنفسك وإدخالك الحُتِف عليها . فقال لي : أنت رجل جدلي ولا جدل في الحب يلتفت إليه . فقلت له : إذا كان صاحبه مؤوفاً (٢) فقال : وأى آفة أعظم من الحب .

باب المخالفة

وربما أتبع الحب شهوته وركب رأسه فبائع شفاءه من محبوبه ، وتعهد

(١) في الاصل : « وتعدر ما » . (٢) المؤوف : الذى به آفة .

مسرته منه على كل الوجوه سخط أورضى . ومن ساعده على الوقت هذا وثبتت
جنانته وأتيحت له الأفذار أستوفى لذته جميعها وذهب غمّه وانقطع همّه ورأى أمّله
وبلغ مرغوبه . وقد رأيت من هذه صفته . وفي ذلك أقول أحياناً ، منها :

إذا أنا بلغت نفسى المنى من رشا مازال لى مُمرضاً
فما أبالى الكره من طاعة ولا أبالى سخطاً من رضا
إذا وجدت الماء لابد أن أطفى به مُشعل جمر الغضا

باب العاذل

وللحُب آفات ، فأولها العاذل . والعَدَال أقسام ، فأصلهم صديق قد أسقطت
مؤونة التحفظ بينك وبينه فعَدَله أفضل من كثير المساعدات ؟ وهى من الحظ
والنهي ، وفي ذلك زاجر للنفس عجيب ، وتقوية لطيفة لها عرض ، وعمل ودواء
تشتد عليه الشهوة ، ولا سيما ان كان رفيقاً فى قوله حسن التوصل إلى ما يُورد
من المعانى بلفظه ، عالماً بالأوقات التى يؤكّد فيها النهي ، وبالأحيان التى يزيد
فيها الأمر . والساعات التى يكون فيها وقفاً بين هذين ، على قدر ما يرى من تسهيل
العاشق وتوعّره ، وقبوله وعصيانه .

ثم عاذل زاجر لا يُفريق أبداً من الملامة ، وذلك خطب شديد وعبء ثَقِيل .
ووقع لى مثل هذا ، وإن لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يُشبهه ، وذلك أن
أبا السرى عمار بن زياد صديقنا أكثر من عدلى على نحو نحوه وأعان على
بعض من لايمنى فى ذلك الوجه أيضاً ، وكنت أظن أنه سيكون معى مُخطئاً
كنت أو مصيباً . لو كيد صداقتى وصحیح أخوتى به .

ولقد رأيت من اشتد وجده وعظم كلفه حتى كان العَدَل أحبّ شىء إليه ،
ليرى العاذل عصيانَه ويستلذّ مخالفته ، ويحصل مقاومته للأئمة وغابته إياه . كالملك
الهازم لعدوه والمجادل الماهر الغالب لخصمه ، ويسرّ بما يقع منه فى ذلك وربما

كان هذا المستجلب لعذل العاذل بأشياء يوردها توجب ابتداء العذل وفي ذلك أقول أحياناً ، منها :

أحبُّ شيء إلىَّ اللومُ والعَدْلُ كي أسمعَ أسمَ الذي ذكّرني إلى أمل
كأنني شاربٌ بالعَدْلُ صافيةً وبأسم مولاي بعد الشرب أنتقل

باب المساعدة من الاخوان

ومن الأسباب المتمنّاة في الحُب أن يهب الله عزّ وجل للإنسان صديقاً مُخلصاً ، لطيفَ القول ، بسيطَ الطّول . حسنَ المآخذ . دقيقَ المنفذ . متمكناً البيان ، مُرهِفَ اللسان ، جليلَ الحلم ، واسعَ العلم ، قليلَ المخالفة ، عظيمَ المساعدة ، شديد الاحتمال صابراً على الإدلال ، جمّ الموافقة ، جميل المخالفة ، مستوًى المطابقة ، محمود الخلائق ، مكفوف البوائق ، محتوم المساعدة ، كارهاً للمباعدة ، نبيل المدخل ، مصروف الغوائل ، غامض المعاني ، عارفاً بالأمانى ، طيب الأخلاق ، سرّى الاعراق ، مكتوم السر ، كثير البر ، صحيح الخدس ، مضمون العون ، كامل الصون ، مشهور النفس ، نافذ الحس ، صحيح الخدس ، مبدول النصيحة ، مستيقن الوداد ، سهل الوفاء ، ظاهر الغناء ، ثابت القريحة ، مبدول النصيحة ، مستيقن الوداد ، سهل الانقياد ، حسن الاعتقاد ، صادق اللهجة ، خفيف المهجة ، عفيف الطباع ، رحب الذراع ، واسع الصدر ، متخلقاً بالصبر ، يَألف الإحاض ، ولا يعرف الإعراض ، يستريح إليه ببلا به ، ويشاركه في خلوة فقره ، ويفاوضه في مكتوماته ، وإن فيه للمحب لأعظم الراحة ، وأين هذا ، فإن ظفرت به يداك فشُدّها عليه شد الصنين ، وأمسك بهما إمساك البخيل ، وصنّه بطارفك وتالدك ، فمعه يكمل الأُنس ، وتنجلي الأحزان ، ويقصر الزمان ، وتطيب الأحوال . ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة عوناً جميلاً ، ورأياً حسناً ، ولذلك اتخذ الملوك الوزراء والدخلاء كي يخففوا عنهم بعض ما حملوه من شديد الأمور وطُوقه من باهض الأحمال . ولكي يستغنوا بأرائهم ويستمدّوا بكفائتهم . وإلا فليس في قوة

الطبيعة أن تقاوم كل ما يرد عليها دون أستعانة بما يشاكلها وهو من جنسها .
ولقد كان بعض المحبين ، لعدم هذه الصفة من الإخوان وقلة ثقته منهم لما جرب به
من الناس وأنه لم يعدم من باح إليه بشيء من سرّه أحد وجهين إما إزراء على
رأيه وإما إذاعة لسره ، أقام الوحدة مقام الأُنس . وكان ينفرد في المكان
النازح عن الأُنس ، ويناجي الهوى ، ويكلم الأرض ، ويجد في ذلك راحة كما
يجد المريض في التأوه والمحزون في الزفير ؛ فإن الموم إذا ترادفت في القلب ضاق
بها ، فإن لم يُنص منها شيء باللسان ، ولم يسترح إلى الشكوى لم يلبث أن يهلك
غمّاً ويموت أسفاً . وما رأيت الاسعاد أكثر منه في النساء . فعندهن من المحافظة
على هذا الشأن والتواصي بكتمانه والتواطؤ على طيّه إذا أطلعن عليه ما ليس عند
الرجال ، وما رأيت امرأة كشفت سرّ متحابين إلا وهى عند النساء ممقوتة مستنقطة
مرمية عن قوس واحدة . وإنه ليوجد عند العجائز في هذا الشأن مالا يوجد
عند الفتيات ، لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التفاير ، وهذا
لا يكون إلا في الثدرة . وأما العجائز فقد يتسنن من أنفسهن فانصرف الإشفاق
محضاً إلى غيرهن .

هــبـر :

وإني لأعلم امرأة مؤسرة ذات جوار وخدم ، فشاع على إحدى جواربها
أنها تعشق قتي من أهلها ويعشقها وأن بينهما معاني مكرهة ، وقيل لها : إن
جارتك فلانة تعرف ذلك وعندها جليّة أمرها . فأخذتها وكانت غليظة العقوبة
فأذاقتها من أنواع الضرب والإيذاء مالا يصبر على مثله جلداء الرجال ، رجاء
أن تبوح لها بشيء مما ذكر لها ، فلم تفعل البتة .

هــبـر :

وإني لأعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عزّ وجل ناسكة مقبلة على
الخير ، وقد ظفرت بكتاب لفتى إلى جارية كان يكلف بها ، وكان في غير ملكها ،

فعرّفته الأمر فرام الإنكار فلم يتهياً له ذلك ، فقالت له : مالك ؟ ومن ذا عصم ؟
 فلا تُبال بهذا فوالله لأأطلمت على سرّكما أحداً أبداً ، ولو أمكنتني أن أبتاعها
 لك من مالى ولو أحاط به كله لجعلتها لك فى مكان تصل إليها فيه ولا يشعر
 بذلك أحد ؛ وإنك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال ، وأحب
 أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها سعيها فى تزويج يتيمة ، وإعارة ثيابها
 وحليها لعروس مقلّة . وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء إلا أنهن متفرّغات
 البال من كل شيء إلا من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتألف ووجوهه
 لا شغل لهن غيره ولا خلقن لسواه . والرجال مُقتسمون فى كسب المال وصحبة
 السلطان وطلب العلم وحياطة العيال ومُكابدة الأسفار والصيد وضروب
 الصناعات ومُباشرة الحروب ومُلاقة الفتن وتحمل المخاوف وعمارة الأرض ، وهذا
 كله مُتحيّف للفراغ ، صارف عن طريق البُطل . وقرأت فى سير ملوك السردان
 أن الملك منهم يوكل ثقةً له بنسائه يُلقي عليهنّ ضريبةً من غزل الصوف
 يشتغلن بها أبد الدهر ؛ لأنهم يقولون : إن المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تشوق إلى
 الرجال ، وتحنّ إلى النكاح . ولقد شاهدت النساء وعلمتُ من أسرارهنّ ما لا يكاد
 يعلمه غيرى ؛ لأنّى رُبيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن .
 ولا جالستُ الرجال إلا وأنا فى حدّ الشباب وحين تقيّل وجهى . وهنّ علمننى
 القرآن ورويننى كثيراً من الأشعار ودرّبننى فى الخط ، ولم يكن وكدى وإعمال
 ذهنى مذ أول فهمى وأنا فى سن الطفولة جدّاً إلا تعرّف أسبابهن ، والبحث عن
 أخبارهن ، وتحصيل ذلك . وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن ، وأصل ذلك غير
 شديدة طبعتُ عليها ، وسوء ظن فى جهتهن فطرتُ به ، فأشرفتُ من أسبابهن
 على غير قليل . وسيأتى ذلك مفسراً فى أبوابه إن شاء الله تعالى .

باب الرقيب

ومن آفات الحب الرقيب ، وإنه لهُمى باطنة ، وبرسام مُخجّ ، وفسكر

مُكِبِّ . والرقباء أفسام ، فأولهم مُثْقِلُ بالجلوس غير متعمّد في مكان أُجتمِع فيه المرء مع محبوبه ، وعزما على إظهار شيء من سرّها والبوح بوجدّها والأفراد بالحديث . ولقد يعرض للمُحِب من القلق بهذه الصفة مالا يعرض له مما هو أشد منها ، وهذا وإن كان يزول سريعاً فهو عائق حالّ دون المُراد وقطع متوفر الرجاء .

نُصير :

ولقد شاهدت يوماً مُحْبِيزَ في مكان قد ظنّا أنّهما أنفردا فيه وتأهبا للشكوى فأستحليا ماهما فيه من الخلوة ، ولم يكن الموضع حمى ، فلم يلبثا أن طلع عليهما من كانا يَسْتَقْلانِه ، فرأى فَعَدَلَ إليّ وأطال الجلوس معي ، فلو رأيتَ الفتى الحب وقد تمازج الأسفُ البادى على وجهه مع الغضب لرأيتَ عجباً . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

يُطِيلُ جُلُوساً وهو أثقل جالس ويُبْدي حديثاً لستُ أرضى فنونه
شام ورَضوى واللُّسكامِ وَيَذبل ولُبْنان والصَّمان والحرب دونه

ثم رقيب قد أحس من أمرهما بطرف ، وتوجّس من مذهبهما شيئاً ، فهو يريد أن يستبين حقيقة ذلك ، فيدمن الجلوس ، ويطيل القعود ، ويتخفى بالحركات ، ويرمق الوجوه ، ويحصل الأنفاس . وهذا أعدى من الحرب ، وإني لأعرف مَنْ هَمَّ أن يُباطش رقيباً هذه صفته . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

مُواصل لا يُغِبَّ قَصْداً أعظم بهذا الوصال غماً
صار وصِرْنا لقرط مالا يزول كالأسم والمُسَمَّى

ثم رقيب على المحبوب ، فذلك لاحيلة فيه إلا بترضية . وإذا أرضى فذلك غاية اللذة ، وهذا الرقيب هو الذى ذكرته الشعراء في أشعارها . ولقد شاهدتُ مَنْ تَلَطَّفَ في استرضاء رقيب حتى صار الرقيبُ عليه رقيباً له ، ومتغافلاً في وقت التغافل ، ودافعاً عنه وساعياً له . ففي ذلك أقول :

ورُب رقيب أرقبوه فلم يزل على سيدى عمداً ليُبعدنى عنه
فما زالت الألفاظ تحكم أمره إلى أن غدا خوًى له آمناً منه
وكان حُساماً سُلّ حتى يهْدنى فعاد مُحِبّاً ما لنعمته كُنّه

وأقول قطعة ، منها :

صار حياةً وكان سهّم ردّى وكان سمّاً فصار دريافاً
وإني لأعرف من رقب على بعض من كان يُشفق عليه رقيباً وثق به عند
نفسه ، فكان أعظم الآفة عليه وأصل البلاء فيه .

وأما إذا لم يكن فى الرقيب حيلة ولا وجد إلى ترضيه سبيل فلا طمع إلا
بالإشارة بالعين همساً بالحاجب أحياناً والتعريض اللطيف بالقول ، وفى ذلك مُتعة
و بلاغ إلى حين يَقنع به المُشتاق . وفى ذلك أقول شعراً أوله :

على سيدى منى رقيبٌ محافظٌ وفى لمن والاه ليس بنا كـ

ومنه :

وبقطع أسباب اللبابة فى الهوى ويفعل فيها فعل بعض الحوارث
كأنّ له فى قلبه ريبة تُرى وفى كل عين مُخبر بالاحداث

ومنه :

على كل من حولى رقيبان رتبّا وقد خصّنى ذوالعرش منهم بثالث
وأشنع ما يكون الرقيب إذا كان ممن أمتحن بالعشق قديماً ودُهى به وطالت
مدته فيه ثم عرى عنه بعد إحكامه لمعانيه ، فكان راغباً فى صيانة من رقب
عليه . فتبارك الله أى رقة تأتى منه ، وأى بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى
من جهته . وفى ذلك أقول :

رقيب طالما عرّف الغراما وفاسق الوجد وأمتنع المناما
ولا فنى فى الهوى ألما أنيا وكاد الحب يُورده الحماما
وأقن حيلة الصب المعنى ولم يضع الإشارة والكلاما

وأعقبه التسلي بعد هذا وصار يرى الهوى عاراً وذاماً
وصير دون من أهوى رقيباً ليبعد عنه صَباً مُستهما
فأى بليّة صُبّت علينا وأى مُصيبة حلت لِماما

ومن طريف معاني الرقباء أتى أعرف محبين مذهبهما واحد في حُب محبوب
واحد بعينه ، فلعهدي بهما كُل واحد منهما رقيب على صاحبه . وفي ذلك أقول :
صَبَان هَيَّانَانِ فِي وَاحِدٍ كَلَاهِمَا عَنْ خِدْنِهِ مُنْحَرَفٍ
كَالْكَلْبِ فِي الْآرَى^(١) لَا يَعْتَلِفُ وَلَا يُخَلِّي الْغَيْرَ أَنْ يَعْتَلِفَ

باب الواشى

ومن آفات الحُب الواشى ، وهو على ضربين . أحدهما واش يريد القَـطـع
بين المتحابين فقط ، وإن هذا لأفترها سوءة ، على أنه السم الذّاعف والصاب المقر
والخُتف القاصد والبلاء الوارد . وربما لم يَنْجـع تـرقيـشه^(٢) . وأكثـر ما يـكـون
الواشى فإلى المحبوب ، وأما الحب فهيهات ، حال الجريـض دون القريـض .
ومنع الحـرَب من الطرب ، شغله بما هو مانع له من استماع الواشى . وقد علم
الوُشاة ذلك ، وإنما يقصدون إلى الخلى البال ، الصائل بحوزة الملك ، المتعقب
عند أقل سبب .

وإن للوُشاة ضروباً من التّنقيل ، فمنها أن يذكّر للمحـبـوب عـنـى يـحـب أنه
غير كاتم للسر ، وهذا مكان صعب المَعَاناة ، بطيء البرء إلا أن يوافق معارضاً
المُحِب في محبته . وهذا أمر يوجب النّفار ، فلا فرج للمحـبـوب إلا بأن تُساعده الأقدار
بالأطلاع على بعض أسرار من يُحِب ، بعد أن يكون المحبوب ذا عقل ، وله حظ
من تمييز ، ثم يدعه والمُطاولَة . فإذا تكذّب عنده نقل الواشى مع ما أظهر من الجفاء
والتحفظ ولم يسمع لـسـره إذاعة علم أنه إنما زور له الباطل ، وأضحـل ماقام في

(١) الآرى : محبس الدابة .

(٢) الترقيش : الكلام المزين المزخرف .

نفسه . ولقد شاهدت هذا بعينه لبعض المحبين مع بعض من كان يحب ، وكان المحبوب شديد المراقبة عظيم الكتمان ، وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت أعلام ذلك في وجهه وحدث في حُب لم يكن ، وركبته رحمة ، وأظلمته فكرة ، ودھمته حيرة ، إلى إن ضاق صدره وباح بما نُقل إليه . فلو شاهدت مقام الحب في اعتذاره لعلمت أن الهوى سلطان مُطاع ، وبناء مشدود الأواخي ، وسنان نافذ ، وكان اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف ، والإنكار والتوبة والرمى بالمقاليد ، فبعد لأي ماصِلح الأمر بينهما .

وربما ذكر الواشي أن ما يُظهر المحب من المحبة ليست بصحيحة ، وأن مذهبه في ذلك شفاء نفسه وبلوغ وطره . وهذا فصل وإن كان شديداً في النقل فهو أيسر مُعاناة مما قبله ، فحالة المحب غير حالة المتلذذ ، وشواهد الوجد متفرقة بينهما . وقد وقع من هذا نبذ كافية في باب الطاعة . وربما نقل الواشي أن هوى العاشق مشترك وهذه النار المحرقة والوَجع الفاشي في الأعضاء ، وإذا وافق الناقل لهذه المقالة أن يكون المحب فتى حسن الوجه حلوا الحركات مرغوباً فيه مائلاً إلى الذات دُنياوى الطبع ، والمحبوب امرأة جليلة القدر سرّية المنصب ، فأقرب الأشياء سَعْيها في إهلاكه وتصديّها لحتفه . فسكن صريع على هذا السبب ، وكَم مَنْ سقى السم فقطع أمعاءه لهذا الوجه . وهذه كانت ميتة مروان بن أحمد بن حدير ، والد أحمد التنسك ، وموسى وعبد الرحمن ، المعروفين بابني لبني ، من قبل قَطَر الندي جاريتيه . وفي ذلك أقول محذراً لبعض إخواني قطعة ، منها :

وهل يأمن النسوانَ غيرُ مغفلٍ جهول لأسباب الردى مُتأرض (١)
وكم واردٍ حوضاً من الموت أسود ترشفه من طيب الطعم أبيض
والثاني واشٍ يسعى للقطع بين المحبين لينفرد بالمحبوب ويستأثر به . وهذا

أشد شيء وأقطعته وأجزمت لاجتهاد الواشى وأستفادة جُهدِه .

ومن الوُشاة جنس ثالث ، وهو واش يسعى بهما جميعاً ويكشف سرهما ، وهذا لا يكتفت إليه إذا كان المحب مساعداً . وفي ذلك أقول :

عجبت لواشٍ ظلاً يكشف أمرنا وما يسوى أخبارنا يتنقّس
وماذا عليه من عنائي ولوعتي أنا آكل الرمان والولد تخرس

ولا بد أن أورد ما يشبه ما نحن فيه ، وإن كان خارجاً منه ، وهو شيء في بيان التنقيط والتمائم . فالكلام يدعو بعضه بعضاً كما شرطنا في أول الرسالة ، وما في جميع الناس شر من الوُشاة ، وهم التمامون ، وإن النيمة لطبع يدل على تنن الأصل ورداءة الفرع وفساد الطبع وخُبث النشأة ، ولا بد لصاحبه من الكذب . والنيمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه ، وكل تمام كذاب ، وما أحببت كذاباً قط ، وإني لأسامح في إخاء كل ذى عيب وإن كان عظيماً ، وأكل أمره إلى خالقه عز وجل ، وأخذ ما ظهر من أخلاقه ، حاشى من أعلمه يكذب فهو عندي ماحٍ لكل محاسنه ، ومُعَفٍّ على جميع خصاله ، ومُذهب كل ما فيه ، فما أرجو عنده خيراً أصلاً ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه . وكل ذام فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه ، حاشى الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه ولا إلى كتمانهِ حيث كان . وما رأيت قط ولا أخبرني من رأى كذاباً وترك الكذب ولم يعد إليه ، ولا بدأت قط بقطيعة ذى معرفة إلا أن أطلع له على الكذب ، فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته والمتعرّض لمتاركته ، وهى سمة ما رأيتها قط فى أحد إلا وهو مزنون فى نفسه إليه بشق ، مغموز عليه لعاهة سوء فى ذاته . نعوذ بالله من الخذلان .

وقد قال بعض الحكماء : آخ من شئت واجتنب ثلاثة : الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، والمكول فإنه أوثق ما تكون به لطول الصحبة وتأكدّها يخذلك ، والكذاب فإنه يخني عليك آمن ما كنت فيه من حيث لا تشعر .

وحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : حسن العهد من الإيمان .
وعنه عليه السلام : لا يؤمن الرجلُ بالإيمان كله حتى يدع الكذب في المزاح .
حدثنا بهما أبو عمر أحمد بن محمد بن محمد عن محمد بن علي بن رِفاعَة عن علي بن
عبد العزيز عن أبي عُبَيْد القاسم بن سلام عن شيوخه ، والآخِر منهما مُسند إلى
عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما .
والله عز وجل يقول : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً
عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سُئل هل يكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال :
نعم . قيل : فهل يكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤمن
كذاباً ؟ قال : لا .

حدثناه أحمد بن محمد بن أحمد عن أحمد بن سعيد عن عُبَيْد الله بن يحيى
عن أبيه عن مالك بن أنس عن صفوان بن سليم .
وبهذا الإسناد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا خير في الكذب . في
حديث سُئل فيه .

وبهذا الإسناد عن مالك أنه بلغه عن ابن مسعود أنه كان يقول : لا يزال
العبد يكذب وينكت في قلبه نُكْتة سوداء حتى يسودَّ القلب فيُكتب عند
الله من الكذابين .

وبهذا الإسناد عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : عليكم بالصدق فإنه
يَهْدِي إلى البر والبرّ يَهْدِي إلى الجنة . وإياكم والكذب فإنه يَهْدِي إلى الفجور
والفجور يَهْدِي إلى النار .

وروى أنه أتاه صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يا رسول الله ، إني أَسْتَر بثلاث :
الخمر والزنا والكذب . فمُرني أيهما أترك . قال : اترك الكذب . فذهب منه . ثم
أراد الزنا ففكر فقال : آتَى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألني : أَرَأَيْتَ ؟

فإن قلت : نعم ، حدثني ؛ وإن قلت : لا ، نقضت العهد . فتركه . ثم كذلك في
الآخر . فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني تركت
الجميع .

فالكذب أصل كل فاحشة ، وجامع كل سوء ، وجالب لمقت الله عز وجل .
وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : لا إيمان لمن لا أمانة له .
وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : كل الخلال يُطبع عليها المؤمن إلا الخيانة
والكذب . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ثلاث من كن فيه كان
مناقفاً : من إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا أؤتمن خان .

وهل الكفر إلا كذب على الله عز وجل ، والله الحق وهو يحب الحق
وبالحق قامت السموات والأرض . وما رأيت أخزى من كذاب ، وما هلك
الدول ولا هلك الممالك ولا سفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الأستار بغير
النائم والكذب ، ولا أكدت البغضاء والإحسان المردية إلا بنائم لا يحظى
صاحبها إلا بالمقت والخرى والذل ، وأن ينظر منه الذي ينقل إليه فضلاً عن غيره
بالعين التي ينظر بها من الكلب . والله عز وجل يقول : (وَيَلْ لَّكُلَّ
هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) . ويقول جل من قائل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ
فَتَبَيَّنُوا) . فسمى النقل باسم الفسوق . ويقول : (وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ .
هَمَّاز مَشَاءَ بَنَمِيمٍ . مناع للخير معتد أثيم . عُتُلٌ بعد ذلك زنيم) . والرسول عليه
السلام يقول : لا يدخل الجنة قَتَاتٌ (١) ويقول : وإياكم وقاتل الثلاثة .
يعني المنقل والمنقول إليه والمنقول عنه . والأحنف يقول : الثقة لا يبلغ ، وحق لدى
الوجهين ألا يكون عند الله وجيباً . وهو ما يجعله من أخس الطبايع وأرذلها .
ولي إلى أبي إسحاق إبراهيم بن عيسى الثَّقَفِي الشاعر رحمه الله ، وقد نقل إليه
رجل من إخواني عني كذباً على جهة الهزل ، وكان هذا الشاعر كثير الوهم فأغضبه

وصدّقه ، وكلاهما كان لى صديقاً ، وما كان الناقل إليه من أهل هذه الصفة
ولسكنه كان كثير المزاح جم الدعاية . فكتبت إلى أبي إسحاق ، وكان يقول
بالخبر ، شعراً منه :

ولا تبدّل قاله قد سمعتها نقال ولا تدرى الصحيح بما تدرى
كمن قد أراق الماء للآل إن بدا فلاقى الردى فى الأفيح المهمه القفر
وكتبت إلى الذى نقل عنى ، شعراً منه :

ولا تزعمًا فى الجدّ مزحاً كمولج فساد علاج النفس طيّ صلاحها
ومن كان نقل الزور أمضى سلاحه كمثل الحبارى (١) تنقى بسلاحها
وكان لى صديق مرة ، وكثّر التدخيل بينى وبينه حتى كدح ذلك فيه واستبان
فى وجهه وفى لحظه ، وطبعت على التأتى والتربّص والمسالمة ما أمكنت ، ووجدت
بالانخفاض سبيلاً إلى معاودة المودة ، فكتبت إليه شعراً ، منه :

ولى فى الذى أبدى مرام لو أنها بدت ما ادعى حُسن الرماية وهُرز
وأقول مخاطباً لعبيد الله بن يحيى الجزيرى الذى يحفظ لعمه الرسائل البليغة ،
وكان طبع الكذب قد أستولى عليه وأستحوذ على عقله وألفه ألفة النفس الأمل ،
ويؤكد نقله وكذبه بالإيمان المؤكدة المغلظة ، مجاهرّاً بها أ كذب من السراب ،
مستهتراً بالكذب مشغولاً به ، لا يزال يحدث من قد صحّ عنده أنه لا يصدقه ،
فلا يزجره ذلك عن أن يحدث بالكذب :

بدا كل ما كتمته بين مخبر وحال أرتنى قُبْح عقْدك بيننا
وكم حالة صارت بياناً بحالة كما تُثبِت الأحكامُ بالحبل الزنا
وفيه أقول قطعة منها :

أنم من المرأة فى كل ما درى وأقطع بين الناس من قَصَب الهند
أظن المنايا والزمان تعلمها تحيِّله بالقطع بين ذوى الود

(١) الحبارى : طائر أكبر من الدجاج الأهل .

وفيه أيضاً أقول من قصيدة طويلة :

وأَكْذِبُ من حُسْنِ الظُّنُونِ حَدِيثُهُ وَأَقْبَحُ من دَيْنٍ وَقَرُّ مُلَازِمِ
أَوَامِرِ رَبِّ الْعَرْشِ أَضْيَعُ عِنْدَهُ وَأَهْوَنُ من شَكْوَى إِلَى غَيْرِ رَاحِمِ
تَجَمَّعَ فِيهِ كُلَّ خِزْيٍ وَفَضَحَةٍ فَلَمْ يُبْقِ شَتْمًا فِي الْمَقَالِ لَشَاتِمِ
وَأَثْقَلُ من عَذْلِ عَلَى غَيْرِ قَابِلِ وَأَبْرَدُ بَرْدًا من مَدِينَةِ سَالِمِ
وَأَبْغَضُ من بَيْنٍ وَهَجَرٍ وَرِقْبَةٍ جُمِعْنَ عَلَى حَرَّانِ حَيْرَانِ هَائِمِ
وليس من نَبَةٍ غَافِلًا ، أَوْ نَصَحَ صَدِيقًا ، أَوْ حَكِيَ عن فَاسِقٍ ،
أَوْ حَدَّثَ عن عَدُوٍّ مَا لم يَكُنْ يَكْذِبُ وَلَا يَكْذِبُ ، وَلَا تَعَمَدُ الضَّغَائِنُ ، مَتَقَلًّا .
وَهَلْ هَلَكَ الضَّعْفَاءُ وَسَقَطَ من لَا عَقْلَ لَهُ إِلَّا فِي قَلَةِ الْمَعْرِفَةِ بِالنَّاصِحِ مِنَ النَّمَامِ ، وَهِيَ
صَفَتَانِ مُتَقَارِبَتَانِ فِي الظَّاهِرِ مُتَفَاوِتَتَانِ فِي الْبَاطِنِ ، إِحْدَاهُمَا دَاءٌ وَالْأُخْرَى دَوَاءٌ .
وَالثَّاقِبُ الْقَرِيحَةُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرُهَا ، لَكِنِ النَّاقِلُ من كَانَ تَنْقِيلُهُ غَيْرَ مَرْضَى
فِي الدِّيَانَةِ ، وَنَوَى بِهِ التَّسْتِمْتَ بَيْنَ الْأَوْلِيَاءِ ، وَالتَّضْرِيبَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ ، وَالتَّحْرِيشَ
وَالْتَوْبِيضَ وَالتَّرْقِيشَ . فَمَنْ خَافَ إِنْ سَلَكَ طَرِيقَ النُّصِيحَةِ أَنْ يَقَعَ فِي طَرِيقِ
النَّمِيمَةِ ، وَلَمْ يَثِقْ لِنَفَازِ تَمْيِيزِهِ وَمَضَاءِ تَقْدِيرِهِ فِيمَا يَرُدُّهُ من أُمُورِ دُنْيَاهُ وَمَعَامِلَةِ
أَهْلِ زَمَانِهِ ، فَلْيَجْعَلْ دِينَهُ دَلِيلًا لَهُ وَسِرَاجًا يَسْتَضِيءُ بِهِ ، فَخِيثًا سَلَكَ بِهِ سَلَكَ ،
وَحَيْثًا أَوْقَفَهُ وَقَفَ . فَشَارَعَ الشَّرِيعَةَ وَبَاعَثَ الرُّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَرْتَبَ الْأَوَامِرِ
وَالنَّوَاهِي أَعْلَمَ بِطَرِيقِ الْحَقِّ وَأَدْرَى بِعَوَاقِبِ السَّلَامَةِ وَمَغْبَيَاتِ النِّجَاحَةِ من كُلِّ
نَظَرٍ لِنَفْسِهِ بَزْعَمِهِ ، وَبَاحِثٍ بِقِيَاسِهِ فِي ظَنِّهِ .

باب الوصل

ومن وجوه العشق الوصل ، وهو حظ رفيع ، ومرتبة سرية ، ودرجة
عالية ، وسعد طالع . بل هو الحياة المجددة ، والعيش السني ، والسرور الدائم
ورحة من الله عظيمة . ولولا أن الدنيا دار تمرّ ومحنة وكدر ، والجنة دار جزاء
وأمان من المسكاره ، لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه ،

والفرح الذى لا شائبة ولا حزن معه ، وكمال الأمانى ، ومنتهى الأراجى . ولقد
جربت اللذات على تصرفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنو من
السلطان ، ولا المال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغيبة ،
ولا الأمن بعد الخوف ، ولا الترويح على المال ، من الموقع فى النفس ، ما للوصل ؛
لأسيما بعد طول الأمتناع ، وحلول المهجر حتى يتأجج عليه الجوى ، ويتوقد لهيب
الشوق ، وتنصرم نار الرجاء . وما أصناف النبات بعد غيب القطر ، ولا إشراق
الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات فى الزمان السجسج ، ولا خير المياه المتخللة
لأفانين النوار ، ولا تأنى القصور البيض قد أحسدت بها الرياض الخضر ،
بأحسن من وصل حبيب قد رُضيت أخلاقه ، ومُحذت غرائزه ، وتقابلت فى
الحسن أوصافه . وانه لمُجزأ السنة البلاء ، ومقصر فيه بيان الفصحاء ، وعنده تطيش
الألباب ، وتعزب الأفهام . وفى ذلك أقول :

وسائل لي عما لي من العمر وقد رأى الشيب فى القودين والعدر
أحبته ساعة لا شيء أحسبه عمراً سواها بحكم العقل والنظر
فقال لي كيف ذا بينه لي فلقد أخبرتنى أشنع الأنباء والخبر
فقلت إن التي قلبي بها علق قبلتها قبلة يوماً على خطر
فما أعدّ ولو طالت سنى سوى تلك السوية بالتحقيق من عمرى
ومن لذيذ معانى الوصل المواعيد ، وإن للوعد المنتظر مكاناً لطيفاً من شغاف
القلب ، وهو ينقسم قسمين ، أحدهما الوعد بزيارة الحب لمحبه . وفيه أقول
قطعة ، منها :

أسامر البدر لما أبطأت وأرى فى نوره من سنا إشراقها عرّضا
فبتّ مشترطاً والود محتلطاً والوصل مُنبسطاً والمهجر مُنقبضا
والثانى أنتظار الوعد من الحب أن يزور محبوه ، وإن لمبادى الوصل وأوائل
الإسعاف لتولّجا على الفؤاد ليس لشيء من الأشياء . وإني لأعرف من كان

نُمتحننا بهوى فى بعض المنازل المُصَاقبة فكان يصل متى شاء بلا مانع ولا سبيل
إلى غير النظر والمُحادثة زماناً طويلاً ، ليلاً متى أحب ونهاراً ، إلى أن ساعدته
الأقدار بإجابة ، ومكنته بإسعاد بعد يأسه ، لطول المدة . ولمهدى به قد كاد أن
يختلط عقله فرحاً ، وما كاد يتلاحق كلامه سروراً ، فقلت فى ذلك :

برغبة لو إلى ربى دعوتُ بها لكان ذنبى عند الله مغفورا
ولو دعوتُ بها أسد الفلا لعدا إضرارها عن جميع الناس مقصورا
فجاد باللثم لى من بعد منعته فاهتاج من لوعتى ما كان مغمورا
كشارب الماء كى يُطفى الغليل به ففُص فانصاع فى الأجداث مقبورا
وقلت :

جَرى الحُب مَنى مجرى النفس وأعطيت عيني عِنان الفرس
ولى سيدٌ لم يزل نافراً ورُبَّتْما جاد لى فى الخِلس
فقبِلْتُهُ طالِباً راحة فزاد أليلاً^(١) بقلبي اليبس
وكان فؤادى كنبت هَشم يَبِيس رَمَى فيه رام قَبَس
ومنها :

ويا جَوهر الصَّين سَحَقاً فقد غَنَيْت بياقوتة الأندلس
نهر :

وإنى لأعرف جاريةً اشتد وجدها بقى من أبناء الرؤساء ، وهو لاعلم عنده ،
وكثر غمها وطال أسفها إلى أن صَنَيْتُ بِحُبِّه ، وهو بغرارة الصَّبى لا يشعر ،
ويمنعها من إبداء أمرها إليه الحياء منه ، لأنها كانت بكرّاً بخاتمها ، مع الإجلال
له عن الهجوم عليه بما لا تدرى لعله لا يوافق . فلما تَمَادَى الأمر وكانا إلفين فى النشأة ،
شكَّت ذلك إلى امرأة جزلة الرأى كانت تشق بها لتوليها تربيتها ، فقالت لها :
عرِّضى له بالشعر . ففعلت المرة بعد المرة وهو لا يأبه فى كل هذا . ولقد كان لقيناً

(١) أليلاً : أيننا .

ذِكْيًا لم يَظُنْ ذلكَ فيمِيلُ إلى تفتيشِ الكلامِ بوجهه ، إلى أن عَمِلَ صَبْرُها وضاق صدرها ولم تُمَسِّكْ نفسها في قَعْدَةٍ كانت لها معه في بعض الليالي منفردَيْنِ ، ولقد كان يعلم الله عفيفاً مُتَصَاوِنًا بعيداً عن المعاصي ، فلما حان قيامها عنه بَدَرَتْ إليه فقَبَلَتْه في فَمِه ثم وَلَّتْ في ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة ، وهى تتهاذى في مشيها ، كما أقول في أبيات لي :

كَأَنَّهُما حينَ تَخْطُو في تَأَوُّدِها قَضِيبُ نَرْجَسَةٍ في الرِّوضِ مَيَّاسِ
كَأَنَّمَا خُلِّدَها في قلبِ عاشِقِها ففِيهِ من وَقَعِها خَطَرُ ووسواسِ
كَأَنَّمَا مَشَيْها مَشَى الحِمامَةِ لا كَدُّ يُعَابِ ولا بَطْءُ بهِ باسِ
فَبُهِتَ وَسُقُطَ في يَدِه وفُتَ في عَضُدِه ووَجَدَ في كَبِدِه وعَلَّتْهَ وَجْهَةٌ ، فَمَا هُوَ إِلَّا أنْ غابَتْ عَنْه ووَقعَ في شَرَكِ الرَّدَى واشتعلت في قلبه النار وتصعدت أنفاسه وترادفت أوجاله وكثر قلقه وطال أرقه ، فما غَمَضَ تلكَ اللَّيْلَةَ عَيْنًا ، وكان هَذَا بدءَ الحبِّ بينهما دَهْرًا ، إلى أن جَذَّتْ جَلَّتْها يَدُ النَوَى . وإن هَذَا لمن مصائد إبليس ودواعي الهوى التي لا يقف لها أحدٌ إِلَّا من عصمه الله عز وجل . ومن الناس من يقول : إن دوام الوصل يُودِي بالحب ، وهذا هيجان من القول ، إنما ذلك لأهل المَلَلِ ، بل كلما زاد وصلاً زاد اتصالاً .

وعنى أخْبَرَكُ أني ماروَيْتُ قُطْ من ماء الوصل ولا زادني إِلَّا ظَمًا . وهذا حَكَمٌ من تَدَاوَى برأيه وإن ربه عنه سريعاً . ولقد باغَتْ من التَمَكُّنِ بمن أُحِبُّ أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مَرَمًى ، فما وَجَدْتُني إِلَّا مُسْتَزِيدًا ، ولقد طال بي ذلكَ فَمَا أَحْسَسْتُ بِسَامَةِ ولا رَهْقَتِي فِتْرَةً ، ولقد ضَمَّنِي مجلسٌ مع بعض من كُنْتُ أُحِبُّ فلم أَجَلْ خَاطِرِي في فن من فنون الوصل إِلَّا وَجَدْتُهُ مُقْصِرًا عن مرادى وغير شافي وَجُدِي ولا قَاضٍ أَقْلَ لُبَانَةٍ من لَبَانَاتِي ، وَوَجَدْتُني كلما أَزْدَدْتُ دَنَوًّا أَزْدَدْتُ وَلَوْعًا ، وَقَدَحْتُ زِنَادَ الشَّوْقِ نارَ الْوَجْدِ بين ضلوعي ، فقلْتُ في ذلكَ المَجْلَسِ :

وَدِدْتُ بَأَنَّ الْقَلْبَ شَقَّ بِمُدِيَّةٍ وَأَدْخَلْتَ فِيهِ نَمَّ أَطْبَقَ فِي صَدْرِي
فَأَصْبَحْتَ فِيهِ لِاتِّحْلِفَ غَيْرَهُ إِلَى مُقْتَضَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ
تَعِيشِينَ فِيهِ مَا حَيِّتُ فَإِنْ أَمْتُ سَكَنْتُ شَغَافَ الْقَلْبِ فِي ظِلِّ الْقَبْرِ

وما في الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة ، وسلمنا من
البيين ، ورغبنا عن الهجر ، وبعدا عن الملل ، وفقدنا العذال ، ونواقف الأخلاق ،
وتسكافيا في الحبة ، ، وأتاح الله لهما رزقا دارا ، وعيشا قارا ، وزمانا هاديا ،
وكان اجتماعهما على ما يرضى الرب من الحال ، وطالت صحبتهما وأتصلت إلى
وقت حلول الحام الذي لامرء له ولا بد منه ، هذا عطاء لم يحصل عليه أحد ،
وحاجة لم تقض لسكل طالب ، ولولا أن مع هذه الحال الإشفاق من بقعات المقادير
الحكمة في غيب الله عز وجل ، من حلول فراق لم يكتسب ؛ واخترام منية في
حال الشباب أو ما أشبه ذلك ، لقلت إنها حال بعيدة من كل آفة ، وسليمة من
كل داخلية . ولقد رأيت من اجتمع له هذا كله إلا أنه كان دهي فيمن كان
يحب به بشراة الأخلاق ، ودالة على المحبة ، فسكانا لا يتهنيان العيش ولا تطلع
الشمس في يوم إلا وكان بينهما خلاف فيه ، وكلاهما كان مطبوعا بهذا الخلق .
لثقة كل واحد منهما بمحبة صاحبه ، إلى أن دنت النوى بينهما فتفرقا بالموت
المرتب لهذا العالم ، وفي ذلك أقول :

كَيْفَ أَذَمَّ النَّوَى وَأَظْلَمَهَا وَكُلَّ أَخْلَاقٍ مِنْ أَحَبِّ نَوَى
قَدْ كَانَ يَكْفِي هَوَى أَضِيقَ بِهِ فَكَيْفَ إِذْ حَلَّ بِي نَوَى وَهَوَى

وروى عن زياد بن أبي سفيان رحمه الله أنه قال مجلسائه : من أنعم
الناس عيشة ؟ قالوا : أمير المؤمنين . فقال : وأين ما يلقي من قریش ؟ قيل :
فأنت . قال : أين ما ألقى من الخوارج والثغور ؟ قيل : فمن أيها الأمير . قال .
رجل مسلم له زوجة مسلمة لهما كفاف من العيش قد رضيت به ورضى بها لا يعرفنا
ولا نعرفه .

وهل فيما وافق إعجاب الخلقين ، وجلا القلوب ، واستمال الحواس ، واستهوى النفوس ، واستولى على الأهواء ، واقتطع الألباب ، واختلس العقول ، مستحسن يعدل إشفاق مُحب على محبوب . ولقد شاهدت من هذا المعنى كثيراً ، وإنه لمن المناظر العجيبة الباعثة على الرقة الرائقة المعنى لا سيما إن كان هوى يتكتم به . فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضبه بمُحبه ، وخجلته في الخروج مما وقع فيه بالاعتذار ، وتوجيهه إلى غير وجهه ، وتحيله في استنباط معنى يُقيمه عند جلسائه ، لرأيت عجباً ولذة مخفية لا تقاومها لذة ، وما رأيت أجلب للقلوب ولا أغوص على حياتها ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل . وإن للمُحبين في الوصل من الاعتذار ما أعجزَ أهل الأذهان الذكيّة والأفكار القوية . ولقد رأيت في بعض المرات هذا فقلت :

إذا مزجتَ الحقَّ بالباطلِ جَوَّزْتَ ماشئتَ على الغافلِ
وفيهما فرق صحيحٌ له علامةٌ تبدو إلى العاقلِ
كالتَّبَرُّ إن تَمَزَّجَ به فِضَّةً جازت على كل فتى جاهلِ
وإن تُصادفَ صائغاً ماهراً مَيَّزَ بين المحض والحائلِ

وإني لأعلم فتى وجارية ، كان يكلف كل واحد منهما بصاحبه ، فكانا يضطجعان إذا حضرها أحد وبينهما المُسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفُرُش . ويلتقي رأساهما وراء المسند ويُقبل كل واحد منهما صاحبه ولا يُريان ، وكأنهما إنما يتمددان من السكل . ولقد كان بلغ من تكافئهما في المودة أمراً عظيماً ، إلى أن كان الفتى المُحب ربما استطال عليها . وفي ذلك أقول :

ومن أعاجيب الزمان التي طَمَّت على السامع والقائلِ
رَغْبَةً مَرَّ كُوبٍ إلى راكب وذِلَّةً المسؤول للسائلِ
وطَوَّلَ مأسور إلى أسر وَصَوَّلَ المقتول للقائلِ

ما إن سمعنا في الورى قبلها خضوعَ مأمول إلى آمل
 هل ها هنا وجه تراه سوى تواضع المفعول للفاعل
 ولقد حدثتني امرأة أثق بها أنها شاهدت فتى وجارية كان يحد كل واحد منهما
 بصاحبه فضل وجَد ، قد اجتمعوا في مكان على طَرَب ، وفي يد الفتى سكين يقطع بها
 بعض القواكه ، فخرّها جرّاً زائداً فقطع إبهامه قطعاً لطيفاً ظهر فيه دم ، وكان
 على الجارية غلالة قصب خزانة لها قيمة ، فصرفت يدها وخرقتها وأخرجت منها
 فضلة شدّ بها إبهامه . وأما هذا الفعل للمُحِبِّ فقليل فيما يجب عليه ، وفرض
 لازم وشريعة مؤداة ، وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه فما يمنع بعدها .

نمبر :

وأنا أدركت بنت زكريا بن يحيى التميمي المعروف بابن برطال ، وعنها كان
 قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن يحيى ، وأخوه الوزير القائد الذي كان قتله غالب
 وقائدين له في الواقعة المشهورة بالثغور ، وهما مروان بن أحمد بن شهيد ويوسف
 ابن سعيد العكي ، وكانت متزوجة بيحيى بن محمد ابن الوزير يحيى بن إسحاق ،
 فهاجسته المنية وهو في أغص عيشه وأنضر سرورها ، فبلغ من أسفها عليه أن باتت
 معه في دثار واحد ليلة مات وجعلته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف
 بعده إلى حين موتها .

وإن للوصل المختلس الذي يُخاتل به الرقباء ويتحفّظ به من الحُضَر ، مثل
 الضحك المستور ، والنحنحة ، وجولان الأيدي ، والضغط بالأجناب ، والقرص
 باليد والرجل ، لموقفاً من النفس شهياً . وفي ذلك أقول :

إن للوصل الخفي محلاً ليس للوصل المكين الجليّ
 لذة أمرها بارتقاب كسير في خلال النقي

نمبر :

ولقد حدثتني ثقة من إخواني جليل من أهل البيوتات أنه كان علق في

صباحه جارية كانت في بعض دور آله ، وكان ممنوعاً منها فهم عقله بها . قال لي :
فتنزهنا يوماً إلى بعض ضياعنا بالسهلة غربى قرطبة مع بعض أعمامى ، فتمشينا
في البساتين وأبعدنا عن المنازل وانسطنا على الأنهار . إلى أن غيمت السماء
وأقبل الغيث ، فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يكفي الجميع . قال : فأمر عى ببعض
الأغطية فألقى على وأمرها بالاكنتان معى ، فظن بما شئت من التمكن على
أعين الملاء وهم لا يشعرون ، وبالك من جمع كخلاء ، واحتفال كافراده . قال لي :
فوالله لا نسيت ذلك اليوم أبداً . ولعهدى به وهو يحدثنى بهذا الحديث وأعضاؤه
كلها تضحك وهو يهتز فرحاً على بعد العهد وامتداد الزمان . ففى ذلك أقول
شعراً ، منه :

يَضْحَكُ الرُّوضُ وَالسَّحَابُ تَبْكِي كَحَبِيبٍ رَأَى صَبًّا مُعْنًى
خَبِيرٌ :

ومن بديع الوصل ما حدثنى به بعض إخوانى أنه كان فى بعض المنازل
المُصَاقِبَةِ لَهُ هَوًى ، وكان فى المنزلين موضع مطلع من أحدهما على الآخر ، فكانت
تقف له فى ذلك الموضع ، وكان فيه بعضُ البُعد ، فتسلم عليه ويدها ملفوفة فى
قميصها . فخاطبها مستخبراً لها عن ذلك . فأجابته : إنه ربما أحسن من أمرنا شيء
فوقف لك غيرى فسلم عليك فرددت عليه ، فصح الظن ، فهذه علامة بينى وبينك
فإذا رأيت يداً مكشوفة تُشير نحوك بالسلام فليست يدي فلا تجاوب .
وربما استُحِلَّ الوصال وأتفقت القلوب حتى يقع التَخَاجُجُ فى الوصال ، فلا
يلتفت إلى لائمه ولا يستتر من حافظ ولا يبالي بناقل ، بل العـ . — ذل حينئذ
يُغْرِى . وفى صفة الوصل أقول شعراً ، منه :

كَمْ دُرْتُ حَوْلَ الْحُبِّ حَتَّى لَقَدْ حَصَلَتْ فِيهِ كَحُصُولِ الْفَرَّاشِ
وَمِنْهُ :

تَعْشُو إِلَى الْوَصْلِ دَوَاعِي الْمَهْوَى كَمَا سَرَى نَحْوَ سَنَا النَّارِ عَاشَ

ومنه : عَلَّني بالوصل من سَيْدى كَمِثْل تَعْلِيل الظَّماءِ العِطاش
ومنه

لا تَوَقِف العَيْنَ على غاية فالحسن فيه مُستزِيد وباش (١)
وأقول من قصيدة لى :

هل لتقيل الحب من وادى	أم هل لعانى الحب من فادى
أم هل لدهرى عودة نحوها	كمثل يوم مرّ فى الوادى
ظلمت فيه ساججاً صادياً	يا عجباً للسابح الصادى
ضنيت يا مولاي وجداً فما	تبصرنى الحاظ عوآدى
كيف أهتدى الوجد إلى غائب	عن أعين الحاضر والبادى
ملّ مداواتى طبيبى فقد	يرجى للشقم حسادى

باب الهجر

ومن آفات الحُب أيضاً الهجر ، وهو على ضرب : فأولها هجر يُوجبُه تحفظ من رقيب حاضر ، وإنه لأحلى من كل وصل ، ولولا أن ظاهر اللفظ وحكم التسمية يُوجب إدخاله فى هذا الباب لرجعت به عنه ولأجلتته عن تسطيره فيه . فحينئذ ترى الحبيب مُنحرفاً عن مُحبه مقبلاً بالحديث على غيره معرضاً بمعرض لثلاث لحق ظفته أو تسبق أسترابته . وترى الحب أيضاً كذلك ، ولكن طبعه له جاذب ، ونفسه له صارفة بالرغم ، فتراه حينئذ مُنحرفاً كمُتَّيِّل ، وساكناً كناطق ، وناظراً إلى جهة نفسه فى غيرها . والحاذق الفطن إذا كَشَفَ بوجهه عن باطن حديثهما عَلِمَ أن الخافى غير البادى ، وما جَهَرَ به غير نفس الخبر ، وأنه لمن المَشَاهِد الجالبة للفتن والمناظر الحركة للسوا كن الباعثة للخواطر المهيجة للضمائر الجاذبة للفتوة . ولى أبيات فى شىء من هذا أوردتها . وإن كان فيها غير هذا المعنى على ما شرطنا ، منها :

(١) كذ فى الأصل .

يلوم أبو العباس جهلاً بطبعه كما عير الحوتُ النعامة بالصدى
ومنها :

وكم صاحبٍ أكرمتُه غيرَ طائع ولا مُكرَهٍ إلا لأمرٍ تعمداً
وما كان ذاك البرِّ إلا لغيره كما نصبوا للطير بالحَبِ مصيداً
وأقول من قصيدة محتوية على ضروب من الحِكم وفنون من الآداب الطبيعية :

وسرَّاءُ أحشائي لمن أنا مؤثر وسرَّاءُ أبنائي لمن أنا مُحبَّب
فقد يشرب الصابُ الكريه لعلَّة ويترك صفوُ الشَّهد وهو مُحِبَّب
وأعدل في إجهادِ نفسِي في الذي أريد وإني فيه أشقى وأتعب
هل الأولو المكنون والدُّرُكُله رأيتَ بغير الغوص في البحر يُطلب
وأصرف نفسي عن وجوه طباعها إذا في سواها صَحَّ ما أنا أرغب
كما نسخ الله الشرائع قبلنا بما هو أدنى للصالح وأقرب
وألقي سجايا كُلِّ خَلْقٍ بمثلها ونعت سجاياي الصَّحيح المذهب
كما صار لونُ الماء لونَ إنائه وفي الأصل لونُ الماء أبيض معجب
ومنها :

أقتُ ذوى ودَى مُقامِ طبائعي حياتي بها والموتُ منهن يَرهب
ومنها :

وما أنا ممَّنْ تَطَّيَّبه (١) بِشاشةٍ ولا يفتضي ما في ضميري التجنُّبُ
أزِيدُ نِفاراً عند ذلك باطناً وفي ظاهري أهلٌ وسَهْلٌ ومرحِبُ
فإني رأيتُ الحَرْبَ يعلو أشغالها ومبدؤها في أول الأمر ملْعَبُ
ولاحية الرِّقشاءِ وشيٌّ ولوْنها عجيب وتحت الوشي سُمٌّ مركَّبُ
وإنَّ فرند السَّيفِ أعجبُ منظرًا وفيه إذا هزُّ الحِمام المذَرَّبُ
وأجعلُ ذُلَّ النفسِ عِزَّةً أهلها إذا هي نالتُ ما بها فيه مذهبُ

(١) تطيَّبه أي تَخَذَلَهُ وتخدعه .

فقد يضع الإنسان في القرب وجهه ليأتي غداً وهو المصون المقرب
فذل يسوق العز أجود للفتى من العز يتلوه من الذل مركب
وكم ما كل أربت عواقب غية ورُب طوى بالخضب آت ومُعقب
وما ذاق عز النفس من لا يذلها ولا التذ طعم الروح من ليس ينصب
ورودك نهل الماء من بعد ظمأة ألد من العلّ المكين وأعذب
ومنها :

وفي كل مخلوق تراه تفاضلٌ فرد طيباً إن لم يتح لك أطيب
ولا ترض وِرْد الرّيق إلا ضرورة إذا لم يكن في الأرض حاشاه مشرب
ولا تقرن ملح المياه فإنها شجى والصدى بالحرأولى وأوجب
ومنها :

فخذ من جرأها ما تيسر وأفتنع ولا تك مشغولاً بمن هو يغلب
فمالك شرط عندها لا ولا يد ولا هي إن حصّلت أم ولا أب
ومنها :

ولا تياسن مما ينال بحيلة وإن بعدت فالأمر ينأى ويضعب
ولا تأمن الإظلام فالفجر طالع ولا تلتبس بالضوء فالشمس تغرب
ومنها :

أليح فإن الماء يكدح في الصفا إذا طال ما يأتي عليه ويذهب
وكثر ولا تنشل وقلل كثير ما فعلت فماء الزن جم وينضب
فلو يتغذى المرة بالشّم فاته وقام له منه غداء مجرب

ثم هجر يوجه التذلل ، وهو ألد من كثير الوصال ، ولذلك لا يكون إلا عن
ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه ، وأستحكام البصيرة في صحة عقده ، فينثذ
يظهر المحبوب هجراناً ليرى صبر محبه ، وذلك لثلاً يصفو الدهر البتة ، وليأسف
الحب إن كان مفترط العشق عند ذلك لا لما حل ، لكن مخافة أن يترقى الأمر

إلى ما هو أجلّ ، يكون ذلك الهجر سبباً إلى غيره ، أو خوفاً من آفة حادث ملل . ولقد عرض لى فى الصبا هجر مع بعض من كنت ألف ، على هذه الصفة وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود . فلما كثر ذلك قلتُ على سبيل المزاح شعراً بديهياً ختمتُ كل بيت منه بقسم من أول قصيدة طرفة بن العبد المعلقة ، وهى التى قرأناها مشروحة على أبى سعيد الفقى الجعفرى عن أبى بكر المقرئ عن أبى جعفر النحاس ، رحمهم الله ، فى المسجد الجامع بقرطبة ، وهى :

تذكرت وُدّاً للحبيب كأنه	خلوة أطلالٍ ببرقة تهمد
وعهدى بعهد كان لى منه ثابت	يلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقفت به لا مؤقتاً برجوعه	ولا آيساً أبكى وأبكى إلى الغد
إلى أن أطل الناس عذلى وأكثروا	يقولون لا تهلك أسى وتجدد
كأن فنون السخط ممن أحبه	خلايا سفين بالنواصف من دد
كأن انقلاب الهجر والوصل مَرَكَب	يجور به الملاح طوراً ويهتدى
فوقت رضى يتلوه وقت تسخط	كما قسم الثرب المفايل باليد
وييسم نحوى وهو غضبان معرض	مظاهر ستمطى لؤلؤ وزبرجد

ثم هجر يُوجب العتاب لذنب يقع من الحب ، وهذا فيه بعضُ الشدة ، لكن فرحة الرجعة وسُرور الرضى يعدل ماضى ، فإن لرضى المحبوب بعد سخطه لذة فى القلب لاتعدها لذة ، وموقفاً من الروح لا يفوقه شىء من أسباب الدنيا . وهل شاهد مُشاهد أو رأت عين أو قام فى فكرٍ ألدُّ وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب ، وبعُد عنه كل بغيض ، وغاب عنه كل واش ، واجتمع فيه محبتان قد تصارما لذنب وقع من الحب منهما وطال ذلك قليلاً ، وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثمَّ مانع من الإطالة للحديث ، فابتدأ المُحب فى الاعتذار والخضوع والتذلل والأدلة بحجته الواضحة من الإدلال والإذلال والتذم بما سلف ، فطوراً يدلى ببراءته ، وطوراً يردّ بالعفو ويستدعى المغفرة ويقر بالذنب

ولا ذنب له ، والمحبوب في كل ذلك ناظر إلى الأرض يُسارقه اللحظ الخفي ، وربما أدامه فيه ثم يبسم خفياً لتبسمه ، وذلك علامة الرضى . ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر ، ويقبل القول ، وامتنحت ذنوب النقل ، وذهبت آثار السخط ، ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور ، ولو كان فكيف ولا ذنب ، وختم أمرها بالوصل الممكن وسقوط العتاب والإسعاد وتفرقا على هذا .

هذا مكان تتقاصر دونه الصفات وتتلكن بتحديدته الألسنة . ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك فما رأيت هيبة تعدل هيبة مُحِب المحبوبة ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء ، وأنبساط مديري الدول ، فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ووثق بميله إليه وصحة مودته له .

وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ، ومواقف المهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف مُحِب هَيَّان بين يدي محبوب غضبان قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء . ولقد أمتنحت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف ، لا أجيب إلى الدنية ، ولا أساعد على الخضوع ، وفي الثانية أذل من الرداء ، وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل ، وأغتم فرصة الخضوع لو نجع ، وأتحمّل بلساني ، وأغوص على دقائق المعاني ببياني ، وأنفن القول فنوناً ، وأتصدى لكل ما يوجب الترضى .

والتجنى بعض عوارض المهجران ، وهو يقع في أول الحب وآخره ، فهو في أوله علامة لصحة المحبة ، وفي آخره علامة لفتورها وباب للسو .

نهي :

وأذكر في مثل هذا أني كنت مجتازاً في بعض الأيام بقربة في مقبرة باب عامر في لمة من الطلاب وأصحاب الحديث ، ونحن نريد مجلس الشيخ أبي القاسم

عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري بالرصافة أستاذى رضى الله عنه ، ومعنا أبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوى من أهل سبته ، وكان شاعراً مقلقاً وهو ينشد لنفسه في صفة متجنّ معهود أحياناً له ، منها :

سَرِيعَ إِلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ وَإِنِّهِ : إِلَى نَقْضِ أَسْبَابِ الْمَوَدَّةِ يَسْرِعُ
يَطُولُ عَلَيْنَا أَنْ نَرْقَعَ وَدَّهُ إِذَا كَانَ فِي تَرْقِيْعِهِ يَنْقَطِعُ

فوافق إنشاد البيت الأول من هذين البيتين خطوط أبي الحسين بن علي الفاسي رحمه الله تعالى وهو يؤم أيضاً مجلس ابن أبي يزيد ، فسمعه فتبسم رحمه الله نحونا وطوانا ماشياً وهو يقول : بل إلى عقد المودة إن شاء الله ، فهو أولى . هذا على حد أبي الحسين رحمه الله وفضله وتقربه وبراءته ونسكه وزهده وعلمه . فقلت في ذلك :

دَعْ عَنْكَ نَقْضَ مَوَدَّتِي مُتَعَمِّدًا وَأَعْقِدْ حِبَالَ وَصَالِنَا يَا ظَالِمُ
وَلْتَرْجِعَنَّ أَرْدَتَهُ أَوْ لَمْ تُرِدْ كُرْهًا لَمَّا قَالَ الْفَقِيْهَ الْعَالِمُ
وَيَقَعُ فِيهِ الْمَجْرُ^(١) وَالْعِتَابُ . وَلَعَمْرِي إِنْ فِيهِ إِذَا كَانَ قَلِيلًا لِلذَّةِ ، وَأَمَّا
إِذَا تَفَاقَمَ فَهُوَ فَالْغَيْرِ مَحْمُودُ ، وَأَمَارَةٌ وَبَيِّنَةُ الْمَصْدَرِ ، وَعَلَامَةٌ سُوءٍ ، وَهِيَ بِجُمْلَةٍ
الْأَمْرِ مَطِيَّةُ الْمَجْرَانِ ، وَرَائِدُ الصَّرِيْمَةِ ، وَنَتِيجَةُ التَّجْنِي ، وَعَنْوَانُ الثَّقَلِ ، وَرَسُولُ
الْإِنْفِصَالِ ، وَدَاعِيَةُ الْقَلْبِ ، وَمَقْدِّمَةُ الصَّدِّ ، وَإِنَّمَا يَسْتَحْسِنُ إِذَا لَطُفَ وَكَانَ أَصْلُهُ
الْإِشْفَاقُ . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

لَعَلَّكَ بَعْدَ عَتَبِكَ أَنْ تَجُودَا بِمَا مِنْهُ عَتَبْتَ وَأَنْ تَزِيدَا
فَكَمْ يَوْمٍ رَأَيْنَا فِيهِ صَحْوًا وَأَسْمَعُنَا بِآخِرِهِ الرَّشْعُودَا
وَعَادَ الصَّحْوُ بَعْدُ كَمَا عَلِمْنَا وَأَنْتَ كَذَاكَ نَرْجُو أَنْ تَعُودَا

وكان سبب قولى هذه الأبيات عتاب وقع في يوم هذه صفته من أيام الربيع فقلتُها في ذلك الوقت ، وكان لى في بعض الزمن صديقان وكانا أخوين ففابا في

(١) فيه : أى في التجنى .

سفر ثم قديماً ، وقد أصابني رمد فتأخراً عن عيادتي ، فكتبتُ إليهما ، والمحاطبة
للا كبر منهما ، شعراً منه :

وكنْتُ أَعَدُّدُ أَيْضاً عَلَى أَخِيكَ بِمَوْلَةِ السَّامِعِ
وَلَكِنْ إِذَا الدَّجَنُ غَطَّى ذُكَا ، فَمَا الظَّنَّ بِالْقَمَرِ الطَّالِعِ

ثم هجر يُوجبه الوُشاة ، وقد تقدم القول فيهم وفيما يتولد من ديب عقاربهم ،
وربما كان سبباً المقاطعة البتة .

ثم هجر الملل ، والملل من الأخلاق المطبوعة في الإنسان ، وأحرى لمن دُهي
به ألا يصفو له صديق ، ولا يَصَح له إِياء ، ولا يثبت على عهد ، ولا يصبر على
إلف ، ولا تطول مُساعدته مُحب ، ولا يعتقد منه وُد ولا بغض . وأولى الأمور
بالناس ألا يغروه منهم وأن يفروا عن صحبته ولقائه . فلن يظفروا منه بطائل ،
ولذلك أبعدا هذه الصفة عن المُحبين وجعلناها في المحبوبين ، فهم بالجملة
أهل التجنى والتظنّي . والتعرض للمقاطعة . وأما من تزياً بأسم المُحب وهو
مَكُول فليس منهم ، وحقّه ألا يتجرع مذاقه ، ويُنفى عن أهل هذه الصفة ولا يدخل
في جملتهم .

وما رأيت قط هذه الصفة أشد تغلباً منها على أبي عامر محمد بن عامر رحمه الله ،
فلو وصف لي واصف بعض ما علمته منه لما صدقته . وأهل هذا الطبع أسرع الخلق
محبةً ، وأقلهم صبراً على المحبوب وعلى المكروه والصد ، وانقلابهم على الودّ
على قدر تسرعهم إليه . فلا تَشِق بملول ولا تَشغل به نفسك ، ولا تُغنها بالرجاء
في وفائه . فإن دُفعت إلى محبته ضرورةً فعُدّه ابن ساعته ، وأستأنفه كل حين من
أحيانه بحسب ما تراه من تلوّنه ، وقابله بما يشا كله . ولقد كان أبو عامر المُحدّث
عنه يرى الجارية فلا يصبر عنها ، ويُحقيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتي
عليه حتى يملكها ، ولو حال دون ذلك شوكُ القِتاد ، فإذا أيقن بتصيرها إليه عادت
المحبة نفاقاً ، وذلك الأُنس سُروداً ، والقلق إليها قلقامها ، ونزاعه نحوها نزاعاً

عنها ، فيبيعها بأوكس الأثمان . هذا كان دأبه حتى أتلف فيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عدداً عظيماً ، وكان رحمه الله مع هذا من أهل الأدب والحذق والذكاء والنبيل والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض . وأما حسن وجهه وكال صورته فشئ تقف الحدود عنه وتكمل الأوهام عن وصف أقله ولا يتعاطى أحد وصفه . واقد كانت الشوارع تخلو من السيارة ويتعمدون الخطوط على باب داره في الشارع الآخذ من النهر الصغير على باب دارنا في الجانب الشرق بقُرْطبة إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة ، وفي هذا الدرب كانت داره رحمه الله ملاصقة لنا ، لالشيء إلا للنظر منه . ولقد مات من محبته جوار كنّ علقن أوهامهن به ، ورثين له فخانن مما أملنه منه ، فصرن رهائن البلى وقتلتهن الوحدة .

وأنا أعرف جارية منهن كانت تُسمى غفراء ، عهدى بها لا تقتسر بمحبته حينما جلست ، ولا تجف دموعها ، وكانت قد تصيرت من داره إلى البركات الخيال صاحب الفتيان . ولقد كان رحمه الله يُخبرني عن نفسه انه يمل اسمه فضلاً عن غير ذلك .

وأما إخوانه فإنه تبدل بهم في عمره على قصّره مراراً ، وكان لا يثبت على زى واحد كآبى براقش ، حيناً يكون في ملابس الملوك وحيناً في ملابس القتاك .

فيجب على من امتحن بمخالطة من هذه صفته على أى وجه كان ألا يستفرغ عامة جهده في محبته ، وأن يُقيم اليأس من دوامه خصماً لنفسه ؛ فإذا لاحت له مخايل الملل قاطعه أياماً حتى ينشط باله ، ويبعد به عنه ، ثم يعاوده ، فربما دامت المودة مع هذا . وفي ذلك أقول :

لا تَرَجُونْ مَلُولاً لَيْسَ الْمَلُولُ بَعْدَهُ
وَدَّ الْمَلُولُ فِدْعُهُ عَارِيَةً مُسْتَرَدَّةً .

ومن الهجر ضرب يكون متولّيه الحب ، وذلك عندما يرى من جفاء محبوبه
والميل عنه إلى غيره ، أو لتقييل يلازمه ، فيرى الموت ويتجرّع غصص الأسى ،
والعَضّ على نقيف (١) الحنظل أهون من رؤية ما يكره ، فينقطع وكبدته تنقطع ،
وفي ذلك أقول :

هجرتُ من أهواه لآعن قلى	يا عجباً للعاشق الهاجر
لكنّ عيني لم تطّق نظرة	إلى مُحيا الرّشاش الفادر
فالموتُ أحلى مطمعاً من هوى	يُباح للوارد والصادر
وفي الفؤاد النار مذكّية	فاعجب لصبّ جزع صابر
وقد أباح الله في دينه	تقيّة المأسور للآسر
وقد أحلّ الكفر خوف الرّدى	حتى ترى المؤمن كالكافر

هجر :

ومن عجيب ما يكون فيها وشيعه أنى أعرف من هام قلبه بمتناء عنه نافر
منه ، فقاسى الوجد زمناً طويلاً ، ثم سَنحت له الأيام بسانحة عجيبة من الوصل
أشرف بها على بلوغ أمله ، فحين لم يكن بينه وبين غاية رجائه إلا كهؤلاء عاد
الهجر والبعد إلى أكثر ما كان قبل . فقلت فى ذلك :

كانت إلى دهرى لي حاجة	مقرونة في البعد بالمُسترى
فساقتها باللطف حتى إذا	كانت من القرب على محجّر
أبعدها عني فعادت كأن	لم تبد للعين ولم تظهر

وقلت :

دنا أملى حتى مددت لأخذه	يداً فانتلتى نحو الحجرّة راحلاً
فأصبحت لأرجو وقد كنت مُوقناً	وأضحى مع الشعري وقد كان حاصلًا

(١) نقيف الحنظل : ما شق عن حبه .

وقد كنت محسوداً فأصبحت حاسداً وقد كنت مأمولاً فأصبحت آملاً

كذا الدهرُ في كَرَّاته وأنتقاله فلا يأمنُ الدهرُ مَنْ كان عاقلاً

ثم هَجَرَ القَلْبَ ، وهنا ضَلَّتْ الأساطير ونفدت الحِيل وعظم البلاء ؛ وهو الذي خَلَّى العقولَ ذواهلَ ، فمن دُهي بهذه الداهية فليتصدَّ لمحبوب محبوبه ، وليتعمد ما يعرف أنه يستحسنه . ويجب أن يجتنب ما يدرى أنه يكرهه ، فر بما عَظفه ذلك عليه إن كان المحبوب ممن يدرى قدر المواقفة والرغبة فيه ، وأما من لم يعلم قدر هذا فلا طَمَع في استصرافه ، بل حسناتك عنده ذنوب . فإن لم يقدر المرء على استصرافه فليتعمد السُّلوان وليحاسب نفسه بما هو فيه من البلاء والحُرمان ، ويسعى في نيل رغبته على أى وجه أمكنه . ولقد رأيتُ مَنْ هَذِهِ صفته ، وفي ذلك أقول قطعة أولها :

دُهِيتَ بِن لو أدفع الموتَ دونه لقال إذا ياليتنى في المقابر
ومنها :

ولا ذنب لي إذ صرتُ أحدَ رُكائِي إلى الورْد والدُّنيا تُسَمَّى مَصَادِرِي
وماذا على الشمس المُنيرة بالضُّحَى إذا قَصُرَتْ عنها ضِعافُ البصائر
وأقول :

ما أقبحَ الهَجَرَ بعد وَصْلٍ وأحسنَ الوصلَ بعد هَجْرٍ
كالوَفَرِ تحويه بعد فَقْرٍ والفَقْرِ يَأْتِيكَ بعد وَفَرٍ
وأقول :

مَعهودُ أخلاقك قَسَمَان والدَّهرُ فيكَ اليومَ صِنْفَان
فإنك النُّعمانُ فيما مَضَى وكان للنُّعمانِ يومان
يومٌ نَعِيمٌ فيه سَعَدَ الوَرَى ويومٌ بَأْسَاءٌ وَعُدوان
فيومٌ نِعْمًا لغيري ويَو حَى منك ذو بُؤْسٍ وهِجْران
أليس حُبِّي لك مُستاهلاً لأنَّ تُجَازِيهِ بِإِحْسَان

وأقول قطعة منها :

يَا مَنْ جَمِيعُ الْحَسَنِ مُنْتَظَمٌ فِيهِ كُنْظَمُ الدَّرِّ فِي الْعَقْدِ
مَا بَالُ حَتْفِي مِنْكَ يَطْرُقُنِي قَصْدًا وَوَجْهُكَ طَالِعُ السَّعْدِ

وأقول قصيدة أولها :

أَسَاعُهُ تَوَدِّعُكَ أَمْ سَاعَةُ الْخَشَرِ وَلَيْلَةُ بَيْتِي مِنْكَ أَمْ لَيْلَةُ النَّشْرِ
وَهَرَكُ تَعْذِيبِ الْمَوْحِدِ يَنْقُضِي وَيَرْجُو التَّلَاقِي أَمْ عَذَابِ ذَوِي الْكَفْرِ

ومنها :

سَقَى اللَّهُ أَيَّامًا مَضَتْ وَلِيَالِيًّا تُحَاكِي لَنَا النَّيْلُوفَرَ الْغَضَّ فِي النَّشْرِ
فَأَوْرَاقُهُ الْأَيَّامِ حُسْنًا وَبِهَجَّةً وَأَوْسَطُهُ اللَّيْلُ الْمُقْصَرَّ لِلْعُمُرِ
لَهُوْنَا بِهَا فِي غَمْرَةٍ وَتَأَلَفَ تَمَرٌ فَلَا نَذْرِي وَتَأْتِي فَلَا نَذْرِي
فَاعْقَبْنَا مِنْهُ زَمَانٌ كَأَنَّهُ وَلَا شَكَّ حُسْنُ الْعَقْدِ أَعْقَبَ بِالْغَدْرِ

ومنها :

فَلَا تَيَأْسِ يَا نَفْسُ عَلَّ زَمَانَنَا يَعُودُ بَوَجْهِ مُقْبِلٍ غَيْرِ مُذْبِرِ (١)
كَمَا صَرَفَ الرَّحْمَنُ مُلْكُ أُمِيَّةٍ إِلَيْهِمْ وَلَوْ ذِي بِالتَّجَمُّلِ وَالصَّبْرِ
وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ أَمْدَحُ أَبَا بَكْرٍ هِشَامَ بْنِ مُحَمَّدٍ أَخَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

المرتضى رحمه الله .

فأقول :

أَلَيْسَ يُحِيطُ الرُّوحُ فِينَا بِكُلِّ مَا دَنَا وَتَنَاءَى وَهُوَ فِي حُجُبِ الصَّدْرِ
كَذَا الدَّهْرُ جِسْمٌ وَهُوَ فِي الدَّهْرِ رُوحُهُ مُحِيطٌ بِمَا فِيهِ وَإِنْ شِئْتَ فَاسْتَقِرْ

ومنها :

إِتَاوَتْهَا تَهْدَى إِلَيْهِ وَمِنَّةٌ تَقْبَلُهَا مِنْهُمْ يَقَاوِمُ بِالشُّكْرِ
كَذَا كُلُّ نَهْرٍ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ طُمْتُ غَزَارَتُهُ يَنْصَبُ فِي لُجَجِ الْبَحْرِ

(١) كذا في الأصل .

باب الى فاء

ومن حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الأخلاق في الحب وغيره الوفاء ،
وإنه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طيب الأصل وشرف العنصر ، وهو
يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات . وفي ذلك أقول قطعة منها :

أفعال كل أمرئ تنبئ بعنصره والعين تغنيك عن أن تطلب الأثر
ومنها :

وهل ترى قط دِغلي أنبت عنباً أو تذخر النحل في أوكارها الصبرا
وأول مراتب الوفاء أن يفى الإنسان لمن يفى له ، وهذا فرض لازم وحق
واجب على المحب والمحبوب ، لا يحول عنه إلا خيث الحسد لا خلاق له ولا خير
عنده . ولولا أن رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلام في أخلاق الإنسان وصفاته
المطبوعة والتطبع بها ، وما يزيد من المطبوع بالتطبع وما يضمحل من التطبع
بعدم الطبع ، لزدت في هذا المكان ما يجب أن نوضع في مثله ، ولكننا إنما
قصدنا التكلم فيما رغبته من أمر الحب فقط . وهذا أمر كان يطول جداً إذ الكلام
فيه يتفنن كثيراً .

نمبر :

ومن أرفع ما شاهدته من الوفاء في هذا المعنى وأهوله شأنًا قصّة رأيته عيانًا ،
وهو أني أعرف من رضى بقطيعة محبوبه وأعز الناس عليه ، ومن كان الموت
عنده أحلى من هجر ساعة في جنب طيبه لسر أودعه ، والتزم محبوبه يمينًا غليظة
ألا يكلمه أبدًا ولا يكون بينهما خبر أو يفصح إليه ذلك السر . على أن صاحب
ذلك السر كان غائبًا فأنى من ذلك وتمادى هو على كتمان والثاني على هجرانه إلى
أن فرقت بينهما الأيام .

ثم مرتبة ثانية وهو الوفاء لمن غدر ، وهي للمحب دون المحبوب ، وليس للمحبيب
ها هنا طريق ولا يلزمه ذلك ، وهي خُطة لا يُطيقها إلا جلد قوى واسع الصدر

حر النفس عظيم الحلم جليل الصبر حَصيف العقل ماجد الخلق سالم النية . ومن قابل الغدر بمثله فليس بمُستأهل للملامة ، ولكن الحال التي قدمنا تفوقها جداً وتفوتها بعداً . وغاية الوفاء في هذه الحال تركُ مكافأة الأذى بمثله ، والكف عن سيئ المعارضة بالفعل والقول ، والتأني في جر حبل الصعبة ما أمكن ، ورُجيت الألفة ، وطُمع في الرجعة ، ولاحت للعودة أدنى مخيلة ، وشيمت منها أقل بارقة ، أو توجس منها أيسر علامة . فإذا وقع اليأس واستحكم الغيظ حينئذ والسلامة من غرْك والأمن من ضرْك والنجاة من أذاك ، وأن يكون ذكر ما سلف مانعاً من شفاء الغيظ فيما وقع ، فرغى الأذمة حق وكيد على أهل العقول ، والحنين إلى ما مضى وألا ينسى ما قد فرغ منه وفنيت مدته أثبت الدلائل على صحة الوفاء . وهذه الصفة حسنة جداً وواجب استعمالها في كل وجه من وجوه معاملات الناس فيما بينهم على أى حال كانت .

نمبر

والعهدي برجل من صفوة إخواني قد علق بجارية فتأكد الود بينهما ، ثم غدرت بعهدده ونقضت وده وشاع خبرهما ، فوجد لذلك وجداً شديداً .

نمبر :

وكان لي مرة صديق ، ففسدت نيته بعد وكيد مودة لا يكفر بمثلها ، وكان علم كل واحد منا سر صاحبه ، وسقطت المؤونة ، فلما تغير على أفشى كل ما اطلع لي عليه مما كنت اطلعت منه على أضعافه ، ثم اتصل به أن قوله في قد بلغني ، فجزع لذلك وخشى أن أقارضه على قبيح فعلته . وبلغني ذلك فكتبت إليه شعراً أوُنسه فيه وأعلمه أني لا أقارضه .

نمبر :

ومما يدخل في هذا الدرج ، وإن كان ليس منه ولا هذا الفصل المتقدم من جنس الرسالة والباب واسكنه شبيهه له على ما قد ذكرنا وشرطنا ، وذلك

أن محمد بن وليد بن مكسير الكاتب كان مُتصلاً بى ومُنقطعاً إلى أيام
وزارة أبى رحمة الله عليه ، فلما وقع بقرطبة ما وقع وتغيّرت أحوال خرج إلى بعض
النواحي فاتصل بصاحبها فعرض جائه وحدثت له وجاهة وحال حسنة . فخلتُ
أنا تلك الناحية فى بعض رحلتى فلم يُوفِّنى حتى بل ثَقُلَ عليه مكانى وأساء معاملتى
وصُحبتى ، وكلفته فى خلال ذلك حاجة لم يَقُمْ فيها ولا قعد واشتغل عنها بما ليس
فى مثله شغل . فكتبت إليه شعراً أعاتبه فيه ، فجابنى مستعتباً على ذلك . فما
كلفته حاجة بعدها . ومما لى فى هذا المعنى وليس من جنس الباب ولكنه يشبهه
أبياتاً قلها ، منها :

وليس يُحمد كِتْمَانُ لُمَكْتَمٍ لكنَّ كِتْمَكَ ما أفساه مُفْسِئِهِ
كالجُودِ بالوَفْرِ أَسْنَى ما يكون إذا قلَّ الوُجُودُ له أو ضَنَّ مُعْطِئِهِ
ثم مرتبة ثالثة وهى الوفاء مع اليأس البات ، وبعد حلول المنايا وفجآت
المنون . وإن الوفاء فى هذه الحالة لأجلّ وأحسن منه فى الحياة ومع رجاء اللقاء .
هــ :

ولقد حدثتني امرأة أثق بها أنها رأب فى دار محمد بن أحمد بن وهب المعروف
بابن الركية من ولد بدر الداخل مع الإمام عبد الرحمن بن معاوية رضى الله عنه
جارية رائعة جميلة كان لها مولى ، فجاءته المنية فبيعت فى تركته ، فأبت أن ترضى ،
بالرجال بعده وما جامعها رجل إلى أن لقيت الله عز وجل . وكانت تُحسن الغناء
فأنكرت علمها به ورضيت بالخدمة والخروج عن جملة المتخذات للنسل واللذة
والحال الحسنة ، وفاء منها لمن قد دثر ووارته الأرض والتأمت عليه الصفائح .
ولقد رامها سيدها المذكور أن يضمها إلى فراشه مع سائر جواريه ويخرجها ما
هى فيه فأبت ، فضر بها غير مرة وأوقع بها الأدب ، فصبرت على ذلك كله .
فأقامت على امتناعها . وإن هذا من الوفاء غريب جداً .

واعلم أن الوفاء على الحب أوجب منه على المحبوب وشرطه له ألزم ، لأن

الحب هو البادي باللصوق والتعرض لعقد الأذمة والقاصد لتأكيد المودة والمستدعى صحة العشرة، والأول في عدد طلاب الأصفياء، والسابق في ابتغاء اللذة باكتساب الخلقة، والمقيد نفسه بزمام المحبة قد عقلها بأوثق عقال وخطمها بأشد خطام، فمن قسره على هذا كله إن لم يرد إتمامه؟ ومن أجبره على استجلاب المقة إن لم ينو ختمها بالوفاء لمن أراده عليها؟ والمحبوب إنما هو محبوب إليه ومقصود نحوه وخير في القبول أو الترك فإن قبل فغاية الرجاء، وإن أبى فغير مستحق للذم. وليس التعرض للوصول والإلحاح فيه والتأني لكل ما يستجلب به من الموافقة وتصفية الحضرة والمغيب من الوفاء في شيء، فحظ نفسه أراد الطالب، وفي سروره سعى وله احتطب. والحب يدعو ويخدوه على ذلك شاء أو أبى، وإنما يُحمد الوفاء ممن يقدر على تركه.

وللوفاء شروط على المحبين لازمة. فأولها أن يحفظ عهد محبوبه ويرعى غيبته، وتستوى علانيته وسريته، ويطوى شره وينشر خيره، ويفطي على عيوبه ويحسن أفعاله، ويتغافل عما يقع منه على سبيل المفاوة ويرضى بما حمله، ولا يكثر عليه بما ينفر منه، وألا يكون طلعة ثؤوباً ولا ملة طروقاً. وعلى المحبوب إن ساواه في المحبة مثل ذلك، وإن كان دونه فيها فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته ولا له الاستساطة عليه بأن يسومه الاستواء معه في درجته. وبحسبه منه حينئذ كتمان خبره وألا يقابله بما يكره ولا يخيفه به، وإن كانت الثالثة وهي السلامة ما يلقى بالجملة فليقنع بما وجد، وليأخذ من الأمر ما استدف (١) ولا يطلب شرطاً ولا يقترح حقاً. وإنما له ما سنع مجده أو ما حان بكده، واعلم أنه لا يستبين قبح الفعل لأهله، ولذلك يتضاعف قبحه عند من ليس من ذويه. ولا أقول قولي هذا ممتدحاً ولسكن آخذاً بأدب الله عز وجل. (وأمّا بنعمة ربك فحدث).

(١) استدف: سهل وأمكن.

لقد منّحنى الله عز وجل من الوفاء لكل من يمت إلى بليّة واحدة ،
 ووهبني من المحافظة لمن يتدبّر منى ولو بمُحادثته ساعة حفظاً ؟ أنا له شاكر وحامد
 ومنه مُستمد ومستزيد ، وما شئ أثقل على من الغدر ، ولعمري ما سمحت نفسي
 قط في الفكرة في إصرار من بيني وبينه أقل ذمام ، وإن عظمت جريرته
 وكثرت إلى ذنوبه ، ولقد دهمني من هذا غير قليل لما جزيت على
 السوءى إلا بالحسنى ، والحمد لله على ذلك كثيراً ، وبالوفاء أفتخر في كلمة
 طويلة ذكرت فيها مامضنا من النكبات ، ودهننا من الحل والترحال والتحول
 في الآفاق . أولها :

وَلِيَّ فَوْلى جَمِيلُ الصَّبْرُ يَتَّبِعُهُ	وَصَرَاحُ الدَّمْعُ مَا تُخْفِيهِ أَضْلَعُهُ
جِسْمٌ مَلُولٌ وَقَلْبٌ آفٍ فَإِذَا	حَلَّ الْفِرَاقُ عَلَيْهِ فَهُوَ مُوجِعُهُ
لَمْ تَسْتَقِرَّ بِهِ دَارٌ وَلَا وَطَنٌ	وَلَا تَدَفَّأُ مِنْهُ قَطُّ مَضْجَعُهُ
كَأَنَّمَا صَيِغَ مِنْ رَهْوِ السَّحَابِ فَمَا	تَزَالُ رِيحٌ إِلَى الْآفَاقِ تَدْفَعُهُ
كَأَنَّمَا هُوَ تَوْحِيدٌ تَضَيِّقُ بِهِ	نَفْسُ الْكَفُورِ فَتَأْتِي حِينَ تُودِعُهُ
أَوْ كَوَكَبٍ قَاطِعٍ فِي الْأَفْقِ مُنْتَقِلُ	فَالسَّيْرُ يُغْرِبُهُ حِينًا وَيُطْلَعُهُ
أَظْنَهُ لَوْ جَزَتْهُ أَوْ تُسَاعِدُهُ	أَلْقَتْ عَلَيْهِ أَهْمَالُ الدَّمْعِ يَتَّبِعُهُ

و بالوفاء أيضاً أفتخر في قصيدة لى طويلة أوردتها . وإن كان أكثرها ليس
 من جنس الكتاب ، فكان سبب قولى لها أن قوماً من مُخالفى شرقوا بى
 فأسأوا العتب فى وجهى وقذفونى بأنى أعضد الباطل بُحجتي ، عجزاً منهم عن
 مقاومة ما أوردته من نصر الحق وأهله ، وحسداً لى . فقلت ، وخاطبت بقصيدتى
 بعض إخوانى وكان ذا فهم ، منها :

وَحَذَنِي عَصَا مُوسَى وَهَاتِ جَمِيعَهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ حَيَّاتٌ ضَالِّ نَضَائِضِ
 وَمِنْهَا :

يُرِيغُونَ فِي عَيْنِي عَجَائِبَ جَمَّةٍ وَقَدْ يُتَمَنَّى اللَّيْثُ وَاللَّيْثُ رَا بَضِ

ومنها :

وَيَرَجُونَ مَا لَا يَبْلُغُونَ كَمَثَلِ مَا يُرْجَى مُحَالًا فِي الْإِمَامِ الرَّوَافِضِ

ومنها :

وَلَوْ جُلِدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ وَمُهْجَةٌ لَمَا أَثَّرَتْ فِيهَا الْعَيُونَ الْمَرَائِضُ
أَبَتْ عَنْ دُنَى الْوَصْفِ ضَرْبَةً لَا زَبَ كَمَا أَبَتْ الْفِعْلَ الْحُرُوفُ الْخَوَافِضُ

ومنها :

وَرَأَيْتُ لَهُ فِي كُلِّ مَا غَابَ مُسْئَلُكَ كَمَا تَسْأَلُكَ الْجِسْمَ الْعُرُوقُ النَّوَافِضُ
يَبِينُ مَذَبَ التَّمَلُّ فِي غَيْرِ مُشْكَلٍ وَيُسْتَرُّ عَنْهُمْ لِلْفُيُولِ الْمَرَابِضُ

باب الغدر

وكما أنَّ الوفاء من سرِّ النعوت ونَبِيل الصفات ، فكذلك الغدر من ذَمِيمها ومكروهها ، وإنما يُسمى غدرًا من البادى . وأما المقارض بالغدر على مثله ، وإن استوى معه في حقيقة الفعل فليس بغدر ولا هو مَعْيِبًا بذلك ، والله عز وجل يقول : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) . وقد علمنا أنَّ الثانية ليست بسَيِّئَةٍ ولكنَّ لما جَانَسَتْ الأولى في الشبه أَوْقَعَ عليها مثلُ أَسْمِهَا ، وسيأتى هذا مفسَّرًا في باب السلو إن شاء الله . ولكثرة وجود الغدر في الحبوب أُسْتَغْرِبَ الوفاء منه فصار قَلِيلُهُ الْوَاقِعُ مِنْهُمْ يُقَاوِمُ الْكَثِيرَ الْمَوْجُودَ فِي سَوَاهِمِ . وفي ذلك أقول :

قَلِيلُ وِفَاءٍ مِنْ يَهْوَى يَجِلُّ وَعُظْمُ وِفَاءٍ مِنْ يَهْوَى يَقِلُّ
فَنَادِرَةُ الْجَبَابِ أَجَلٌ مِمَّا يَجَى بِهِ الشَّجَاعُ الْمُسْتَقِلُّ

ومن قبيح الغدر أن يكون للمُحِبِّ سفير إلى محبوبه يستريح إليه بأسراره فيسعى حتى يَقلِّبه إلى نفسه ويستأثر به دونه . وفيه أقول :

أَقَمْتُ سَفِيرًا قَاصِدًا فِي مَطَالِي وَثَقْتُ بِهِ جَهْلًا فَضَرَبَ بَيْنَنَا
وَحُلَّ عُرَى وَدَى وَأَثْبَتَ وَدَّهَ وَأَبْعَدَ عَنِّي كُلَّ مَا كَانَ مُمَكِّنَا
فَصَرْتُ شَهِيدًا بَعْدَمَا كُنْتُ مُشْهَدًا وَأَصْبَحْتُ ضَيْفًا بَعْدَ مَا كَانَ ضَيْفَنَا

نمبر :

ولقد حدثني القاضي يونس بن عبد الله قال : أذكر في الصبي جارية في بعض السدد يهواها فتى من أهل الأدب من أبناء الملوك وتهواه ويتراسلان ، وكان السفير بينهما والرسول بكتبهما فتى من أترابه كان يصل إليها ، فلما عرضت الجارية للبيع أراد الذي كان يحبها أبتياها ، فبدر الذي كان رسولا فاشتراها . فدخل عليها يوماً فوجدها قد فتحت درجاً لها تطلب فيه بعض حوائجها ، فأتى إليها وجعل يفتش الدرج ، فخرج إليه كتاب من ذلك الفتى الذي كان يهواها مضمناً بالغالية مَصُوناً مُكْرَماً ، فغضب وقال : من أين هذا يا فاسقة ؟ قالت : أنت سقته إلى . فقال : لعله مُحدث بعد ذاك الحين . فقالت : ما هو إلا من قديم تلك التي تعرف . قال : فكأنما ألقمته حجراً ، فسقط في يديه وسكت .

باب البين

وقد علمنا أنه لا بد لكل مُجْتَمِع من أفتراق ، ولكل دانٍ من تناء ، وتلك عادة الله في العباد والبلاد حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . وما شيء من دواهي الدنيا يعدل الأفتراق ، ولو سالت الأرواحُ به فضلاً عن الدموع كان قليلاً . وسمع بعض الحكماء قائلاً يقول : الفراق أخو الموت ، فقال : بل الموت أخو الفراق .

والبين ينقسم أقساماً :

فأولها مُدة يُوقن بأنصرامها وبالعودة عن قريب ، وإنه لشجى في القلب ، وغصّة في الحلق لا تبرا إلا بالرجعة ، وأنا أعلم من كان يعيب من يُحب عن بصره يوماً واحداً فيعتره من الهلع والجزع وشغل البال وترادف الكرب ما يكاد يأتي عليه .

ثم بين منع من اللقاء ، وتحضير على المحبوب من أن يراه محبه ، فهذا

— ولو كان من تُحبه معك في دار واحدة — فهو بين ؛ لأنه بائن عنك . وإن هذا ليولد من الحزن والأسف غير قليل ، ولقد جرّ بناءه فكان مرّاً ، وفي ذلك أقول :

أرى دارها في كل حين وساعةٍ ولكنّ من في الدار عني مُغيّب
وهل نافعٍ قُربُ الدّيارِ وأهلها على وَصلهم مني رقيبٌ مُراقِبُ
فيالك جار الجنب أسمع حسّه وأعلم أن الصّين أدنى وأقرب
كصادٍ يرى ماء الطوى بعينه وليس إليه من سبيل يُسبّب
كذلك من في اللحد عنك مُغيّب وما دونه إلا الصّقيح المنصب
وأقول من قصيدة مُطوّلة :

مَتى تَشْتَفِي نَفْسٌ أَضَرَّ بِهَا الْوَجْدُ وَتَصَقَّبَ دَارٌ قَدْ طَوَى أَهْلَهَا الْبُعْدُ (١)
وَعَهْدِي بِهِنْدٍ وَهِيَ جَارَةٌ بَيْنَنَا وَأَقْرَبُ مِنْ هِنْدٍ لَطَالِبُهَا الْهِنْدُ
بَلَى إِنَّ فِي قُرْبِ الدّْيَارِ لِرَاحَةً كَمَا يُمَسِّكُ الظُّمَأْنَ أَنْ يَذْنُو الْوَرْدُ
ثُمَّ بَيْنَ يَتَعَمَّدُهُ الْحُبُّ بَعْدًا عَنْ قَوْلِ الْوُشَاةِ ، وَخَوْفًا أَنْ يَكُونَ بَقَاؤُهُ سَبَبًا إِلَى
مَنْعِ الْإِقَاءِ ، وَذَرِيعَةً إِلَى أَنْ يَفْشُو الْكَلَامُ فَيَقَعَ الْحِجَابُ الْغَلِيظُ .
ثُمَّ بَيْنَ يُولِّدُهُ الْمُحِبُّ لِبَعْضِ مَا يَدْعُوهُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ آفَاتِ الزَّمَانِ ، وَعُذْرُهُ
مَقْبُولٌ أَوْ مَطْرُوحٌ عَلَى قَدَرِ الْحَافِزِ لَهُ إِلَى الرَّحِيلِ .

مُحِبُّ :

وَلَعَهْدِي بِصَدِيقٍ لِي دَارُهُ الْمَرِيَّةُ ، فَعَنَتْ لَهُ حَوَائِجُ إِلَى شَاطِئَةِ فَقْصِدِهَا ،
وَكَانَ نَازِلًا بِهَا فِي مَنْزِلِي مَدَّةَ إِقَامَتِهِ بِهَا ، وَكَانَ لَهُ بِالْمَرِيَّةِ عِلَاقَةٌ هِيَ أَكْبَرُ هَمِّهِ
وَأَدْهَى غَمِّهِ ، وَكَانَ يُؤَمِّلُ بَتْنَهَا وَفِرَاقَ أَسْبَابِهِ وَأَنْ يُوشِكَ الرَّجْعَةُ وَيُسْرِعَ الْأَوْبَةُ ،
فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا حِينَ لَطِيفٍ بَعْدَ احْتِلَالِهِ عِنْدِي حَتَّى جَيْشَ الْمَوْفُوقِ أَبُو الْحَسَنِ مُجَاهِدِ
صَاحِبِ الْجَزَائِرِ الْجِيُوشِ وَقَرَّبِ الْعَسَاكِرِ وَنَابِذِ خَيْرَانَ صَاحِبِ الْمَرِيَّةِ وَعَزَمَ عَلَى
أَسْتِثْصَالِهِ ، فَانْقَطَعَتِ الطَّرِيقُ بِسَبَبِ هَذِهِ الْحَرْبِ ، وَتَحَوَّيْتُ الشُّبُلَ وَأَحْتَرَسْتُ الْبَحْرَ

(١) تصقب : تقرب ، من باب فرح .

بالأساطيل ، فتضاعف كربه إذ لم يجد إلى الانصراف سبيلاً البتة ، وكاد يطفأ
أسفاً ، وصار لا يأنس بغير الوحدة ، ولا يلجأ إلا إلى الزفير والوجوم . واعمرى
لقد كان ممن لم أقدر قط فيه أن قلبه يدعن للود ، ولا شراسة طبعه تجيب
إلى الهوى .

وأذكر أنى دخلت قرطبة بعد رحيلي عنها ثم خرجت منصرفاً عنها فضمتى
الطريق مع رجل من الكتّاب قد رحل لأمر مهم وتخلف سَكْنُ له (١) ، فكان
يرتمض لذلك . وإني لأعلم من علق بهوى له وكان فى حال شطف وكانت له
فى الأرض مذاهب واسعة ومناديح رَحْبَة ووُجوه متصرف كثيرة ، فهان عليه
ذلك وآثر الإقامة مع من يحب ، وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

لك فى البلاد منادحٌ معلومةٌ والسيفُ غُفْلٌ أو يبين قرابه
ثم بينُ رحيل وتباعد ديار ، ولا يكون من الأوبة فيه على يقين خبر ، ولا
يحدث تلاق . وهو الخطب الموجه ، والهلم المنقطع ، والحادث الأشنع ، والداء
الدوى . وأكثر ما يكون الهلع فيه إذا كان النائي هو المحبوب ، وهو الذى
قالت فيه الشعراء كثيراً . وفى ذلك أقول قصيدة ، منها :

وذى علة أعيى الطبيبَ علاجها ستوردنى لاشك منهل مضرعى
رَضِيتُ بأن أضحي قتيل وداده كجارع سمٍّ فى رَحِيق مُشعشع
فما لليالى ما أفلَ حياءها وأولعها بالنفس من كل موع
كَأَنَّ زمانى عبسُمى يُخالنى أعنتُ على عُثمان أهل التشيع
وأقول من قصيدة :

أطنك تمثال الجنان أباحه لجتهد النساء من أوليائه
وأقول من قصيدة :

لأبرد باللقيا غليلاً من الهوى توقع نيران الغضى هيمانه

(١) السكن : أهل الدار .

وأقول شعراً منه :

خَفِيتَ عن الأبصار والوجدُ ظاهر فاعجبْ بأعراض تَبينَ ولاشخص
غداً الفلكَ الدُّوارَ حَلَقَةً خاتَمَ مُحِيطٌ بما فيه وأنتَ له فَصٌّ
وأقول من قصيدة :

غَنَيْتَ عن التَّشْبِيهِ حُسناً وبَهْجَةً كما غَنَيْتَ شمسُ السَّما عَنِ الحَلَى
عَجِبْتُ أنْفُسِي بعده كيفَ لم تَمُتْ وهَجْرانُهُ دَفَنِي وفُقْدانُهُ نَعْيِي
وللجَسَدِ الغَضِّ المُنْعَمِ كيفَ لم تُذِبْهُ يدُ خَشْنا (١)

وإنَّ للأُوبةَ مِنَ البَينِ الذی تُشْفِقُ مِنْهُ النَفْسُ لِطُولِ مَسافَتِهِ وتَكَادُ تِيَّاسُ
مِنَ العُودَةِ فِيهِ ، لِرُوعَةٍ تَبْلُغُ مالا حَدَّ وِراءَهُ وَرَبما قَتَلَتْ . وَفِي ذلِكَ أَقول :

للتلاقِي بَعْدَ الفِراقِ سُرورٌ كَسُرورِ المُنْقِيقِ حانتَ وفاتُهُ
فَرَحَةٌ تُبْهِجُ النَفوسَ وتُحْيِي مَنْ دنا مِنْهُ بالفِراقِ مِماتُهُ
رَبما قَدْ تَكُونُ داهِيَةً المَوْتِ وتُودِي بِأهلِهِ هَجماتُهُ
كَمَ رَأينا مِنْ عَمَبٍ فِي المِماءِ عَطْشا نَ فَزارِ الحِمامِ وَهُوَ حَياتُهُ

وَإِنِّي لِأَعْلَمُ مَنْ نأتِ دارُ مَحْبوِبِهِ زَمَناً ثُمَّ تيسَّرتَ لَهُ أُوبةٌ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا بِقَدَرِ
التَّسْلِيمِ واسْتِيفائِهِ ، حَتَّى دَعَتْهُ نَوَى ثانِيَةٍ فَكَادَ أَنْ يَهْلِكَ . وَفِي ذلِكَ أَقول :

أُطَلْتُ زَمَانَ البُعْدِ حَتَّى إِذا انْقَضَى زَمَانَ النَوَى بِالقَرَبِ عُدْتُ إِلى البُعْدِ
فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَرَّةِ الطَّرْفِ قُرْبَكُمْ وَعَاودَكُمْ بَعْدِي وَعَاودِي وَجَدِي
كَذا حائِرٌ فِي اللَّيْلِ ضاقتَ وَجوهُهُ رَأى البَرَقَ فِي داجٍ مِنَ اللَّيْلِ مُسَوِّدٌ
فَأَخْلَفَهُ مِنْهُ رِجاءُ دِوامِهِ وَبَعْضُ الأُرَاجِي لا تُفْقِدُ ولا تُجَدِي

وَفِي الأُوبةِ بَعْدَ الفِراقِ أَقول قِطْعَةً ، مِنْها :

لَقَدْ قَرَّتِ العِينانَ بِالقَرَبِ مِنْكُمْ كَمَا سَخَنْتِ أَيامَ يَطوِيكُمْ البُعْدُ
فَلَهُ فِيمَا قَدْ مَضَى الصَّبْرُ والرَّضَى وَلِلَّهِ فِيمَا قَدْ قَضَى الشُّكْرُ وَالْحَمْدُ

نهر :

ولقد نعى إلى بعض من كنت أحب من بلدة نازحة ، فقامت فاراً بنفسى
نحو المقابر وجعلت أمشى بينها وأقول :

وددتُ بأنَّ ظهر الأرض بطنٌ وأن البطن منها صار ظهراً
وأنى متُّ قبل وُرود خطب أتى فأثار في الأكباد جحراً
وأن دعى لمن قد بان غُسل وأن ضلوع صدرى كنَّ قبرا
ثم اتصل بعد حين تكذيب ذلك الخبر فقلت :

بُشرى أنت واليأسُ مُستحکم والقلبُ في سَبْع طِيقٍ شِدَاد
كسَّت فؤادى خُصرة بعدما كان فؤادى لابساً للحِداد
جلى سواد الغم عنى كما يحلى بلون الشمس لونُ السواد
هذا وما آمل وصلاً سوى صدق وفاء بقديم الوداد
فالْمُزن قد تُطلب لا للحِيا لكن لظلِّ بارد ذى امتداد

ويقع في هذين الصنفين من البين الوداع ، أغنى رحيل المحب أو رحيل
المحبوب . وإنه لمن المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التى تفتضح فيها عزيمة كل
ماضى العزائم ، وتذهب قوة كل ذى بصيرة ، وتسكب كل عين جمود ، ويظهر
مكنون الجوى . وهو فصل من فصول البين يجب التكلم فيه ، كالعتاب فى باب
الهجر . ولعمري لو أن ظريفاً يموت فى ساعة الوداع لكان معذوراً إذا تفكّر
فيما يحل به بعد ساعة من انقطاع الآمال ، وحلول الأوجال ، وتبدل السرور بالحزن .
وإنها ساعة تُرّق القلوب القاسية ، وتلين الأفئدة الغلاظ . وإن حركة الرأس
وإدمان النظر والزفرة بعد الوداع لها تكة حجاب القلب ، وموصلة إليه من الجزع
بمقدار ما تفعل حركة الوجه فى ضد هذا .

والإشارة بالعين والتبسّم ومواطن الموافقة والوداع ينقسم قسمين ، أحدهما
لا يتمكن فيه إلا بالنظر والإشارة ، والثانى يتمكن فيه بالعناق والملازمة ، وربما

لعله كان لا يُمكن قبل ذلك البتة مع تجاوز الحال وإمكان التلاقى ، ولهذا
تمنى بعض الشعراء البَينَ ومدحوا يوم النوى ، وما ذاك بحسن ولا بصواب ولا
بالأصيل من الرأى ، فما يفي سرور ساعة بحزن ساعات ، فكيف إذا كان البين
أياماً وشهوراً وربما أعواماً ، وهذا سوء من النظر ومعوّج من القياس ، وإنما
أثنتُ على النوى فى شعري تمنياً لرجوع يومها ، فيكون فى كل يوم لقاء ووداع .
على أن تحمل مضمض هذا الاسم الكريه ، وذلك عند ما يمضى من الأيام التى
لا التقاء فيها ، يرغب الحب عن يوم الفراق لو أمكنه فى كل يوم . وفى
الصف الأول من الوداع أقول شعراً ، منه :

تنوبُ عن بهجة الأنوار بهجتهُ كما تنوب عن النيران أنفاسي
وفى الصف الثانى من الوداع أقول شعراً ، منه :

وجهٌ تحرَّ له الأنوار ساجدةً والوجهُ تمَّ فلم ينقص ولم يزد
دِفءٌ وشمس الضحى بالجدى نازلةً وبارد ناعمٌ والشمسُ فى الأسدِ
ومنه :

يوم الفراق لعمري لستُ أكرهه أصلاً وإن شئت شملُ الروح عن جسدِ
فقيه عانقتُ من أهوى بلا جزع وكان من قبله إن سبيل لم يجد
أليس من عجب [دمعى] وعبرتها يوم الوصال ليوم البين ذو حسد
وهل هجس فى الأفكار أوقام فى الظنون أشنعُ وأوجع من هجر عتاب وقع
بين مُحبين ، ثم فجأتهما النوى قبل حلول الصلح وانحلال عقدة الهجران ، فقاما
إلى الوداع وقد نسي العتاب ، وجاء ما طمَّ على القوى وأطار الكرى . وفيه
أقول شعراً ، منه :

وقد سقط العتبُ المُقدَّم وأحسّى وجاءت جيوش البَين تجرى وتسرعُ
وقد ذعر البينُ الصدودَ فراعهُ فولى فما يُدرى له اليومَ موضعُ
كذئب خلا بالصيِّد حتى أضله هزَّبَر له من جانب الغيلِ مطلعُ

لئن سَرَّني في طَرْدِهِ الهَجَرَ أَنِّي لاَ بَعَادَهُ عَنِّي الحَبِيبَ لَمُوجِعْ
ولا بُدَّ عِنْدَ المَوْتِ مِنْ بَعْضِ رَاحَةٍ وَفِي غَيبِهَا المَوْتُ الوَحِيَّ المُصْرَعِ
وأَعْرِفُ مِنْ أَتَى لِيُودِّعَ مَحْبُوبَهُ يَوْمَ الفِرَاقِ فُوجِدَهُ قَدَفَاتٌ ، فَوَقَفَ عَلَى آثارِهِ
سَاعَةً وَتَرَدَّدَ فِي المَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ ثُمَّ أَنْصَرَفَ كَثِيبًا مُتَغَيِّرَ اللَوْنِ كَاسِفِ
البَالِ ، فَمَا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلٍ حَتَّى أُعْتِلَ وَمَاتَ رَحِمَهُ اللهُ .
وَإِنْ لِلْبَيْنِ فِي إِظْهَارِ السَّرَائِرِ المَطْوِيَةِ عَمَلًا عَجَبِيًّا ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ كَانَ حُبُّهُ
مَكْتُومًا وَبِمَا يَجِدُ فِيهِ مَسْتَتِرًا حَتَّى وَقَعَ حَادِثُ الفِرَاقِ فَبَاحَ المَكْنُونُ وَظَهَرَ الخَفِيُّ .
وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً ، مِنْهَا :

بَذَلْتُ مِنَ الدِّمِّ مَا كَانَ قَبْلُ مَنَعْتَ وَأَعْطَيْتَنِيهِ جُزْأً
وَمَا لِي بِهِ حَاجَةٌ عِنْدَ ذَلِكَ وَلَوْ جُدْتُ قَبْلُ بَلَغْتَ الشِّغَافَا
وَمَا يَنْفَعُ الطِّبَّ عِنْدَ الحِمَامِ وَيَنْفَعُ قَبْلَ الرَّدَى مِنْ تِلَافَا
وَأَقُولُ :

الآن إِذَا حَلَّ الفِرَاقُ جُدْتُ لِي بِخَفِيِّ حُبِّ كُنْتُ تُبْدِي بِحُلِهِ
فَزِدْتَنِي فِي حَسْرَتِي أَضْعَافَهَا وَيَحْيَى فَهَلَّا كَانَ هَذَا قَبْلَهُ
وَلَقَدْ أَذْكَرْنِي هَذَا أَنِّي حَظِيتُ فِي بَعْضِ الأَزْمَانِ بِمُودَةِ رَجُلٍ مِنْ وَزَرَاءِ
السُّلْطَانِ أَيَّامَ جَاهِهِ فَأَظْهَرَ بَعْضَ الأُمْتِسَاكِ ، فَتَرَكْتُهُ حَتَّى ذَهَبَتْ أَيَّامُهُ وَأَنْقَضَتْ
دَوْلَتُهُ ، فَأَبْدَى لِي مِنَ المُودَةِ والأَخُوَّةِ غَيْرَ قَلِيلٍ ، فَقُلْتُ :

بَذَلْتُ لِي الإِعْرَاضَ وَالدَّهْرَ مُقْبِلُ وَتَبَذَلْتُ لِي الإِقْبَالَ وَالدَّهْرَ مُعْرِضُ
وَتَبَسَّطَنِي إِذْ لَيْسَ يَنْفَعُ بَسْطُكُمْ فَهَلَّا أَجَبْتَ البَسْطَ إِذْ كُنْتُ تَقْبِضُ
ثُمَّ بَيْنَ المَوْتِ وَهُوَ القُوَّةُ ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُرْجَى لَهُ إِيَابٌ ، وَهُوَ المَصِيبَةُ الحَالَّةُ
وَهُوَ قَاصِمَةُ الظَّاهِرِ ، وَدَاهِيَةُ الدَّهْرِ ؛ وَهُوَ الوَيْلُ ، وَهُوَ المُغْطَى عَلَى ظُلُمَةِ اللَّيْلِ ؛ وَهُوَ
قَاطِعُ كُلِّ رَجَاءٍ ، وَمَا حَى كُلَّ طَمَعٍ وَالمُؤَيِّسُ مِنَ اللِّقَاءِ . وَهَنَا حَادِثُ الأَلْسَنِ ،
وَأَنْجَازُ حَبْلِ العِلَاجِ ، فَلَا حِيلَةَ إِلَّا الصَّبْرَ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا . وَهُوَ أَجَلٌ مَا يُبْتَلَى بِهِ

المحبون ، فما لمن دهمي به إلا النوح والبكاء إلى أن يتلف أو يمل ، فهي القرحة التي لا تُشكى ، والوجع الذي لا يفي ، وهو الغم الذي يتجدد على قدر بلاء من اعتمدته ، وفيه أقول :

كُلُّ بَيْنٍ واقعٍ فَمَرْجَى لم يَفُتْ
لا تَعَجَّلْ قَنِطاً لم يَفُتْ مَنْ لم يَمُتْ
والذي قد مات قال يأس عنه قد ثبت

وقد رأينا مَنْ عَرَضَ له هذا كثيراً . وعنى أخبرك أني أحدُ من دهمي بهذه الفادحة وتعجّلت له هذه المصيبة ، وذلك أني كنتُ أشدَّ الناس كلفاً وأعظمهم حُبّاً تجارية لي ، كانت فيما خلا اسمها نَعَم . وكانت أمنيّة التمني وغاية الحسن خَلْقاً وخُلُقاً ومُوافقة لي ، وكنت أنا عذرُها ، وكنا قد تسكافنا المودة ، ففجعتني بها الأقدار وأخترمتها الليالي ومرُّ النهار ، وصارت ثلاثة التراب والأحجار . وسنّ حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هي دوني في السن ، فلقد أقيمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرّد عن ثيابي ولا تفتر لي دعة على مجرود عيني وقلة إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوتُ حتى الآن . ولو قبل فداء لقيديها بكل ما أملك من تالد وطارف وبيع بعض أعضاء جسمي العزيرة على مُسارعاً طائعاً . وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيتُ ذكرها ولا أنستُ بسواها . ولقد عفّني حُبّي لها على كل ما قبله ، وحرّم ما كان بعده . ومما قلتُ فيها :

مُهَذَّبَةٌ بِيضاء كالشَّمْسِ إن بدتْ وسائر ربّاتِ الحِجَالِ نُجُوم
أطار هواها القلبَ عن مُستقرِّه فبعد وقوعِ ظلٍّ وهو يحوم
ومن مرّاني فيها قصيدة ، منها :

كأنّي لم آنسُ بالفاظكِ التي على عُقدِ الأبوابِ هُنَّ نوافثُ
ولم أتحمّك في الأمانى كأنني لإفراط ما حُكِّمتُ فيهنّ عابثُ

ومنها :

وَيُبْدِينَ إِعْرَاضًا وَهَنَ أَوَّالُفَ وَيُقْسِمُنَ فِي هَجْرِي وَهْنِ حَوَاثُ
وَأَقُولُ أَيْضًا فِي قَصِيدَةِ أَخَاطِبَ فِيهَا ابْنُ عَمِي أَبَا الْمُعْتَمِرَةِ عَبْدِ الْوَهَّابِ أَحْمَدَ بْنَ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَزَمَ بْنِ غَالِبٍ وَأَقْرَضَهُ ، فَأَقُولُ :

قِفَا فَاَسْأَلَا الْأَطْلَالَ أَيْنَ قَطِينُهَا أَمَرْتُ عَلَيْهَا بِالْبَيْلَى الْمُلَوَّنِ
عَلَى دَارَسَاتٍ مُقْفِرَاتٍ عَوَاطِلَ كَانَ الْمَعَانَى فِي انْخِفَاءِ مَعَانِي
وَأُخْتَلَفَ النَّاسُ فِي أَى الْأَمْرَيْنِ أَشَدَّ : الْبَيْنُ أَمْ الْهَجْرُ ؟ وَكَلَاهُمَا مُرْتَقِي صَعْبٍ
وَمَوْتٍ أَحْمَرٍ وَبَلَدَةٍ سَوْدَاءَ وَسَنَةِ شَهْبَاءَ . وَكُلٌّ يَسْتَبِشِعُ مِنْ هَذَيْنِ مَا ضَادَّ طَبْعَهُ ،
فَأَمَّا ذُو النَّفْسِ الْأَبْيَةِ ، الْأَلُوفِ الْخَنَانَةِ ، الثَّابِتَةِ عَلَى الْعَهْدِ ، فَلَا شَيْءَ يَعْدِلُ
عِنْدَهُ مُصِيبَةُ الْبَيْنِ ، لِأَنَّهُ أَتَى قَصْدًا ، وَتَعَمَّدَتْهُ النَّوَائِبُ عَمْدًا ، فَلَا يَجِدُ شَيْئًا يَسْلَى
نَفْسَهُ وَلَا يَصْرِفُ فِكْرَتَهُ فِي مَعْنَى مِنَ الْمَعَانَى إِلَّا وَجَدَ بَاعِثًا عَلَى صُبَابَتِهِ ، وَحَمْرَ كَأْ
لِأَشْجَانِهِ ، وَعَلَيْهِ لَا لَهُ ، وَحُجَّةٌ لَوْجَدَهُ ، وَحَاضًا عَلَى الْبُكَاءِ عَلَى إِفْهِهِ . وَأَمَّا الْهَجْرُ
فَهُوَ دَاعِيَةُ السَّوَى ، وَرَائِدُ الْإِقْلَاعِ .

وَأَمَّا ذُو النَّفْسِ التَّوَّافِقَةِ الْكَثِيرَةِ النَّزْوَعِ وَالتَّطَلُّعِ ، الْقَلُوقِ الْعَرُوفِ ، فَالْهَجْرُ
دَاوُهُ وَجَالِبُ حَتْفِهِ . وَالْبَيْنُ لَهُ مَسَلَاةٌ وَمَنْسَاةٌ .

وَأَمَّا أَنَا فَالْمَوْتُ عِنْدِي أَسْهَلُ مِنَ الْفِرَاقِ ، وَمَا الْهَجْرُ إِلَّا جَالِبٌ لِلْسَّكْدِ فَقَطْ ،
وَيُوشِكُ إِنْ دَامَ أَنْ يُحْدِثَ إِضْرَارًا ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

وَقَالُوا أَرْتَحِلُ فَلَعَلَّ السَّوَى يَكُونُ وَتَرْغَبُ أَنْ تَرْغَبَهُ
فَقُلْتُ الرَّدَى لِي قَبْلَ السَّوَى وَمَنْ يَشْرَبُ السَّمَّ عَنْ تَجَرُّبِهِ

وَأَقُولُ :

سَبَى مُهْجَتِي هَوَاهُ وَأَوْدَتْ بِهَا نَوَاهُ
كَانَ الْغَرَامُ ضَيْفَ وَرُوحِي غَدَا قِرَاهُ

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ يَسْتَعْمَلُ هَجْرَ مَحْبُوبِهِ وَيَتَعَمَّدُهُ خَوْفًا مِنْ مَرَارَةِ يَوْمِ الْبَيْنِ
وَمَا يَحْدُثُ بِهِ مِنْ لَوْعَةِ الْأَسْفِ عِنْدَ التَّفَرُّقِ ، وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي مِنْ

المذاهب المرضية ، فهو حجة قاطعة . على أن البين أصعب من الهجر ، وكيف لا وفي الناس من يلوذ بالهجر خوفاً من البين ، ولم أجد أحداً في الدنيا يلوذ بالبين خوفاً من الهجر ، وإنما يأخذ الناسُ أبدأً الأسهل ويتكاثرون الأهون . وإنما قلنا إنه ليس من المذاهب المحمودة لأن أصحابه قد أستهجلوا البلاء قبل نزوله ، وتجرعوا غصة الصبر قبل وقتها . ولعل ما تخوفوه لا يكون وليس من يتعجل المكروه ، وهو على غير يقين مما يتعجل ، بحكيم ، وفيه أقول شعراً ، منه :

لَيْسَ الصَّبُّ لِلصَّبَابَةِ يَدْنًا لَيْسَ مِنْ جَانِبِ الْأَحْبَةِ مَنَّا
كَفَنِي يَعْيشُ عَيْشَ فَقِيرٍ خَوْفَ فَقْرٍ وَفَقْرُهُ قَدْ أَبْنَا

وأذكر لأبن عمي أبي المغيرة هذا المعنى ، من أن البين أصعب من الصد ، أبياتاً من قصيدة خاطبني بها وهو ابن سبعة عشر عاماً أو نحوها ، وهي :

أَجَزَعْتَ أَنْ أَزِفَ الرَّحِيلُ وَوَلَهْتَ أَنْ نُصَّ الذَّمِيلُ
كَلَّا مُصَابِكَ فَادِحٌ وَأَجَلُ فِرَاقِهِمْ جَلِيلُ
كَذَّبَ الْأَلَى زَعَمُوا بِأَنَّ الصَّدَّ مَرْتَعُهُ وَيَبِيلُ
لَمْ يَعْرِفُوا كُنْهُ الْغَلِي لَوْ قَدْ تَحَمَّلْتَ الْحَمُولُ
أَمَّا الْفِرَاقُ فَإِنَّهُ الْمَوْتُ إِنْ أَهْوَى دَلِيلُ

ولي في هذا المعنى قصيدة مطولة ، أولها :

لَا مِثْلَ يَوْمِكَ ضَحْوَةُ التَّنْعِيمِ	فِي مَنَظَرِ حَسَنٍ وَفِي تَنْعِيمِ
قَدْ كَانَ ذَاكَ الْيَوْمُ نَذْرَةَ عَاقِرٍ	وَصَوَابَ خَاطِئَةٍ وَوُلْدَ عَقِيمِ
أَيَّامَ بَرْقِ الْوَصْلِ لَيْسَ بِخُبَابٍ	عِنْدِي وَلَا رَوْضُ الْهَوَى بِهَشِيمِ
مِنْ كُلِّ غَانِيَةٍ تَقُولُ تُدِيهَا	سِيرَى أَمَامِكَ وَالْإِزَارُ أَقِيمِ
كُلٌّ يُجَازِبُهَا فَحُمْرَةٌ خَدَّهَا	خَبَلٌ مِنَ التَّأْخِيرِ وَالتَّقْدِيمِ
مَا بِي سِوَى تِلْكَ الْعُيُونِ وَلَيْسَ فِي	بُرْئِي سِوَاهَا فِي الْوَرَى بَزَعِيمِ
مِثْلَ الْأَفَاقِي لَيْسَ فِي شَيْءٍ سِوَى	أَجْسَادِهَا إِبْرَاهُ لَدَغِ سَلِيمِ

والبين أبكى الشعراء على المعاهد فأدروا على الرسوم الدموع ، وسقوا الديار
ماء الشوق ، وتذكروا ما قد سلف لهم فيها فأعولوا وأنتحبوا ، وأحيت الآثار دفين
شوقهم فناحوا وبكوا .

ولقد أخبرني بعضُ الورَّاد من قُرطبة ، وقد أُستخبرته عنها ، أنه رأى دورنا
ببلاط مُغيث ، في الجانب الغربي منها وقد امّحت رسومها ، وطُمست أعلامها ،
وخفيت معاهدها ، وغيّرَها البلى وصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافي موحشة
بعد الأُنس ، وخرائب مُنقطعة بعد الحُسن ، وشِعاباً مُفرّعة بعد الأمن ، ومأوى
للذئاب ، ومعارف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكان للوحوش ، بعد رجال
كالليوث ، وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية . تبدّد شملهم فصاروا في
البلاد أيادي سبا ، فكأن تلك الحارِيب المنمقة ، والمقاصير المزينة ، التي كانت
تشرق إشراق الشمس ، ويحلو الموم حُسن منظرها ، حين شملها الخرابُ ، وعَمَّها
الهدم ، كأفواه السباع فاغرة ، تُؤذن بفناء الدنيا ، وتُريك عواقب أهلها ، وتُخبرك
عمّا يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ، وتزهّد في طلبها بعد أن طالما زهدت في
تركها ، وتذكرك أيامي بها ولذّاتي فيها وشُهور صباي لديها ، مع كواعب إلى
مثلهن صبا الحليم ، ومثلت لنفسى كونهن تحت الثرى وفي الآثار النائية والنواحي
البعيدة وقد فرّقتهن يدُ الجلاء ، ومزّقتهن أ كفُ النوى ، وخيّل إلى بصرى بقاء
تلك النّصبة بعد ما علمته من حسنّها وغضارتها ، والمراتب المُحكّمة التي نشأت
فيما لديها ، وخلاء تلك الأُفنية بعد تضايقها بأهلها ، وأوهمتُ سمعى صوت
الصدى والهام عليها ، بعد حركة تلك الجماعات التي رُبّيت بينهم فيها ، وكان
ليلها تبعاً لنهارها في انتشار ساكنها والتقاء عمارها ، فعاد نهارها تبعاً ليلها في الهدوء
والاستيحاش ، فأبكى عيني ، وأوجع قلبي ، وقرع صفاة كبدي ، وزاد في بلاء
لُبي ، فقلت شعراً ، منه :

لئن كان أظمانا فقد طالما سقى وإن ساءنا فيها فقد طالما سراً

والبَّينَ يُولِّدُ الحَنِينَ والأَهْتِيَا ح وَالنَّذِيرَ . وفي ذلك أَقُولُ :

لَيْتَ الْغُرَابَ يُعِيدُ الْيَوْمَ لِي فَعَسَى يَبِينُ بَيْنَهُمْ عَنِّي فَقَدْ وَقَفَا
أَقُولُ وَاللَّيْلُ قَدْ أَرَخَى أَجَلْتَهُ وَقَدْ تَأَلَّى بِالْأَلَّاءِ يَنْقُضِي فَوْقَ
وَالنَّجْمُ قَدْ حَارَى أَفْقَ السَّمَاءِ فَمَا يَمُضِي وَلَا هُوَ لِلتَّغْوِيرِ مُنْصَرِفَا
تَخَالَهُ مُخْطِئًا أَوْ خَائِفًا وَجِلًّا أَوْ رَاقِبًا مَوْعِدًا أَوْ عَاشِقًا دَنِفَا .

باب القنوع

وَلَا بَدَ لِلْمُحِبِّ ، إِذَا حُرِمَ الْوَصْلُ ، مِنْ الْقُنُوعِ بِمَا يَجِدُ ، وَإِنْ فِي ذَلِكَ لِمُتَعَلِّلًا
لِلنَّفْسِ ، وَشَغْلًا لِلرَّجَا ، وَتَجْدِيدًا لِمَعْنَى ، وَبَعْضَ الرَّاحَةِ . وَهُوَ مَرَاتِبٌ عَلَى قَدَرِ
الْإِصَابَةِ وَالتَّمَكُّنِ .

فَأَوَّلُهَا الزِّيَارَةُ ، وَإِنْهَا لِأَمَلٍ مِنَ الْآمَالِ ، وَمِنْ سَرَى مَا يَسْنَحُ فِي الدَّهْرِ مَعَ مَا
تَبَدَّى مِنَ الْخَفَرِ وَالْحَيَاءِ ، لِمَا يَعْلَمُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِمَّا فِي نَفْسِ صَاحِبِهِ . وَهِيَ عَلَى
وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ يَزُورَ الْمُحِبُّ مَحْبُوبَهُ ، وَهَذَا الْوَجْهُ وَاسِعٌ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي أَنْ
يَزُورَ الْمَحْبُوبُ مُحِبَّهُ . وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى غَيْرِ النَّظَرِ وَالْحَدِيثِ الظَّاهِرِ . وَفِي
ذَلِكَ أَقُولُ :

فَإِنْ تَنَأَّ عَنِّي بِالْوَصَالِ فَإِنِّي سَأَرْضَى بِلَحْظِ الْعَيْنِ إِنْ لَمْ يَكُنْ وَصَلُ
فَحَسْبِيَ أَنْ أَلْقَاكَ فِي الْيَوْمِ مَرَّةً وَمَا كُنْتُ أَرْضَى ضِعْفَ ذَا مِنْكَ لِي قَبْلُ
كَذَا هَمَّةُ الْوَالِي تَسْكُونُ رَفِيعَةً وَيَرْضَى خِلَاصَ النَّفْسِ إِنْ وَقَعَ الْعَزْلُ
وَأَمَّا رَجْعُ السَّلَامِ وَالْمُخَاطَبَةُ فَأَمَلٌ مِنَ الْآمَالِ ، وَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَقُولُ فِي قَصِيدَةٍ لِي :

فَهِيَ أَنَا ذَا أَخْفَى وَأَقْنَعُ رَاضِيًا رَجَعَ سَلَامٌ إِنْ تَيَسَّرَ فِي الْحِينِ
فَإِنَّمَا هَذَا لِمَنْ يَنْتَقِلُ مِنْ مَرْتَبَةٍ إِلَى مَا هُوَ أَدْنَى مِنْهَا . وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ الْخُلُوقَاتُ
فِي جَمِيعِ الْأَوْصَافِ عَلَى قَدَرِ إِضَافَتِهَا إِلَى مَا هُوَ فَوْقَهَا أَوْ دُونَهَا . وَإِنِّي لِأَعْلَمُ مَنْ
كَانَ يَقُولُ لِمَحْبُوبِهِ : عِدْنِي وَكَذِبْ ، قُنُوعًا بِأَنْ يُسَلِّيَ نَفْسَهُ فِي وَعْدِهِ وَإِنْ كَانَ
غَيْرَ صَادِقٍ . فَقُلْتُ فِي ذَلِكَ :

إن كان وصلك ليس فيه مَطْمَع والقربُ ممنوعٌ فعِدَّتِي وأُكْذِبْ
فَعَسَى التَعَلُّلُ بالتقَانِكِ مُمَسِّكٌ الحياةُ قلبٌ بالصَّدُودِ مُعَذِّبُ
فلقد يُسَلِّى المُجْدِبِينَ إِذَا رَأَوْا فِي الْأَفُقِ يَلْمَعُ ضَوْءُ بَرَقِ خُلْبِ

ومما يدخل في هذا الباب شيء رأيتُه ورآه غيري معي ، أن رجلاً من إخواني
جرحه من كان يُحِبُّهُ بِمُدِيَّةٍ ، فلقد رأيتُه وهو يُقَبِّلُ مكانَ الجُرحِ ويندُبُه مرة بعد
مرة . فقلت في ذلك :

يَقُولُونَ شَجَّكَ مِنْ هَمِّ فِيهِ فَقُلْتُ اعْمُرِي مَا شَجَّعَنِي
وَلَكِنْ أَحْسَنَ دَمِي قُرْبَهُ فَطَارَ إِلَيْهِ وَلَمْ يَنْتَنِ
فِيَا قَاتِلِي ظَالِمًا مُحْسِنًا فَدَيْتُكَ مِنْ ظَالِمٍ مُحْسِنِ

وَمِنَ الْقُنُوعِ أَنْ يُسَرَّ الْإِنْسَانُ وَيَرْضَى بِبَعْضِ آلَاتِ مَحْبُوبِهِ ، وَإِنَّ لَهُ مِنَ
النَّفْسِ لِمَوْعِظًا حَسَنًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا مَا نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا ، مِنْ ارْتِدَادِ يَعْقُوبَ
بَصِيرًا حِينَ شَمَّ قَمِيصَ يَوْسُفَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

لَمَّا مُنَعْتُ الْقُرْبَ مِنْ سَيِّدِي وَلَجَّ فِي هَجْرِي وَلَمْ يُنْصَفِ
صِرْتُ بِإِبْصَارِي أَثْوَابَهُ أَوْ بَعْضَ مَا قَدْ مَسَّهُ أَكْتَفِي
كَذَاكَ يَعْقُوبُ نَبِيَّ الْهُدَى إِذْ شَفَّهَ الْحُزْنَ عَلَى يَوْسُفِ
شَمَّ قَمِيصًا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ وَكَانَ مَكْهُومًا فَمِنْهُ شَفِي

وَمَا رَأَيْتُ قَطُّ مَتَعَاشِقِينَ إِلَّا وَهَمَا يَتَهَادِيَانِ خُصْلَ الشَّعْرِ مَبْخَرَةً بِالْعَنْبَرِ
مَرشُوشَةً بِمَاءِ الْوَرْدِ ، وَقَدْ جُمِعَتْ فِي أَصْلِهَا بِالْمُصْطَكِيِّ وَبِالشَّمْعِ الْأَبْيَضِ الْمَصْفَى .
وَلَقَّتْ فِي تَطَارُيفِ الْوَشْيِ وَالْخَزِّ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . لَتَكُونَ تَذَكُّرَةً عِنْدَ الْبَيْنِ .

وَأَمَّا تَهَادِي الْمَسَاوِيكِ بَعْدَ مَضْغِهَا وَالْمُصْطَكِيِّ إِثْرَ اسْتِعْمَالِهَا فَكَثِيرٌ بَيْنَ كُلِّ
مَتَحَابِّينَ قَدْ خُطِرَ عَلَيْهِمَا الْلِقَاءُ . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً مِنْهَا :

أَرَى رِيْقَهَا مَاءَ الْحَيَاةِ تَبَيَّنًا عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَبْقَ لِي فِي الْهَوَى حَشَى

نمبر :

وأخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشاعر أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية ، وذكر أنه كان غايةً في الجمال ، فشاهده يوماً في بعض المتنزهات ماشياً وأمرأة خلفه تنظر إليه ، فلما أبعد أتت إلى المكان الذي قد أثر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلثم الأرض التي فيها أثر رجله . وفي ذلك أقول قطعة ، أولها :

يلومونني في موطئ خُفِّه خطاً	ولو علموا عاد الذي لام يحسُدُ
فيأهل أرض لا تجود سحابها	خذوا بوصاتي تستقلوا وتحمدوا
خذوا من تراب فيه موضع وطنه	وأضمن أن المحل عنكم يبعد
فكل تراب واقع فيه رجله	فذاك صعيد طيب ليس يجحد
كذلك فعل السامري وقد بدا	لعينه من جبريل أثر مجدد
فصير جوف العجل من ذلك الثرى	فقام له منه خوار ممدد

وأقول :

لقد بورك أرض بها أنت قاطنٌ وبورك من فيها وحل بها السعدُ
فأحجارها دُرٌّ وسعدانها وُردٌ وأموها شُهد وتربها ندٌ
ومن القنوع الرضا بزار الطيف ، وتسليم الخيال . وهذا إنما يحدث عن
ذكر لا يفارق ، وعهد لا يحول ، وفكر لا ينقضي . فإذا نامت العيون وهذأت
الحركات سرى الطيف . وفي ذلك أقول :

زار الخيال فتى طالت صباهه	على احتفاظ من الحراس والحفظه
فبت في ليلتي جذلان مُبتهجاً	ولذة الطيف تُدسى لذّة اليقظه

وأقول :

أتى طيف ناعم مضجعي بعد هداة	وليل سلطان وظل ممدد
وعهدى بها تحت الثراب مُقيمة	وجاءت كما قد كنت من قبل أعهد

فَعُدْنَا كَمَا كُنَّا وَعَادَ زَمَانُنَا كَمَا قَدْ عَهَدْنَا قَبْلُ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
وللشعراء في علة مزار الطيف أقاويل بديعة بعيدة المرمى، مُخترعة، كلُّ سبق
إلى معني من المعاني، فأبو إسحاق بن سيار النظام رأس المعتزلة جعل علة مزار
الطيف خوف الأرواح من الرقيب المرقب، على بهاء الأبدان. وأبو تمام حبيب
ابن أوس الطائي جعل علته أن نكاح الطيف لا يفسد الحب ونكاح الحقيقة
يفسده. والبُحترى جعل علة إقباله استضاءته بنار وجوده، وعلة زواله خوف
الغرق في دموعه. وأنا أقول من غير أن أمثل شعري بأشعارهم، فلهم فضل
التقدم والسابقة وإنما نحن لاقطون وهم الحاصدون، ولكن اقتداء بهم وجرياً
في ميدانهم وتتبعاً لطريقهم التي نهجوا وأوضحوا، أحياناً بيّنت فيها مزار
الطيف مقطعة:

أغارُ عليك من إدراك طرْفِي وأشفق أن يُذِيبك لمس كَفِيٍّ
فأمتنع اللقاء حذارَ هذا وأعتمد التلاقي حين أغني
فروحي إن أنم بك ذو أنفِرادٍ من الأعضاء مُستترٌ ونحفي
ووصل الروح أطفُ فيك وقعاً من الجسم المواصل ألف ضعِف
وحال المزور في المنام ينقسم أقساماً أربعة: أحدهما مُحِب مهجور قد تطاول
غمه، ثم رأى في هجمته أن حبيبه وصله فسُر بذلك وأبتهج، ثم استيقظ فأسِف
وتلهف حيث علم أن ما كان فيه أمانى النفس وحديثها. وفي ذلك أقول:
أنت في مَشْرِقِ النهار بِخَيْلٍ وإذا الليلُ جُنَّ كُنْتَ كَرِيماً
تجعل الشَّمْسُ منك لى عوضاً هَيَّ هاتِ ماذا الفِعالُ منك قَويماً
زارني طيفُك البعيدُ فيأتِي واصلاً لى وعائداً وَندِيماً
غير أني منعَتني من تمام العِيَدِ ش لكن أبحت لى التَّشْمِيماً
فكأني من أهل الأعراف لا الفِرِّ دوس دارِي ولا أخاف الجَحِيماً
والثاني مُحِب مواصل مُشفق من تغَيُّر يقع، قد رأى في وَسَنِهِ أن حبيبه

يهجره فاهتم لذلك همًا شديدًا ، ثم هب من نومه فعلم أن ذلك باطل وبعض وساوس الإشفاق .

والثالث مُحِب داني الديار يرى أن التناثني قد فدحه ، فيكثرث ويوجل ، ثم ينتبه فيذهب ما به ويعود فَرِحًا . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

رَأَيْتُكَ فِي نَوْمِي كَأَنَّكَ رَاحِلٌ وَقُمْنَا إِلَى التَّوْدِيعِ وَالدَّمْعِ هَامِلِ
وَزَالَ السَّكْرَى عَنِّي وَأَنْتَ مُعَانِقِي وَغَمِّي إِذْ عَايَنْتُ ذَلِكَ زَائِلِ
فَجَدَدْتَ تَعْنِيقًا وَضَمًّا كَأَنِّي عَلَيْكَ مِنَ الْبَيْنِ الْمُفَرَّقِ وَاجِلِ

والرابع مُحِب نائي المزار ، يرى أن المزار قد دنا ، والمنازل قد تصاقبت ، فيرتاح ويأنس إلى فقد الأسي ، ثم يقوم من سنته فيرى أن ذلك غير صحيح ، فيعود إلى أشد ما كان فيه من النغم ، وقد جعلت في بعض قولي علة النوم الطمع في طيف الخيال ، فقلت :

طَافَ الْخِيَالُ عَلَى مُسْتَهْتَرٍ كَلِيفٍ لَوْلَا أُرْتِقَابُ مَزَارِ الطَّيِّفِ لَمْ يَنَمِ
لَا تَعَجَّبُوا إِذْ سَرَى وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ فَنُورُهُ مُوَهَّبٌ فِي الْأَرْضِ لِلْظُّلَمِ
وَمِنَ الْقَنُوعِ أَنْ يَقْنَعَ الْمُحِبُّ بِالنَّظَرِ إِلَى الْجُدْرَانِ وَرُؤْيَا الْحَيَّطَانِ الَّتِي تَحْتَوِي
عَلَى مَنْ يُحِبُّ ، وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ هَذِهِ صِفَتَهُ . وَلَقَدْ حَدَّثَنِي أَبُو الْوَلِيدِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ
ابْنِ إِسْحَاقَ الْخَازِنِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ رَجُلٍ جَلِيلٍ ، أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ بِمَثَلِ هَذَا .
وَمِنَ الْقَنُوعِ أَنْ يَرْتَاحَ الْمُحِبُّ ، إِلَى أَنْ يَرَى مَنْ رَأَى مُحْبُوبَهُ وَيَأْنَسَ بِهِ وَمَنْ
آتَى مِنْ بِلَادِهِ ، وَهَذَا كَثِيرٌ . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

تَوَحَّشَ مِنْ سَكَاتِهِ فَكَأَنَّهُمْ مَسَاكِنُ عَادٍ أَعَقَبَتْهُ ثَمُودُ
وَمَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ أَيْبَاتٌ لِي ، مُوجِبَهَا أَنِّي تَنَزَّهْتُ أَنَا وَجَمَاعَةٌ مِنْ
إِخْوَانِي مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالشَّرَفِ إِلَى بَسْتَانٍ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِنَا ، فُجِّلْنَا سَاعَةً ثُمَّ
أَفْضَى بِنَا الْقُنُودَ إِلَى مَكَانٍ دُونَهُ يُتَمَنَّى ، فَتَمَدَّدْنَا فِي رِيَاضٍ أَرِيضَةٍ ، وَأَرْضٍ عَرِيضَةٍ ؛
لِلْبَصَرِ فِيهَا مُنْفَسَحٌ ، وَلِلنَّفْسِ لَدَيْهَا مَسْرَحٌ ؛ بَيْنَ جَدَاوِلٍ تَطَرَّدُ كَأَبَارِيقِ اللَّجَيْنِ .

وأطيار تغرّد بألحان تَزرى بما أبدعه معبد والغريز ، وثمار مهدّلة قد ذلّت
للأيدى ودنت للمتناول ، وظلال مظلة تُلَاحظنا الشمس من بينها فتصوّر بين
أيدينا كرقاع الشّطرنج والثياب المدبّجة ، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة ،
وأنهار متدققة تنساب كبُطون الحيات لها خير يقوم ويهدأ ، ونواوير مُوثقة
مختلفة الألوان تُصنّفها الرياح الطيبة النسيم ، وهواء سَجَسَج ، وأخلاق جُلّاس
تفوق كل هذا ، في يوم ربيعيّ ذى شمس ظليلة ، تارة يُعطيها الغيم الرقيق والمُزن
اللطيف ، وتارة تتجلّى ، فهي كالعذراء الخفيرة والخريذة الخجلة تتراءى لعاشقها
من بين الأستار ثم تعيب فيها ، حذر عين مراقبة . وكان بعضنا مُطرقاً كأنه
يحادث أخرى ، وذلك لسرّ كان له ، فعُرّض لى بذلك ، وتداعبنا حيناً فكَلّفت
أن أقول على لسانه شيئاً في ذلك ، فقلتُ بديهة ، وما كتبوها إلا من تذكّرها
بعد انصرافنا ، وهى :

ولما تروّحنا بأكناف روضةٍ	مُهَدّلة الأفنان في ثُربها الندى
وقد ضحكت أنوارها وتضوّعت	أساورها في ظلّ فيء ممدّد
وأبدت لنا الأطيار حُسن صَريفها	فمن بين شاكٍ شجّوه ومُغرّد
وللماء فيما بيننا مُتصرّف	وللعين مُرتاد هناك وللبيد
وما شئت من أخلاق أروع ماجدٍ	كريم السجايا للفخار مُشيد
تُنغّص عندي كلّ ما قد وصفته	ولم يهنئ إذ غاب عني سيدي
فياليتني في السّجن وهو مُعانق	وأنتم معاً في قصر دار المجدد
فمن رام منا أن يُبدّل حاله	بحال أخيه أو بملكٍ مخلّد
فلا عاش إلا في شقاء ونكبة	ولا زال في بُؤسٍ وخِزى مُردّد

فقال هو ومن حضر : آمين آمين . وهذه الوجوه التي عدّدتُ وأوردتُ في
حقائق القناعة هى الموجودة في أهل المودة ، بلا تزيد ولا إعياء .
وللشعراء فنٌّ من الفُنوع أرادوا فيه إظهارَ غرضهم وإبانة أفتقارهم على المعاني

الغامضة والمرامى البعيدة ، وكلُّ قال على قدر قوّة طبعه ، إلا أنه تحكّم باللسان وتشدّق في الكلام واستطال بالبيان ، وهو غير صحيح في الأصل .
فمنهم من قنع بأن السماء تُظله هو ومحبو به والأرض تُقلها . ومنهم من قنع بأستوائهما في إحاطة الليل والنهار بهما ، وأشبه هذا . وكلُّ مُبادرٍ إلى احتواء الغاية في الاستقصاء ، وإحراز قصب السبق في التدقيق . ولى في هذا المعنى قول لا يمكن لمتعقب أن يجد بعده مُتناولا ، ولا وراءه مكاناً ، مع تبين علة قرب المسافة البعيدة ، وهو :

وقالوا بعيدٌ قلتُ حسبي بأنه معى في زمان لا يطيق محيداً
تمرّ على الشمس مثل مرورها به كلّ يوم يستنير جديداً
فمن ليس بيني في المسير وبينه سوى قطع يوم هل يكون بعيداً
وعلم إله الخلق يجمعنا معاً كفى ذا التدانى ما أريد مزيداً

فبينت كما ترى أنى قانع بالأجتماع مع من أحب في علم الله ، الذى السموات والأفلاك والعوالم كلها وجميع الموجودات لا تنفصل منه ولا تتجزأ فيه ولا يشذ عنه منها شيء ، ثم أقتصرت من علم الله تعالى على أنه في زمان ، وهذا أعم مما قاله غيرى في إحاطة الليل والنهار ، وإن كان الظاهر واحداً في البادى إلى السامع ؛ لأن كل الحلوقات واقعة تحت الزمان ، وإنما الزمان أسم موضوع لمرور الساعات وقطع الفلك وحرركاته وأجرامه ، والليل والنهار متولدان عن طلوع الشمس وغروبها ، وهما متناهيان في بعض العالم الأعلى ، وليس هكذا الزمان ، فإنهما بعض الزمان . وإن كان لبعض الفلاسفة قول إن الظل متماد ، فهذا يخطئه العيان ، وعِلل الردّ عليه بينة ليس هذا موضعها ، ثم بينت أنه وإن كان في أقصى المعمور من المشرق وأنا في أقصى المعمور من المغرب ، وهذا طول السكنى ، فليس بيني وبينه إلا مسافة يوم ؛ إذ الشمس تبدو في أول النهار في أول المشرق وتغرب في آخر النهار في آخر المغرب .

ومن القنوع فصل أورده وأستعيز بالله منه ومن أهله ، وأحمد على ما عرّف نفوسنا من منافرتة ، وهو أن يضل العقلُ جُملةً ، ويُفسد القرينة ، ويُتلف التمييز . ويهون الصعب ، ويذهب الغيرة ، ويُعدم الأنفة ، فيرضى الإنسان بالمشاركة فيميح . وقد عَرَضَ هذا القوم . أعاذنا الله من البلاء . وهذا لا يصح إلا مع كُليّة في الطبع ، وسقوط من العقل الذي هو عيار على ما تحتة ، وضعف حسن . ويؤيد هذا كله حُبٌّ شديدٌ مُعمٍ . فإذا اجتمعت هذه الأشياء وتلاحقت بمزاج الطبائع ودُخول بعضها في بعض نتج بينهما هذا الطبع الخسيس ، وتوالت هذه الصفة الرذلة ، وقام منها هذا الفعل المذخور القبيح ، وأما رجلٌ معه أقل همة وأيسر مروة فهذا منه أبعد من الثريا ولو مات وجداً وتقطع حُبّاً ، وفي ذلك أقول زارياً على بعض المساحين في هذا الفصل :

رَأَيْتُكَ رَحَبَ الصَّدْرِ تَرْضَى بِمَا أَتَى وَأَفْضَلَ شَيْءٍ أَنْ تَلِينَ وَتَسْمَحِي
فَحُظُّكَ مِنْ بَعْضِ السَّوَانِي مُفَضَّلٌ عَلَى أَنْ يَحْزُونَ الْمَلِكُ مِنْ أَصْلَهِ الرَّحَى
وَعُضْوٌ بَعِيرٌ فِيهِ فِي الْوِزْنِ ضِعْفٌ مَا تُقَدِّرُهُ فِي الْجَدْيِ فَاعِصِ الَّذِي لَهَا
وَلَعَبُ الَّذِي تَهْوَى بِسَيْفَيْنِ مُعْجَبٌ فَكُنْ نَاحِيًا فِي نَحْوِهِ كَيْفَا نَحَا

باب الضنى

ولا بد لكل محب صادق المودة ممنوع الوصل ، إمّا ببين وإمّا بهجر وإمّا بكتمان واقعٍ لمعني ، من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والنحول ، وربما أضجعه ذلك . وهذا الأمر كثير جداً موجود أبداً ، والأعراض الواقعة من المحبة غيرُ العلل الواقعة من هجرات العلل ، ويميزها الطبيبُ الحاذق والمتفرّس الناقد . وفي ذلك أقول :

يَقُولُ لِي الطَّبِيبُ بِغَيْرِ عِلْمٍ تَدَاوٍ فَأَنْتَ يَا هَذَا عَلِيلٌ
وَدَائِي لَيْسَ يَدْرِيهِ سَوَائِي وَرَبُّ قَادِرٌ مَلِكٌ جَلِيلٌ
أَأَكْتُمُهُ وَيَكْشِفُهُ شَهِيْقٌ يُلَازِمُنِي وَإِطْرَاقُ طَوِيلٌ

ووجهٌ شَاهداتُ الحُزنِ فيه وجِسْمٌ كَالخيالِ ضَنِّ نَحِيلِ
 وأُثبتُ ما يكونُ الأمرُ يوماً بلا شكٍّ إذا صَحَّ الدليلُ
 فقلتُ له أَيْنَ عَنِّي قليلاً فلا واللهِ تَعْرِفُ ما تقولُ
 فقال أرى نُحولاً زادَ جدًّا وعلَّتكَ التي تشكو ذُبُولِ
 فقلتُ له الذُّبُولُ تَعَلَّ مِنْهُ الـ جَوَارِحُ وهى تُحْمَى تَسْتَحِيلُ
 وما أَشكو لعمري اللهُ حُمَى وإنَّ الحَرََّ في جِسمي قليلُ
 فقال أرى التَّفاناً وأُرتقَاباً وأفكاراً وَصَمْتاً لا يَزُولُ
 وأحسبُ أَنها السُّوداءُ فأنظرُ لِنَفْسِكَ إِنها عَرَضٌ ثَقِيلُ
 فقلتُ له كَلَامُكَ ذا مُحالُ فما للدمعِ مِن عيني يَسِيلُ
 فأطرقَ باهتاً ممّا رآه ألا في مِثْلِ ذا بُهتِ النَّبِيلِ
 فقلتُ له دوائِي مِنْهُ دائِي ألا في مِثْلِ ذا ضَلَّتْ عُقُولُ
 وشاهد ما أقولُ يَرى عياناً فُروعُ النَّبتِ إنْ عُكستْ أَصُولُ
 وترِياقُ الأفاعي ليسَ شيءُ سِوَاهُ يَبْرءُ ما لَدَغْتَ كَفِيلُ

وحدثني أبو بكر محمد بن بقيّ الحجري ، وكان حكيماً الطبع عاقلاً فهِيمًا ،
 عن رجل من شيوخنا لا يمكن ذكره ، أنه كان ببغداد في خانٍ من
 خاناتها فرأى أُنثى لوكيلة الخان فأحبها وتزوجها ، فلما خلاها نظرت إليه
 وكانت بكراً ، وهو قد تكشف لبعض حاجته ، فراعها كبر أيره ، فقررت إلى
 أمها وتفادت منه . فرام بها كُلَّ من حواليا أن تردَّ إليه ، فأبت وكادت
 أن تموت ، ففارقها ثم ندم ، ورام أن يُراجعها فلم يُمكنه ، واستعان بالأبهرى
 وغيره . فلم يقدر أحد منهم على حيلة في أمره ، فاختلط عقله وأقام في المارستان
 يُعاني مدة طويلة حتى نَفِسه وسَلاً وما كاد ، ولقد كان إذا ذكرها
 يتنفَّس الصُّعداء .

وقد تقدّم في أشعاري المذكورة في هذه الرسالة : من صفة النحول مُفرّقا

ما استغنيتُ به عن أن أذكر هنا من سواها شيئاً خوفَ الإطالة . والله المعين
والمستعان .

وربما تَرَقَّتْ إلى أن يُغلب المرء على عقله ويحال بينه وبين ذهنه فيوسوس .
نُهير :

وإني لأعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القوَّاد ،
وقد بلغ بها حُب فتى من إخواني جدًّا من أنباء الكتَّاب مبلغَ هيجان المرار
الأسود ، وكادت تختلط . وأشتهر الأمر وشاع جدًّا حتى علمناه وعلمه الأباعد ،
إلى أن تُدوركت بالعلاج ، وهذا إنما يتولَّد عن إدمان الفكر ، فإذا غلبت
الفكرة وتمكن الخلط التداوى خرج الأمر عن حدِّ الحُب إلى حدِّ الوله
والجنون ، وإذا أغفل التداوى فى الأول إلى المعاناة قوى جدًّا ولم يوجد له دواء
سوى الوصال . ومن بعض ما كتبتُ إليه قطعة ، منها :

قد سلبت القوَّاد منها اختلاسا	أى خلق يعيش دون قوَّاد
فأغشها بالوصل تحيى شريفا	وتفرَّ بالثواب يومَ المعاد
وأراها تعتاض إن دام هذا	من خلايلها حلى الأقياد
أنت حقًّا مُتيمِّمُ الشَّمس حتى	عشقها بين ذا الورى لك بادى

نُهير :

وحدَّثنى جعفر مولى أحمد بن محمد بن جدير ، المعروف بالملينى : أن سبب
أختلاط مروان بن يحيى بن أحمد بن جدير وذهاب عقله أعتلاقه بجارية لأخيه ،
فنعما منه وباعها لغيره ، وما كان فى إخوته مثله ولا أتم أدبا منه .

وأخبرنى أبو العافية مولى محمد بن عباس بن أبى عبدة ، أن سبب جنون يحيى
ابن أحمد بن عباس بن أبى عبدة بيع جارية له كان يجد بها وجداً شديداً ،
كانت أمه أباعتها وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريَّات .

فهذان رجلان جليلان مشهوران فقدَّا عقولهما وأختلطا وصارا فى القيود

والأغلال ، فأما مروان فأصابته ضربة مُخْطئة يوم دخول البربر قُرْطبة وانتهائهم إليها ، فتوفي رحمه الله . وأما يحيى بن محمد فهو حيٌّ على حالته المذكورة في حين كتابتي لرسالتى هذه ، وقد رأيته أنا مراراً وجالسته في القصر قبل أن يمتحن بهذه المحنة . وكان أستاذى وأستاذه الفقيه أبو الخيار اللُّغوى . وكان يحيى لعمري حُلُوًّا من الفتيان نبيلًا .

وأما من دون هذه الطبقة فقد رأينا منهم كثيرا ، ولكن لم نُسَمِّهم لخفاءهم ، وهذه درجة إذا بلغ المشغوف إليها فقد أنبت الرجاء وأنصرم الطمع ، فلا دواء له بالوصل ولا بغيره ، إذ قد استحك الفساد في الدماغ ، وتَلَفَّت المعرفة ، وتغلبت الآفة . أعاذنا الله من البلاء بطوِّله ، وكفانا النقم بمنَّه .

باب السلو

وقد علمنا أن كلَّ ماله أول فلا بُدُّ له من آخر ، حاشى نعيم الله عزَّ وجل ، الجنة لأوليائه وعذابه بالنار لأعدائه . وأما أعراض الدنيا فناذرة فانية وزائلة مضمحلة ، وعاقبة كلِّ حُبٍ إلى أحد أمرين : إمَّا اخترام منية ، وإمَّا سلوٌ حادث . وقد نجد النفس تغلب عليها بعض القوى المصرفة معها في الجسد ، فكما نجد نفساً ترفض الراحة والملاذ للعمل في طاعة الله تعالى وللرياء في الدنيا ، حتى تشتهر بالزهد ، فكذلك نجد نفساً تنصرف عن الرغبة في لقاء شكلها للألفة المستحكمة المفاخرة للغدر ، أو استمرار سوء المكافأة في الضمير ، وهذا أصح السلو . وما كان من غير هذين الشيئين فليس إلا مذموماً . والسلو المتولد من الهجر وطوله إنما هو كالإياس يدخل على النفس من بلوغها إلى أملها ، فيفتر نزاعها ولا تقوى رغبها . ولى في ذم السلو قصيدة ، منها :

إذا مارَنت فالحيُّ مَيِّتٌ بلَحْظها وإن نَطَقْتَ قُلْتَ السلام رِطَابُ
كَأَنَّ الهوى ضيفٌ أَلَمٌ بَمُهجتي فلحمتى طعام والنَّجيع شرابُ

ومنها :

صَبُورَ عَلَى الْأَرْزَمِ الَّذِي عَزَزَ خَلْقَهُ وَلَوْ أَمْطَرَتْهُ بِالْحَرِيقِ سَحَابُ
جَزْوَاعاً مِنَ الرَّاحَاتِ إِنْ أَتَتْجَتْ لَهُ نُحُولاً وَفِي بَعْضِ النَّعِيمِ عَذَابُ
وَالسَّلَافِ فِي التَّجَرُّبَةِ الْجَمِيلَةِ يَنْقَسِمُ قَسَمَيْنِ : سَلَوٌ طَبِيعِي ، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالنَّسِيَانِ .
يُخَلِّوْهُ بِالْقَلْبِ وَيَقْرَعْ بِهِ الْبَالُ ، وَيَكُونُ الْإِنْسَانُ كَأَنَّهُ لَمْ يَحْبُ قَطْ . وَهَذَا الْقَسْمُ
رَبْمَا لِحَقِّ صَاحِبِهِ الذِّمِّ لِأَنَّهُ حَادَثٌ عَنْ أَخْلَاقٍ مَذْمُومَةٍ ، وَعَنْ أَسْبَابٍ غَيْرِ مُوجِبَةٍ
اسْتِحْقَاقِ النَّسِيَانِ . وَسَتَأْتِي مُبَيَّنَّةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَرَبْمَا لَمْ تَلْحَقْهُ اللَّائِمَةُ لِعَذْرِ
صَحِيحٍ . وَالثَّانِي سَلَوٌ تَطْبِيعِي ، قَهَرَ النَّفْسَ ، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالتَّصْبِرِ ، فَتَرَى الْمَرْءَ
يُظْهِرُ التَّجَلُّدَ وَفِي قَلْبِهِ أَشَدُّ لَدَغاً مِنْ وَخَزِ الْإِشْفَى ، وَلَكِنَّهُ يَرَى بَعْضَ الشَّرِّ
أَهْوَنَ مِنْ بَعْضِ ، أَوْ يَحَاسِبُ نَفْسَهُ بِحُجَّةٍ لَا تُصَرِّفُ وَلَا تُكْسِرُ . وَهَذَا قَسْمُ
لَا يُذِمُّ آتِيَهُ ، وَلَا يِلَامُ فَاعِلَهُ ، لِأَنَّهُ لَا يَحْدُثُ إِلَّا عَنِ عَظِيمَةٍ ، وَلَا يَقَعُ إِلَّا عَنِ
فَادِحَةٍ ، إِمَّا لِسَبَبٍ لَا يَصْبِرُ عَلَى مِثْلِهِ الْأَحْرَارُ ، وَإِمَّا لَخَطْبٍ لَا مَرَدَّ لَهُ تَجْرَى بِهِ
الْأَقْدَارُ . وَكَفَاكَ مِنَ الْمَوْصُوفِ بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ بِنَاسٍ لَكِنَّهُ ذَا كَرٍّ ، وَذُو حَنِينٍ وَاقِفٍ ،
عَلَى الْعَهْدِ ، وَمَتَجَرَّعٍ مَرَارَاتِ الصَّبْرِ ، وَالْفَرْقِ الْعَامِي بَيْنَ الْمُتَصَبِّرِ وَالنَّاسِي ، أَنَّكَ
تَرَى الْمُتَصَبِّرَ وَإِنْ أَبَدَى غَايَةَ الْجَلَدِ وَأَظْهَرَ سَبَبَ مَحْبُوبِهِ وَالتَّحَمُّلِ عَلَيْهِ ، يَحْتَمِلُ
ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ قِطْعَةً ، مِنْهَا :

دَعُونِي وَسَيِّئِي لِلْحَبِيبِ فَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ أَبْدَى الْهَجْرَ لَسْتُ مُعَادِيَاً
وَلَكِنْ سَيِّئِي لِلْحَبِيبِ كَقَوْلِهِمْ أَجَادَ فَلَقَاهُ الْإِلَهُ الدَّوَاهِيَا
وَالنَّاسِي ضِدُّ هَذَا ، وَكُلُّ هَذَا فَعَلَى قَدْرِ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ وَإِجَابَتِهَا وَأَمْتِنَاعِهَا
وَقُوَّةِ تَمَكُّنِ الْحُبِّ مِنَ الْقَلْبِ أَوْ ضَعْفِهِ ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ ، وَسَمِيتُ السَّالِي فِيهِ
الْمُتَصَبِّرَ ، قِطْعَةً مِنْهَا :

نَاسِي الْأَحِبَّةِ غَيْرُ مَنْ يَسْلُوهُمْ حُكْمُ الْمُقْصِرِّ غَيْرِ حُكْمِ الْمُقْصِرِ
مَا قَاصِرٌ لِلنَّفْسِ غَيْرَ مُجِيبِهَا مَا الصَّابِرُ الْمَطْبُوعُ كَالْمُتَصَبِّرِ
وَالْأَسْبَلُ الْمَوْجِبَةُ لِلْسَّلَا الْمُنْقَسِمِ هَذَيْنِ الْقَسْمَيْنِ كَثِيرَةٌ ، وَعَلَى حَسَبِهَا وَبِمَقْدَارِ

الواقع منها يُعذر السالى ويُذم .

فمنها المَلَل ، وقد قدمنا الكلام عليه ، وإن كان سُلوه عن مَلَل فليس حُبُه حقيقة ، والمتسم به صاحبُ دعوى زائفة ، وإنما هو طالب لذة ومُبادر شهوة ، والسالى من هذا الوجه ناسٌ مذموم .

ومنها الاستبدال ، وهو وإن كان يُشبه المَلَل ففيه معنى زائد ، وهو بذلك المعنى أقبح من الأول وصاحبه أحق بالذم .

ومنها حَياء مرَكَّب يكون فى المُحب يحول بينه وبين التعريض بما يجد ، فيتطاول الأمر ، وتتراخى المدة ، ويبلى جديد المودة ، ويحدث السلو . وهذا وجه إن كان السالى عنه ناسياً فليس بمنصف ، إذ منه جاء سببُ الحرمان ، وإن كان متصبراً فليس بملوم ، إذ أثر الحياء على لذة نفسه . وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الحياء من الإيمان والبذاء من النفاق .

وحدثنا أحمد بن محمد عن أحمد بن مطرف عن عبد الله بن يحيى عن أبيه عن مالك عن سلمة بن صفوان الزرقى عن زيد بن طاححة بن رُكانة يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء .

فهذه الأسباب الثلاثة أصلها من المُحب وأبتدأوها من قبله ، والدم لاصق به فى نسيانه لمن يُحِب .

ثم منها أسباب أربعة هُن من قبل المحبوب وأصلها عنده ، فمنها : الهجر ، وقد مرّ تفسير وجوهه . ولا بد لنا أن نورد منه شيئاً فى هذا الباب يوافقه ، والهجر إذا تطاول وكثر العتاب واتصلت المفارقة يكون باباً إلى السلو ، وليس مَنْ وصلك ثم قطعك لغيرك من باب الهجر فى شيء ، لأنه الغدر الصحيح ، ولا مَنْ مَال إلى غيرك دون أن يتقدّم لك معه صلةٌ من الهجر أيضاً فى شيء ، إنما ذاك هو النِّفَار . وسيقع الكلام فى هذين الفصلين بعد هذا إن شاء الله تعالى .

لكن الهجر من وصلك ثم قطعك لتثقل واش ، أولذنب واقع ، أولشيء قام
في النفس ، ولم يميل إلا سواك ولا أقام أحداً غيرك مقامك . والناسي في هذا
الفصل من المحبين ملوم دون سائر الأسباب الواقعة من المحبوب ؛ لأنه لا تقع حالة
تقيم العذر في نسيانه ، وإنما هو راغب عن وصلك ، وهو شيء لا يلزمه . وقد تقدم من
أدلة الوصال وحق أيامه ، ما يلزم التذكر ويوجب عهد الألفة ، ولكن السالى على
جهة التصبر والتجلد ها هنا معذور ، إذا رأى الهجو متادياً ولم ير للوصال علامة
ولا للمراجعة دلالة . وقد استجاز كثير من الناس أن يُسموا هذا المعنى عذراً ، إذ
ظاهرهما واحد ، ولكن علتيهما مختلفتان . فلذلك فرقنا بينهما في الحقيقة . وأقول
في ذلك شعراً ، منه :

فكونوا كمن لم أذرق قط فإنتى كآخر لم تدروا ولم تصلوه
أنا كالصدى ما قال كلُّ أجبيه فما شئتموه اليوم فاعتمدوه
وأقول أيضاً قطعةً ، ثلاثة أبيات قلتها وأنا نائم ، وأستيقظت فأضفت إليها
البيت الرابع :

ألا لله دهرٌ كنت فيه أعزُّ على من روى وأهلى
فما برحت يدُ الهجران حتى طواك بنائها طيَّ السجل
سقاني الصبرَ هجرٌ كما قد سقاني الحبَّ وصلكم بسجل
وجدتُ الوصل أصلَ الوجد حقاً وطولُ الهجر أصلاً للتسلى
وأقول أيضاً قطعة :

لو قيل لي من قبل ذا أن سوف تسأل من تود
خلقت ألف قسامة لا كان ذا أبد الأبد
وإذا طویلُ الهجر ما معه من السلوات بد
لله هجرٌ إنه ساع لبرئ مجتهد
فالآن أعجب للسد و كنت أعجب للجد

وأرى هواء كَجَمْرَةٍ تحت الرماد لها مَدَد
وأقول :

كانت جهنم في الحَشَى من حُبِّكم فلقَد أراها نارَ إبراهيم
ثم الأسباب الثلاثة الباقية التي هي من قِبَل المحبوب ، فالمتصبر من الناس
فيها غير مذموم . لما سُئِرَده إن شاء الله في كل فصل منها .
فمنها نِفار يكون في المَحْبُوب وأنزواء قاطع للأطماع .

مُهر :

وإني لأخبر عني أني ألفت في أيام صباى ألفَةَ المَحَبَّة جاريةً نشأت في دارنا
وكانت في ذلك الوقت بنتَ ستة عشرَ عاماً ؛ وكانت غايةً في حُسن وجهها
وعقلها وغناها وطهارتها وخَفَرها ودمائتها ، عديمةَ الهزل ؛ منيعةَ البذل ، بديعة
البشر ، مُسَبِّلةَ السر ؛ فقيدةَ الذام ، قليلةَ الكلام ؛ مغضوضةَ البصر ، شديدة
الحذر ؛ نقية من العيوب ، دائمة القطوب ؛ حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ؛
مليحة الصدود ، رزينة العقود ؛ كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، لا توجه الأراجي
نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل
القلوب ، وحالها طارد من أمها . تزدان في المنع والبخل ، ما لا يزدان غيرها
بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد في أمرها غير راغبة في اللهو ، على أنها كانت
تحسن العود إحساناً جيداً . فجنحت إليها وأحبتها حباً مفرطاً شديداً ، فسعيت
عامين أو نحوهما أن تجميني بكلمة وأسمع من فيها لفظة ، غير ما يقع في الحديث
الظاهر إلى كل سامع ، بأبلغ السعَى فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة ، فلم يدر
بمُصْطَنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دُور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا
ودخلة أخى رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث ، بنا من خَدَمنا ،
من يخف موضعه ويلطف محله ، فلبث صدرأ من النهار ثم تنقلن إلى قصة
كانت في دارنا مشرفة على بُستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة

وفحوصها^(١)، مفتحة الأبواب . فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأباينهن ،
فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقرها متعرّضاً للدنو
منها ، فها هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف
الحركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل
من الزوال إلى غيره . وكانت قد علمت كلّني بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن
فيه ، لأنهن كن عدداً كثيراً . وإذا كلهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب
الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطّلع من غيرها عليها . واعلم أن قيافة
النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مُدليج في الآثار ثم تزان إلى البستان
فرغب عجائزنا وكرأمننا إلى سيدتها في سماع غنائها ، فأسرتها ، فأخذت العود
وسوته بحقر وخجل لا عهد لي بمثله ، وإب الشيء يتضاعف حسنه في عين
مُستحسنه ، ثم اندفعت نغني بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول :

إني طرّبتُ إلى شمسٍ إذا غرّبت	كانت مغاربُها جوفَ المقاصيرِ
شمسٌ ممثلةٌ في خلقي جارية	كانَ أعطافُها طيُّ الطّواميرِ
ليست من الإنس إلا في مُناسبة	ولا من الجن إلا في التّصاويرِ
فالوجه جوهرة والجسم عبّرة	والريح عبّرة والكل من نور
كأنها حين تخطو في مجاسدها	تخطو على البيض أوحد القواريرِ

فلعمري لكان المِضْراب إنما يقع على قلبي ، وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه
إلى يوم مفارقتي الدنيا . وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع
كلامها ، وفي ذلك أقول :

لا تكلمها على النّفار ومنع	واصل ما هذا لها بنكير
هل يكون الهلال غير بعيد	أو يكون الغزال غير نفور

وأقول :

(١) فحوصها : دورها .

منعتِ جالَ وجهك مُقلَّتِيَا ولفظُك قد ضننتِ به عليَا
أراكِ نَدَرْتِ للرحمن صَوْمًا فلستُ تكلمين اليوم حيَا
وقد غنيتِ للعباس شعراً هنيئاً ذا لعباس هنيَا
فلو يلقاك عباس لأضحى لفوزِ قانيا وبكم شَحِيحَا

ثم أُنتقل أبي رحمه الله من دورنا الحديثة بالجانب الشرقى من قرطبة في ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب الغربى من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة . وانتقلت أنا بانتقاله ، وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، ولم تنتقل هي بانتقالنا لأموراً أوجبت ذلك . ثم شغلنا بعدَ قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته ، وامتحننا بالاعتقال والترقيب والإغرام القادح والاستتار ، وأرзمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس ، وخصّصتنا ، إلى أن تُوفى أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة عام اثنتين وأربعمائة . واتصلت بنا تلك الحال بعده إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها . وقد أرتفعت الواعية^(١) ، قائمة في المآتم وسط النساء في جملة البواكى والنوادر . فاقدر أثاراً وجداً دفيناً وحرّكت ساكناً ، وذكرتنى عهداً قديماً وحُباً تليداً ودهراً ماضياً وزمناً عافياً وشهوراً خوالى وأخباراً بوالى ودهوراً فوانى وأياماً قد ذهبت وآثاراً قد دثرت ، وجددت أحزاني وهيجت بلائى ، على أنى كنت في ذلك النهار مرزاً مصاباً من وجوه ، وما كنت نسييت ولكن زاد الشجى وتوقّدت اللوعة وتأكّد الحزن وتضاعف الأسف ، وأستجلب الوجد ما كان منه كامناً فلبّاه مجيباً . فقلت قطعة ، منها :

يُبَكِّى لِمَت مَاتَ وَهُوَ مُكْرَمٌ وَلَلْحَيِّ أُولَى بِالْذَمِّ مَوْعِ الذُّوَارِفِ
فِيَا عَجَبًا مِنْ آسَفٍ لَامَرَى ثَوَى وَمَا هُوَ الْمَقْتُولُ ظَلَمًا بِآسَفِ

(١) الواعية . الصراخ والصوت لا الصارخة

ثم ضرب الدهرُ ضربانه وأجلينا عن منازلنا وتغلب علينا جند البربر ،
فخرجتُ عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعين وغابت عن بصرى بعد تلك
الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر ، ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعين ،
فنزلت على بعض نساينا فرأيتها هنالك ، وما كدت أن أميزها حتى قيل لي هذه
فلانة وقد تغيرت أكثر محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاض
ذلك الماء الذي كان يُرى كالسيف الصقيل والمرأة الهندية ، وذبل ذلك النوار
الذي كان البصر يقصد نحوه متنوراً ، ويرتاد فيه متخيراً ، وينصرف عنه متحيراً .
فلم يبق إلا البعض المنبئ عن السكل ، والخبر الخبز عن الجميع ، وذلك لقلة
أهتبالها بنفسها ، وعدمها الصيانة التي كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلتنا ،
ولتبذرها في الخروج فيما لا بد لها منه مما كانت تُصان وترُفَع عنه قبل ذلك . وإنما
النساء رياحين متى لم تُتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يُهتبل بها استهدمت ، ولذلك
قال من قال : إن حسن الرجال أصدق صدقاً وأثبت أصلاً وأعتق جودة لصبره
على ما لو لقي بعضة وجوه النساء لتغيرت أشد التغير ، مثل المهجير والسموم
والرياح واختلاف الهواء وعدم الكن ، وإني لو نلت منها أقل وصل وأنست
لي بعض الأنس خلوطت طرباً أوملت فرحاً ، ولكن هذا النفار الذي
صبرني وأسلاني .

وهذا الوجه من أسباب السوء صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم ؛ إذ
لم يقع تثبت يوجب الوفاء ، ولا عهد يقتضى المحافظة ، ولا سلف ذمام ، ولا فرط
تصادف يُلام على تضييعه ونسيانه .

ومنها جفاء يكون من المحبوب ، فإذا أفرط فيه وأسرف وصادف من المحب
نفساً لها بعض الأنفة والعزة تسلي ، وإذا كان الجفاء يسيراً منقطعاً أو دائماً أو
كبيراً منقطعاً احتمل وأغضى عليه ، حتى إذا كثر ودام فلا بقاء عليه . ولا يلام
الناسي لمن يُحب في مثل هذا .

ومنها الغدر ، وهو الذى لا يحتمله أحد ، ولا يُغضى عليه كريم ، وهو المسلاة حقاً . ولا يلام السالى عنه على أى وجه كان ناسياً أو مُتصبراً ، بل اللامة لاحقة لمن صبر عليه . ولولا أن القلوب بيد مُقلِّبها لا إله إلا هو ولا يكلف المرء صرف قلبه ولا إحاطة استحسانه ، لولا ذلك لقلت إن المُتصبر فى سلوه مع الغدر يكاد أن يستحق الملامة والتعنيف . ولا أدعى إلى السلو عند الحر النفس وذوى الخفيضة والسرى السجاياء من الغدر ، فما يصبر عليه إلا ذنء المروءة خسيس النفس نذل الهمة ساقط الأنفة ، وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

هَواك فلستُ أقر به غُرور وأنت لكل من يأتى سريرُ
وما إن تصبرين على حبيب فحولك منهم عددٌ كثير
فلو كنت الأمير لما تعاطى لقاءك خوفَ جَمْعهم الأمير
رأيتك كالأمانى ما على من يلم بها ولو كثروا غُرور
ولا عنها لمن يأتى دفاعٌ ولو حُشد الأنام لهم نفير

ثم سبب ثامن ، وهو لا من المحب ولا من المحبوب ، ولكنه من الله تعالى ، وهو اليأس . وفروعه ثلاثة : إما موت ، وإما بين لا يرجى معه أوبة ، وإما عارض يدخل على المتحابين بعلّة الحب التى من أجلها وثق المحبوب فيغيرها . وكل هذه الوجوه من أسباب السلو والتصبر ، وعلى الحب الناسى فى هذا الوجه المنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة من الفضاضة والذم واستحقاق أسم اللوم والغدر غير قليل ، وإن لليأس لعملا فى النفوس عجيباً . وثلجاً لحرّ الاكباد كبيراً . وكل هذه الوجوه المذكورة أولاً وآخراً فالتأنى فيها واجب ، والتربص على أهلها حسن ، فيما يمكن فيه التأنى ويصح لديه التربص ، فإذا انقطعت الأطماع وأنحسمت الآمال فينبذ يقوم العذر .

وللشعراء فنٌّ من الشعر يذمون فيه الباكى على الدّمن ، ويُثنون على المثارى على اللذات . وهذا يدخل فى باب السلو . ولقد أكثر الحسن بن هانئ فى هذا

الباب وافتخر به ، وهو كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح في أشعاره ، تحكماً
بلسانه واقتداراً على القول . وفي مثل هذا أقول شعراً ، منه :

خَلَّ هذا وبادر الدهرَ وأرحل في رياض الرُّبَى مطىَّ الفقار
واحدها بالبديع من نغَمَاتِ الـ مود كما تُحِثُّ بالمزمار
إن خيراً من الوقوف على الداء ر وقوفُ البنان بالأوتار
وبدا الترجسُ البديع كصبِّ حائر الطرف ماثلاً كالمدار
لونه لونُ عاشقٍ مُستهم وهو لاشكَّ هائمٌ بالبهار

ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس لنا طبعاً ، ومعصية الله بشرب الرّاح لنا
خلقاً ، وكساد المهمة لنا صفة ، ولكن حسبنا قول الله تعالى ، ومن أصدق من الله
قيلاً في الشعراء : « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » .
فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم ، ولكنّ شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر
خطأ . وكان سبب هذه الأبيات أن حَفَنِي العامرية ، إحدى كرائم المظفر عبد الملك
ابن أبي عامر ، كَلَفَتْنِي صَنَعَتَهَا فَأَحْبَبْتُهَا ، وكنت أجدها ، ولها فيها صنعة في طريقة
النشيد والبسيط رائقة جداً . ولقد أنشدتها بعض إخواني من أهل الأدب فقال
سروراً بها : يجب أن توضع هذه في جملة عجائب الدنيا .

فجميع فصول هذا الباب كما ترى ثمانية : منها ثلاثة هي من الحب ، اثنان
منها يذم السالي فيهما على كل وجه ، وهما الملل والاستبدال ، وواحد منها يذم
السالي فيه ولا يذم المتصبر ، وهو الحياء كما قدمنا . وأربعة من المحبوب ، منها
واحد يذم الناسي فيه ولا يذم المتصبر ، وهو الهجر الدائم . وثلاثة لا يذم السالي
فيها على أي وجه كان ناسياً أو متصبراً ، وهي النفاق والجفاء والغدر . ووجه ثامن
وهو من قبل الله عز وجل ، وهو اليأس إما بموت أو بين أو آفة تزلزل . والمتصبر
في هذه معذور .

وعنى أخبرك أني جُبلت على طبيعتين لا يهتئني معهما عيش أبداً ، وإني لأبرم

بحيأتي بأجتماعهما وأودّ الثبّت من نفسى أحياناً لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجليهما ، وهما : وفاء لا يشوبه تلوّن قد استوت فيه الحضرة والمغيّب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة التي لم تعرّف بها نفسى عمّا دريته ، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته ، وعزة نفس لا تقرّ على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف مؤثرة للموت عليه . فكل واحد من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها . وإني لأجنى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة ، والتلّوم الذي لا يكاد يطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر وحميت نفسى تصبّرت ، وفي القلب ما فيه . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

لى حلتان أذاقاني الأسى جرّعاً ونعصا عيشتي وأستهلكا جلدي
كلتاها تطبّيني نحو جبلتها كالصيد ينشب بين الذئب والأسد
وفاء صدق فما فارقتُ داميّة فزال حزني عليه آخر الأبد
وعزة لا يحل الضيمُ ساحتها صرامةً فيه بالأموال والولد
ومما يشبه ما نحن فيه ، وإن كان ليس منه ، أن رجلاً من إخواني كنتُ أحلّته من نفسى محلّها ، وأسقطت المؤونة بيني وبينه ، وأعدّته ذخراً وكبّراً ، وكان كثير السمع من كل قائل ، فدبّ ذو النيمة بيني وبينه ، فحاكوا له وأنجح سعيهم عنده ، فانقبض عما كنتُ أعهده . فتربّصت عليه مدة في مثلها أوب الغائب ، ورضى العاتب ، فلم يزد إلا انقباضاً فتركته وحاله .

باب الموت

وربما تزايد الأمر ورقّ الطبع وعظّم الإشفاق فكان سبباً للموت ومفارقة الدنيا ، وقد جاء في الآثار : من عشق فعمّ فمات فهو شهيد . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

فإن أهلك هوّى أهلك شهيداً وإن تمنن بقيتُ قرير عَيْن
روى هذا لنا قومٌ ثقاتٌ ثووا بالصدق عن جرح ومين
ولقد حدّثنى أبو السريّ عمار بن زياد صاحبنا عن يثق به ، أن الكاتب ابن

قرمان أمتحن بمحبة أسلم بن عبد العزيز ، أخى الحاجب هاشم بن عبد العزيز .
وكان أسلم غايةً فى الجمال ، حتى أضجره لما به وأوقعه فى أسباب المنية . وكان
أسلم كثير الإلمام به والزيارة له ولا علم له بأنه أصل دائه ، إلى أن توفى
أسفاً ودفناً (١) .

قال المخبر : فأخبرت أسلم بعد وفاته بسبب علته وموته فتأسف وقال : هلا
أعلمتني ؟ فقلت : ولم ؟ قال : كنت والله أزيد فى صلته وما أكاد أفارقه ، فما على
فى ذلك ضرر . وكان أسلم هذا من أهل الأدب البارع والتفنن ، مع حظ من
الفقه وافر ، وذا بصارة فى الشعر ، وله شعر جيد ، وله معرفة بالأغاني وتصرفها ،
وهو صاحب تأليف فى طرائق غناء زرياب وأخباره ، وهو ديوان عجيب جداً .
وكان أحسن الناس خلقاً وخلقا ، وهو والد أبى الجعد الذى كان ساكناً بالجانب
الغربي من قرطبة .

وأنا أعلم جارية كانت لبعض الرؤساء فعزف عنها لشيء بلغه فى جبهتها لم
يكن يوجب السخط ، فباعها . فجزعت لذلك جزعاً شديداً وما فارقها التحول
والأسف ، ولا بان عن عينها الدمع إلى أن سلت ، وكان ذلك سبب موتها . ولم
تعش بعد خروجها عنه إلا أشهراً ليست بالكثيرة . ولقد أخبرتني عنها امرأة
أثق بها أنها لقيتها وهى قد صارت كالخيال نحولاً ورقة فقالت لها : أحسب
هذا الذى بك من محبتك لفلان ؟ فتنفست الصعداء وقالت : والله لأنسيته أبداً ،
وإن كان جفانى بلا سبب . وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيراً .

وأنا أخبرك عن أبى بكر أخى رحمه الله ، وكان متزوجاً بعاتكة بنت قند ،
صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبى عامر محمد بن عامر ، وكانت التى لا مرمى
وراءها فى جمالها وكريم خلاها ، ولا تأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها . وكانا فى
حد الصبا وتمكّن سلطانه تغضب كل واحد منهما الكلمة التى لا قدر لها ،

فكانا لم يزاالا في تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام ، وكانت قد شفها حُبّه وأضناها الوجد فيه وأحملها شدة كَلَفها به حتى صارت كالخيال المتوسّم دنفاً ، لا يُلبسها من الدنيا شيء ، ولا تُسر من أموالها على عَرَضها وتكاثرها بقليل ولا كثير إذا فاتها اتفاقه معها وسلامته لها . إلى أن توفى أخى رحمه الله في الطاعون الواقع بقرطبة في شهر ذى القعدة سنة إحدى وأربعائة ، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، فما انفكت منذ بان عنها من السّقم الدّخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام في اليوم الذى أكمل هوفيه تحت الأرض عاماً . ولقد أخبرتنى عنها أمها وجميع جوارمها أنها كانت تقول بعده : ما يُقوى صبرى ويُمسك رمقى في الدنيا ساعةً واحدةً بعد وفاته إلا سُروى وتيقنى أنه لا يضمّه وأمرأة مضجع أبداً ، فقد أمنتُ هذا الذى ما كنت أنخوف غيره ، وأعظم آمالى اليوم اللحاق به .

ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وهى كذلك لم يكن لها غيره ، فكان كما قدّرت . غفر الله لها ورضى عنها .

وأما خبر صاحبنا أبى عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن الحسين التميمى ، المعروف بابن الطنبى . فإنه كان رحمه الله كأنه قد خُلِق الحسن على مثاله أو خلق من نفس كل من رآه ، لم أشاهد له مثلاً حسناً وجمالاً وخلقاً وغفة وتصاوفاً وأدباً وفهماً وحلماً ووفاء وسودداً وطهارة وكرماً ودمائة وحلاوة ولبابة وإغضاء وعقلاً ومروءة وديناً ودراية وحِفْظاً للقرآن والحديث والنحو واللغة ، وشاعراً مُفلقاً ، حسن الخط ، و بليغاً مُفَنِّناً ، مع حظ صالح من الكلام والجدل ، وكان من غلمان أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى أستاذى في هذا الشأن ، وكان بينه وبين أبيه اثنا عشر عاماً في السن ، وكنت أنا وهو متقاربين في الأسنان ، وكنا أليفين لا نفترق ، وخِدين لا يجرى الماء بيننا إلا صفاء ، إلى أن ألفت الفتنة جِرائها وأرخت عزاليها ووقع أُنْتهاى جُند البربر منازلنا في الجانب الغربى بقرطبة ونزولهم

فيها ، وكان مسكن أبي عبد الله في الجانب الشرقى ببلاط مُغيث ، وتقلبت بي الأمور إلى الخروج عن قُرطبة وسُكني مدينة المريّة ، فكنا نتهاذى النظم والنثر كثيراً . وآخر ما خاطبني به رسالة في دَرَجها هذه الأبيات :

لَيْتَ شِعْرِي عَنْ حَبْلٍ وَدَكِّهْلٍ يُمِ سَيَّ جَدِيداً لَدَيْ غَيْرِ رَثِيثٍ
وَأَرَانِي أَرَى مُحْيَاكَ يَوْمًا وَأَنَا جِيكَ فِي بَلَاطِ مُغِيثٍ
فَلَوْ أَنَّ الدِّيَارَ يُنْهَضُهَا الشَّوْقُ أَتَاكَ الْبَلَاطُ كَالْمُسْتَغِيثِ
وَلَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ تَسْطِيعُ سَيْرًا سَارَ قَلْبِي إِلَيْكَ سَيْرَ الْحَيْثِ
كُنْ كَمَا شِئْتُ لِي فَإِنِّي مُحِبٌّ لَيْسَ لِي غَيْرُ ذِكْرِكُمْ مِنْ حَدِيثِ
لَكَ عِنْدِي وَإِنْ تَنَاسَيْتَ عَهْدِي فِي صَمِيمِ الْقُودِ غَيْرُ نَكِيثِ
فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ أُنْقَطَعَتْ دَوْلَةُ بَنِي مَرْوَانَ وَقُتِلَ سُلَيْمَانُ الظَّافِرُ أَمِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ وَظَهَرَتْ دَوْلَةُ الطَّالِبِيَّةِ وَبُوعِيَ عَلَى بَنِي حَمُودِ الْحَسَنِيُّ ، الْمُسَمَّى بِالنَّاصِرِ ،
بِالْخِلَافَةِ ، وَتَغَلَّبَ عَلَى قُرْطُبَةٍ وَتَمَلَّكَهَا وَأَسْتَمَرَ فِي قِتَالِهِ إِيَّاهَا بِجُيُوشِ الْمُتَغَلِّبِينَ وَالثَّوَارِ
فِي أَقْطَارِ الْأَنْدَلُسِ . وَفِي إِثْرِ ذَلِكَ نَكَبْنِي خَيْرَانَ صَاحِبُ الْمَرْيَةِ ، إِذْ نَقَلَ إِلَيْهِ مِنْ
لَمِيقِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الْبَاغِينَ — وَقَدْ انْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ — عَنِّي وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ
صَاحِبِي أَنَا نَسْعَى فِي الْقِيَامِ بِدَعْوَةِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، فَأَعْتَقَلْنَا عِنْدَ نَفْسِهِ أَشْهُرًا ، ثُمَّ
أَخْرَجْنَا عَلَى جِهَةِ التَّغْرِيْبِ ، فَصَرْنَا إِلَى حَصْنِ الْقَصْرِ . وَلَقِينَا صَاحِبَهُ أَبُو الْقَاسِمِ
عَبْدَ اللَّهِ بْنُ هُذَيْلِ التَّجِيبِيِّ ، الْمَعْرُوفَ بِابْنِ الْمَقْفَلِ ، فَأَقْبَلْنَا عِنْدَهُ شَهْرًا فِي خَيْرِ دَارٍ
إِقَامَةٍ ، وَبَيْنَ خَيْرِ أَهْلِ وَجِيرَانِ ، وَعِنْدَ أَجْلِ النَّاسِ هِمَّةٌ وَأَكْمَلَهُمْ مَعْرُوفًا وَأَتَمَّهُمْ
سِيَادَةً . ثُمَّ رَكِبْنَا الْبَحْرَ قَاصِدِينَ بِلَنْسِيَّةٍ عِنْدَ ظُهُورِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتْرَضِيِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
ابْنِ مُحَمَّدٍ ، وَسَاكِنَاهُ بِهَا . فَوَجَدْتُ بِلَنْسِيَّةَ أَبَا شَاكِرَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُوَهَّبِ
الْعَنْبَرِيِّ صَدِيقَنَا ، فَنَعَى إِلَيَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الطَّنْبُجِيِّ وَأَخْبَرَنِي بِمَوْتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ . ثُمَّ
أَخْبَرَنِي بَعْدَ ذَلِكَ بِمُدِيدَةِ الْقَاضِي أَبِي الْوَلِيدِ يُونُسَ بْنِ مُحَمَّدِ الْمُرَادِيِّ وَأَبُو عَمْرٍو أَحْمَدَ
ابْنَ مُحَرَّرٍ ، أَنَّ أَبَا بَكْرَ الْمُصْعَبِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَزْدِيَّ ، الْمَعْرُوفَ بِابْنِ الْفَرَضِيِّ ،

حدثهما ، وكان والد المصعب هذا قاضى بالنسية أيام أمير المؤمنين المهدي ، وكان المصعب لنا صديقاً وأخاً وأليفاً أيام طلبنا الحديث على والده وسائر شيوخ المحدثين بقرطبة ، قالوا : قال لنا المصعب : سألت أبا عبد الله بن الطنبي عن سبب علته ، وهو قد نحل وخفيت محاسن وجهه بالضي فلم يبق إلا عين جوهرها الخضر عن صفاتها السالفة ، وصار يكاد أن يطيره النفس ، وقرب من الانحناء ، والشجاء باد على وجهه ، ونحن منفردان ، فقال لي . نعم : أخبرك أني كنت على باب داري بقديد الشماس في حين دخول علي بن حمود قرطبة ، والجيش واردة عليها من الجهات تتسارب ، فرأيت في جملتهم فتى لم أقدر أن للحسن صورة قائمة حتى رأيته ، فغلب على عقلي وهام به لبي ، فسألت عنه فقبل لي : هذا فلان بن فلان ، من سكان جهة كذا ، ناحية قاصية عن قرطبة بعيدة المأخذ . فيئست من رؤيته بعد ذلك . ولعمري يا أبا بكر لا فارقني حبه أو يوردني رمسى .

فكان كذلك ، وأنا أعرف ذلك الفتى وأدريه ، وقد رأيته لكني أضربت عن اسمه لأنه قد مات والنقي كلاهما عند الله عز وجل . عفا الله عن الجميع . هذا على أن أبا عبد الله ، أكرم الله نزل ، ممن لم يكن له وله قط ، ولا فارق الطريقة المثلى ، ولا وطىء حراماً قط ، ولا قارف مُسكراً ، ولا أتى منهياً عنه يحل بدينه ومروءته ، ولا قارض من جفا عليه ، وما كان في طبقتنا مثله . ثم دخلت أنا قرطبة في خلافة القاسم بن حمود المأمون فلم أقدم شيئاً على قصد أبي عمرو القاسم بن يحيى التميمي أخى عبد الله رحمه الله . فسألته عن حاله وعزّيته عن أخيه ، وما كان أولى بالتعزية عنه مني ، ثم سألتُه عن أشعاره ورسائله إذ كان الذي عندي منه قد ذهب بالتهب في السبب الذي ذكرته في صدر هذه الحكاية ، فأخبرني عنه أنه لما قرّبت وفاته وأيقن بحضور المنية ولم يشك في الموت دعا جميع شعره وبكّتي التي كنت خاطبته أنا بها ، فقطعها كلها ثم أمر بدفنها . قال أبو عمرو : فقلت له : يا أخى ، دعها تبقى . فقال : إني أقطعها وأنا أدري أي

أقطع فيها أدباً كثيراً ، ولكن لو كان أبو محمد بعينى خاضراً لدفعتهُ إليه تكون عنده تذكرة لمودتى ، ولكنى لا أعلم أى البلاد أضمرت ولا أحيى هو أم ميت . وكانت نكبتى أتصلت به ولم يعلم مستقرى ولا إلى ما آل إليه أمرى . فمن مرأى له قصيدة ، منها :

لَنْ سَتَرْتُكَ بَطُونُ الْأَحْوَدِ فَوَجَدَى بِعَدَاكَ لَا يَسْتَتِرُ
قَصَدْتُ دِيَارَكَ قَصْدَ الْمَشُوقِ وَلِلدَّهْرِ فِينَا كُرُورٌ وَمَرَرٌ
فَأَلْقَيْتُهَا مِنْكَ قَفَرًا خَلَاءَ فَأَسْكَبْتُ عَيْنِي عَلَيْكَ الْعِبَرُ

وحدثنى أبو القاسم الهمداني رحمه الله قال : كان معنا ببغداد أخ لعبد الله بن يحيى بن أحمد بن دحون الفقيه ، الذى عليه مدارُ الفتيا بقرطبة ، وكان أعلم من أخيه وأجلّ مقداراً ، ما كان فى أصحابنا ببغداد مثله ، وأنه أجتاز يوماً بدرب قطننة فى زقاق لا ينفذ ، فدخل فيه فرأى فى أقصاه جارية واقفة مكشوفة الوجه ، فقالت : له . يا هذا ، إنّ الدرب لا ينفذ . قال : فنظر إليها فهم بها . قال : وانصرف إلينا فتزايد عليه أمرها ، وخشى الفتنة فخرج إلى البصرة فمات بها عشقاً رحمه الله ، وكان فيما ذكر من الصالحين .

ملطية :

لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البرابر ، أن رجلاً أندلسياً باع جارية ، كان يحبها جداً شديداً ، لفاقة أصابته ، من رجل من أهل ذلك البلد ، ولم يظن بأنفسه أن نفسه تتبعها ذلك التتبع . فلما حصلت عند المشتري كادت نفس الأندلسى تخرج . فأتى إلى الذى ابتاعها منه وحكمه فى ماله أجمع وفى نفسه ، فأبى عليه ، فتحمل عليه بأهل البلد فلم يسعف منهم أحد . فكاد عقله أن يذهب ، ورأى أن يتصدى إلى الملك فتعرض له وصاح ، فسمعه ، فأمر بإدخاله ، والملك قاعد فى عليّة له مُشرقة عالية فوصل إليه . فلما مثل بين يديه أخبره بقصته وأسترجه وتضرّع إليه ، فرق له الملك فأمر بإحضار الرجل المبتاع فحضر ؛ فقال له : هذا

رجل غريب وهو كما تراه وأنا شفيعه إليك . فأبى المبتاع وقال : أنا أشد حُبنا لها منه وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيث بك غداً وأنا في أسوأ من حالته . فعرض له الملك ومن حواليه من أموالهم ، فأبى ولجّ واعتذر بحبته لها ، فلما طال المجلس ولم يروا منه البتة جنوحاً إلى الإسعاف قال للأندلسي : يا هذا ، مالك بيدي أكثر مما ترى ، وقد جهدتُ لك بأبلغ سعى ، وهو تراه يعتذر بأنه فيها أحب منك وأنه يخشى على نفسه شرّاً مما أنت فيه ، فاصبر لما قضى الله عليك . فقال له الأندلسي : فإلى بيدك حيلة ؟ قال له : وهل هاهنا غير الرغبة والبذل ، ما أستطيع لك أكثر . فلما يئس الأندلسي منها جمع يديه ورجليه وأنصب من أعلى العلية إلى الأرض . فارتاع الملك وصرخ ، فابتدر الغلمان من أسفل ، فقضى أنه لم يتأذ في ذلك الوقوع كبير أذى ، فصعد به إلى الملك ، فقال : ماذا اردت بهذا ؟ فقال : أيها الملك ، لاسبيل لي إلى الحياة بعدها ثم همّ أن يرمى نفسه ثانية ، فنع . فقال الملك : الله أكبر ، قد ظهر وجه الحكم في هذه المسألة ، ثم التفت إلى المشتري فقال : يا هذا ، إنك ذكرت أنك أود لها منه وتخاف أن تصير في مثل حاله ، فقال : نعم . قال : فإن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته وقذف بنفسه يُريد الموت لولا أن الله عز وجل وقاه ، فأنت قم فصحتح حبك وترام من أعلى هذه القصة كما فعل صاحبك ، فإن مت فبأجلك وإن عشت كمت أولى بالجارية ، إذ هي في يدك ويمضي صاحبك عنك ، وإن أبيت نزعت الجارية منك رغماً ودفعها إليه ، فتمنع ثم قال ، أترامى . فلما قرب من الباب ونظر إلى الهوى تحته رجع القهقري ، فقال له الملك : هو والله ما قلت ، فهمّ ثم نكل ، فلما لم يقدم قال له الملك : لاتلاعب بنا ، يا غلمان ، خذوا بيديه وأرموا به إلى الأرض . فلما رأى العزيمة قال : أيها الملك ، قد طابت نفسي بالجارية . فقال له : جزاك الله خيراً . فاشتراها منه ودفعها إلى بائعها ، وانصرفا .

باب قبح المعصية

قال المصنّف رحمه الله تعالى : وكثير من الناس يُطيعون أنفسهم ويعصون عقولهم ، ويتبعون أهواءهم ، ويرفضون أديانهم ، ويتجنبون ما حضّ الله تعالى عليه ورتبه في الألباب السليمة من العفة وترك المعاصي ومُقارعة الهوى ، ويخالقون الله ربّهم ، ويوافقون إبليس فيما يُحبه من الشهوة المعطّبة فيواقعون المعصية في حُبهم . وقد علمنا أن الله عز وجل ركب في الإنسان طبيعتين مُتضادتين : إحداهما لا تُشير إلا بخير ولا تحض إلا على حسن ولا يتصور فيها إلا كل أمر مرضى ، وهي العقل ، وقائده العدل .

والثانية : ضدّها لا تُشير إلا إلى الشهوات ، ولا تقود إلا إلى الردى ، وهي النفس ، وقائدها الشهوة . والله تعالى يقول : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) . وكفى بالقَلْب عن العقل فقال : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) . وقال تعالى : (وَحَبِّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) . وخاطب أولى الألباب .

فهاتان الطبيعتان قطبان في الإنسان ، وهما قوتان من قوى الجسد الفعّال بهما ، ومطرحان من مطارح شُعاعات هذين الجوهرين العجيبين الرفيعين العلويين . ففي كل جسد منهما حظّه على قدر مُقابلته لها في تقدير الواحد الصمد ، تقدّست أسماؤه حين خلقه وهَيَّاه . فهما يتقابلان أبداً ويتنازعان دأباً ، فإذا غلب العقل النفس ارتدع الإنسان وقمع عوارضه للدخولة وأستضاء بنور الله وأتبع العدل ، وإذا غلبت النفس العقل غميت البصيرة ، ولم يصبح الفرق بين الحسن والقبيح ، وعظم الالتباس وتردّى في هوة الردى ومهواة الهدسكة ، وبهذا حسن الأمر والنهى ، ووجب الاكتمال ، وصح الثواب والعقاب ، واستحق الجزاء . والروح واصل بين هاتين الطبيعتين ، وموصل ما بينهما ، وحامل الالتقاء بهما . وإن الوقوف عند حدّ الطاعة لمعدوم إلا بطول الرياضة وصحة المعرفة ونفاذ التمييز ، ومع ذلك

أُجْتَنَابُ التَّعَرُّضِ لِلْفِتَنِ وَمُدَاخِلَةِ النَّاسِ جَمَلَةً وَالْجُلُوسِ فِي الْبُيُوتِ ، وَبِالْحَرِيِّ
أَنْ تَقَعَ السَّلَامَةُ الْمَضْمُونَةُ أَوْ يَكُونَ الرَّجُلُ حَصُورًا لَا أَرْبَ لَهُ فِي النَّسَاءِ وَلَا جَارِحَةٍ
لَهُ تُعِينُهُ عَلَيْهِنَ قَدِيمًا . وَوَرَدَ : مَنْ وَقَى شَرَّ لَقَلَقَهُ وَقَبْقَبَهُ وَذَبَذَبَهُ فَقَدْ وَقَى
شَرَّ الدُّنْيَا بِحَذَائِفِهَا . وَاللَّقَلَقُ : اللِّسَانُ . وَالْقَبْقَبُ : الْبَطْنُ . وَالذَّبْذَبُ : الْفَرَجُ .
وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي أَبُو حَفْصٍ السَّكَّاتِبِيُّ هُوَ مِنْ وَلَدِ رَوْحِ بْنِ زَيْبَاعِ الْجَذَامِيِّ ، أَنَّهُ
سَمِعَ بَعْضَ الْمُتَسَمِّينَ بِاسْمِ الْفَقِيهِ مِنْ أَهْلِ الرِّوَايَةِ الْمَشَاهِيرِ ، وَقَدْ سُئِلَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ
فَقَالَ : الْقَبْقَبُ : الْبَطْنُ .

وَحَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ أَحْمَدَ ، ثَنَا وَهَبُ بْنُ مَسْرُورٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي دَلِيمٍ عَنْ
مُحَمَّدِ بْنِ وَضَّاحٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ
ابْنِ يَسَارٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ : مَنْ
وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ اثْنَتَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ . فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : مَا بَيْنَ لِحْيَتَيْهِ وَمَا
بَيْنَ رِجْلَيْهِ .

وَأِنِّي لَأَسْمَعُ كَثِيرًا مِمَّنْ يَقُولُ : الْوَفَاءُ فِي قَمْعِ الشَّهَوَاتِ فِي الرِّجَالِ دُونَ النَّسَاءِ .
فَأُطِيلُ الْعَجَبَ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنِّي قَوْلًا لَا أَحُولُ عَنْهُ : الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فِي الْجَنُوحِ
إِلَى هَذَيْنِ الشَّيْئَيْنِ سَوَاءٌ ، وَمَا رَجُلٌ عَرَضَتْ لَهُ أَمْرَةٌ جَمِيلَةٌ بِالْحُبِّ وَطَالَ ذَلِكَ وَلَمْ
يَكُنْ ثَمَّ مِنْ مَانِعٍ إِلَّا وَقَعَ فِي شَرِّ الشَّيْطَانِ وَاسْتَهْوَتْهُ الْمَعَاصِي وَاسْتَفْزَهَ الْحَرَصُ
وَتَغَوَّلَ الطَّمَعُ ، وَمَا أَمْرَةٌ دَعَاها رَجُلٌ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ إِلَّا وَأَمَكْنَتْهُ ، حَتَّى مَقْضِيًّا
وَحَكْمًا نَافِذًا لَا مَحِيدَ عَنْهُ أَلْبَتَهُ .

وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي ثِقَّةٌ صَدَقَ مِنْ إِخْوَانِي مِنْ أَهْلِ التَّامِّ فِي الْفَقْهِ وَالْكَلَامِ وَالْمَعْرِفَةِ ،
وَذُو صَلَابَةٍ فِي دِينِهِ ، أَنَّهُ أَحَبُّ جَارِيَةٍ نَبِيلَةٍ أَدَبِيَّةٍ ذَاتِ جَمَالٍ بَارِعٍ ، قَالَ : فَعَرَضْتُ
لَهَا فَنَفَرَتْ ، ثُمَّ عَرَضْتُ فَأَبَتْ . فَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ يَطُولُ وَحُبُّهَا يَزِيدُ ، وَهِيَ
لَا تُطِيعُ الْبَتَّةَ ، إِلَى أَنْ حَمَلَنِي فَرَطُ حُبِّي لَهَا مَعَ عَمَى الصَّبِيِّ عَلَى أَنْ نَذَرْتُ أَنِّي
مَتَى نَلْتُ مِنْهَا مَرَادِي أَنْ أَتُوبَ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً صَادِقَةً . قَالَ : فَمَا مَرَّتِ الْأَيَّامُ

والليالى حتى أذعنتُ بعد شماس ونفار . فقلت له : أبا فلان ، وفيتَ بعهديك ؟
فقال : إِي والله ، فضحكتُ .

وذُكرتُ بهذه القِلة ما لم يزل يتداول في أسماعنا من أن في بلاد البربر التي
تجاور أندلسنا يتعهد الفاسق على أنه إذا قضى وطره ممن أراد أن يتوب إلى الله ،
فلا يُمنع من ذلك . ويذكرون على من تعرّض له بكلمة ويقولون له : أتحرم
رجلاً مسلماً التوبة .

قال : واعهدى بها تبكى ونقول : والله لقد بلغتني مبلغاً ما خطر قط لي ببال ،
ولا قدرتُ أن أجيب إليه أحداً .

ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً ، وأعوذ بالله أن
أظن غير هذا ، وإني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة ، أغنى الصلاح ،
غلطاً بعيداً . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضُبطت
أنضبطت ، وإذا قُطعت عنها الذرائع أمسكت . والفاسدة هي التي إذا ضُبطت لم
تنضبط ، وإذا حِيلَ بينها وبين الأسباب التي تُسهّل الفواحش تحيَّلت في أن
تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يداخل أهل
الفسوق ولا يتعرّض إلى المناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصور البديعة
التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة
الصنعة ، ويتصدى للمشاهد المؤذية ، ويحب الخملوات المهلكات . والصالحان
من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك ،
والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء .

وأما امرأة مهملة ورجل متعرض فقد هلكا وتلفا . ولهذا حُرِّم على المسلم
الأتذاذ بسماع نعمة امرأة أجنبية . وقد جعلت النظرة الأولى لك والأخرى عليك .
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تأمل امرأة وهو صائم حتى يرى
حجم عظامها فقد أفطر . وإن فيما ورد من النهي عن الهوى بنص التنزيل شيئاً

مُقْنَعًا . وفي إيقاع هذه الكلمة ، أغنى الهوى . أسمى على معان ، وأشتقاقها عند العرب ، وذلك دليل على ميل النفوس وهويها إلى هذه المقامات . وإن التمسك عنها مقارع لنفسه محارب لها .

وشىء أصفه لك تراه عياناً ، وهو أنى ما رأيت قط امرأة في مكان تحس أن رجلاً يراها أو يسمع حسها إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غنية ، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك . ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لأخاً فيها ظاهراً عليها لا خفاء به . والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء . وأما إظهار الزينة وترتيب المشى وإيقاع المزج عند خُطور المرأة بالرجل وأجتياز الرجل بالمرأة فهذا أشهر من الشمس في كل مكان . والله عز وجل يقول : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) . وقال تقدّست أسماؤه : (وَلَا يَضْرِبَنَّ بِالْأَرْجُلِ مَا يُخْفَى مِنْ زِينَتِهِمْ) . فلولا علم الله عز وجل برقة إغماضهن في السعى لإيصال حُبهن إلى القلوب ، ولطف كيدهن في التحيّل لأستجلاب الهوى ، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمى ، وهذا حد التعرض فكيف بما دونه .

ولقد أطلعت من سرّ معتقد الرجال والنساء في هذا على أمر عظيم ، وأصل ذلك أنى لم أحسن قط بأحد ظناً في هذا الشأن ، مع غيرة شديدة ركبت في .

وحدثنا أبو عمرو أحمد بن محمد بن أحمد ، ثنا أحمد ، ثنا محمد بن علي بن

رفاعة ، حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام عن

شيوخه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الغيرة من الإيمان . فلم أزل باحثاً عن أخبارهن كاشفاً عن أسرارهن ، وكن قد أنسن مني بكتمان ،

فكنّ يطلعنني على غوامض أمورهن . ولولا أن أكون منبهاً على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبهن في السر ومكرهن في——ه عجائب

تمذهل الألباب .

وإني لأعرف هذا وأتقنه ، ومع هذا يعلم الله وكفى به عليماً أني برئ الساحة ،
سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقي الحجرة ، وإني أقسم بالله أجلّ الأقسام أني
ما حلت منزري على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت
إلى يومى هذا . والله الحمد على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقى .

حدثنا القاضي أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حجاج المعافري ،
وإنه لأفضل قاض رأيته ، عن محمد بن إبراهيم الطليطلى عن القاضي بمصر بكر بن
العلاء في قول الله عز وجل : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) . أن لبعض المتقدمين
فيه قولاً ، وهو أن المسلم يكون مخبراً عن نفسه بما أنعم الله تعالى به عليه من طاعة
ربه التي هي من أعظم النعم ، ولا سيما في المفترض على المسلمين اجتنابه واتباعه .
وكان السبب فيما ذكرته أني كنت وقت تأجج نار الصبا وشرة الحداثة وتمكّن
غرارة الفتوة مقصوراً محظراً على بين رُقباء ورقائب ، فلما ملكت نفسي وعقلت
صحبت أبا علي الحسين بن علي الفاسي في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن
أبي يزيد الأزدي شيخنا وأستاذي رضى الله عنه ، وكان أبو علي المذكور عاقلاً
عاملاً عالماً ممن تقدّم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد
للآخرة ، وأحسبه كان حصوراً لأنه لم تكن له امرأة قط ، وما رأيت مثله جُملة
علماء وعملا ودينياً وورعاً ، فنفعني الله به كثيراً وعلمت موقع الإساءة وقبح المعاصي .
ومات أبو علي رحمه الله في طريق الحج .

ولقد ضمنى المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارف مشهورة
بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قراباتنا من اللاتي قد ضمنها معي
النشأة في الصبا ، ثم غبت عنها أعواماً كثيرة . وكنت تركتها حين أعصرت
ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وأنساب ، وتفجرت عليها ينابيع
الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت في سماء وجهها نجوم الحسن فأشرققت وتوقّدت ،
وانبعث في خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت ، فأتت كما أقول :

خَرِيدَةُ صَاغِيهَا الرَّحْمَنُ مِنْ نُورٍ جَلَّتْ مَلَاَحِمَتُهَا عَنْ كُلِّ تَقْدِيرٍ
لَوْ جَاءَنِي عَمَلِي فِي حَسَنِ صَوْرَتِهَا يَوْمَ الْحِسَابِ وَيَوْمَ الْفَنَاجِ فِي الصُّورِ
لَسَكَنْتُ أَحْظَى عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ بِالْجَنَّتَيْنِ وَقُرْبِ الْخُرْدِ الْخُورِ
وَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ صَبَاحَةِ ، وَقَدْ ظَهَرَتْ عَلَى صُورَةِ تَعْجِزِ الْوَصَافِ ، وَقَدْ
طَبَّقَ وَصْفُ شَبَابِهَا قُرْطُبَةً ، فَبِتُّ عَنْدَهَا ثَلَاثَ لَيَالٍ مُتَوَالِيَةٍ وَلَمْ تَحْجِبْ عَنِّي عَلَى
جَارِي الْعَادَةِ فِي التَّرْبِيَةِ . فَلَعَمْرِي لَقَدْ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَصْبُو وَيَثُوبَ إِلَيْهِ مَرْفُوضِ
الْهَوَى ، وَيَعَاوِدُهُ مَنَسَى الْغَزْلِ . وَلَقَدْ أَمْتَنْتُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ دُخُولِ تِلْكَ الدَّارِ
خَوْفًا عَلَى لُبِّي أَنْ يَزِدَّهِ الْإِسْتِحْسَانُ . وَلَقَدْ كَانَتْ هِيَ وَجَمِيعُ أَهْلِهَا مِنْ لَا تَعْدَى
الْأَطْمَاعِ إِلَيْهِمْ ، وَلَكِنْ الشَّيْطَانُ غَيْرُ مَأْمُونِ الْفَوَائِلِ . وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

لَا تَتَّبِعِ النَّفْسَ الْهَوَى وَدَعْ التَّعَرُّضَ لِلْمَحَنِ
إِبْلِيسَ حَتَّى لَمْ يَمُتْ وَالْعَيْنُ بَابُ الْفِتَنِ

وَأَقُولُ :

وَقَائِلٌ لِي هَذَا ظَنُّكَ يَزِيدُكَ غِيَا
فَقُلْتُ دَعْ عَنْكَ لَوْمِي أَلَيْسَ إِبْلِيسُ حَيًّا

وَمَا أُوْرِدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ وَدَاوُدَ بْنِ إِشِي رُسُلِ
اللَّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إِلَّا لِيَعْلَمُنَا نَقْصَانَنَا وَفَاقَتَنَا إِلَى عِصْمَتِهِ ، وَأَنْ بِنَيْتِنَا مَدْخُولَةً
ضَعِيفَةً ، فَإِذَا كَانَا صُلَى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَهَمَا نَبِيَّانِ رُسُولَانِ أَبْنَاءَ أَنْبِيَاءِ رُسُلِ وَمِنْ أَهْلِ
بَيْتِ نَبْوَةٍ وَرِسَالَةٍ مُتَكَرِّرِينَ فِي الْخَفِظِ ، مَغْمُوسِينَ فِي الْوَلَايَةِ ، مُحْفُوفِينَ بِالْكَلاَمَةِ ،
مُؤَيَّدِينَ بِالْعِصْمَةِ ، لَا يُجْعَلُ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمَا سَبِيلٌ وَلَا فُتْحٌ لَوْ سَوَّاهُ نَحْوَهُمَا طَرِيقٌ ،
وَبَلَّغَا حَيْثُ نَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا فِي قِرْءَانِهِ الْمَنْزَلَ بِالْجُمْلَةِ الْمَوْكَلَةِ وَالطَّبْعِ الْبَشَرِيِّ
وَالْخَلْقَةِ الْأَصِيلَةِ ، لَا بُتَعَمَدُ الْخَطِيئَةِ وَلَا الْقَصْدُ إِلَيْهَا ، إِذِ النَّبِيُّونَ مُبَرَّوْنٌ مِنْ كُلِّ
مَا خَالَفَ طَاعَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لَسَكَنَهُ أَسْتِحْسَانُ طَبِيعِي فِي النَّفْسِ لِلصُّورِ ، فَمِنْ ذَا
الَّذِي يَصِفُ نَفْسَهُ بِمَلَكِهَا وَيَتَعَاطَى ضَبْطَهَا إِلَّا بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ . وَأَوَّلُ دَمِ سُمْكَ

في الأرض قدمُ أحدَ ابْنَيْ آدمَ على سببِ المنافسةِ في النساءِ . ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقول : باعِدُوا بينَ أنفاسِ الرجالِ والنساءِ . وهذهُ امرأةٌ من العرب تقول وقد حبِلت من ذى قرابة لها حين سُئِلت : ما يبطنك يا هند ؟ فقالت : قُربُ الوسادِ وطولُ السوادِ . وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

لا تَلَمَّ مَنْ عَرَّضَ النَّفْسَ لِمَا	ليس يُرضى غيره عند المَحَن
لا تُقَرِّبْ عَرَجاً من لَهَب	ومتى قَرَّبته قامت دَخَن
لا تُصَرِّفْ ثِقَةً في أَحَد	فَسَدَ الناسُ جميعاً والزَّمَن
خُلِقَ النِّسْوانُ لِلْفَحْلِ كما	خُلِقَ الفَحْلُ بلا شَكٍّ لهن
كُلَّ شَكْلٍ يَتَشَبَّهُ شَكْلَهُ	لا تَكُنْ عن أَحَدٍ تَنفَى الظَّن
صِفَةُ الصَّالِحِ مَنْ إِنْ صُنَّتْهُ	عن قَبِيحٍ أَظْهَرَ الطَّوْعَ الحَسَن
وسواه من إِذَا ثَقَّقَتْهُ	أَعْمَلَ الحِيلَةَ في خَلْعِ الرِّسَن

وإني لأعلم فتى من أهل الصيانة قد أولع بهوى له ، فاجتاز بعضُ إخوانه فوجده قاعداً مع مَنْ كان يُحِبُّ ، فاستجلبه إلى منزله ، فأجابه إلى منزله بأُمثال المسير بعده . فمضى داعيه إلى منزله وأنتظره حتى طال عليه التربُّص فلم يأتِه . فلما كان بعد ذلك أجمع به داعيه فعدَّد عليه وأطال لومه على إخلافه مواعده ، فاعتذر وورى . فقلت أنا للذى دعاه : أنا أ كُشف عُذْرهُ صحيحاً من كتاب الله عز وجل . إذ يقول : (ما أخلقنا موعدك بملكنا ولكنَّا حُمِّلنا أوزاراً من زينَةِ القوم) . فضحك مَنْ حضر . وكُلِّتُ أن أقول في ذلك شيئاً فقلت :

وَجَرَحَكَ لى جَرَحِ جُبَّارٍ فلا تَلَمَّ	ولكنَّ جَرَحَ الحُبِّ غيرُ جُبَّار
وقد صارت الخيلان وسطَ بياضه	كنيلوفر حَفَّتْهُ روضُ بهار
وكم قال لى مَنْ مِتُّ وجداً بحُبه	مقالةً مُحْلُولِ المَقالةِ زارى
وقد كَثُرَتْ مَنى إليه مطالبٌ	
أما فى التَّوانى ما يبرِّدُ غُلَّةً	ويذهب شوقاً فى ضُلُوعِكَ سارى

فقلت له لو كان ذلك لم تكن عداوة جارٍ في الأنام لجار
وقد تترأى العسكران لدى الوغى وبينهما للموت سَيْلُ بَوار
ولى كلمتان قلتهما مُعْرِضًا بِلِ مُصَرِّحًا بِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِنَا كُنَّا نَعْرِفُهُ كُلَّنَا ،
مِنْ أَهْلِ الطَّلَبِ وَالْعَنَايَةِ وَالْوَرَعِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ وَأَقْتِنَاءِ آثَارِ النَّسَاكِ وَسُلُوكِ مَذَاهِبِ
الْمُتَصَوِّفِينَ الْقَدَمَاءَ بَاحِثًا مُجْتَهِدًا ، وَقَدْ كُنَّا نَتَجَنَّبُ الْمِرَاحَ بِحَضْرَتِهِ ، فَلَمْ يَمُضِ
الزَّمَنُ حَتَّى مَكَّنَ الشَّيْطَانُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَفَتَكَ بَعْدَ لِبَاسِ النَّسَاكِ ، وَمَلَكَ إِبْلِيسُ مِنْ
خِطَامِهِ فَسَوَّلَ لَهُ الْغُرُورَ ، وَزَيْنَ لَهُ الْوَيْلَ وَالثَّبُورَ ، وَأَجْرَهُ رَسَنَهُ بَعْدَ إِيَاءٍ . وَأَعْطَاهُ
نَاصِيئَتَهُ بَعْدَ شِمَاسٍ ، فَخَبَّ فِي طَاعَتِهِ وَأَوْضَعَ ، وَأَشْهَرَ بَعْدَ مَا ذَكَرْتَهُ فِي بَعْضِ الْمَعَاصِي
الْقَبِيحَةِ الْوُضْرَةَ ، وَلَقَدْ أَطْلُتُ مُلَامَهُ وَتَشَدَّدَتْ فِي عَذْلِهِ إِذْ أَعْلَنَ بِالْمَعْصِيَةِ بَعْدَ
أَسْتِقَارٍ ، إِلَى أَنْ أَفْسَدَ ذَلِكَ ضَمِيرَهُ عَلَى ، وَخَبِثَتْ نِيَّتُهُ لِي ، وَتَرَبَّصَ بِي دَوَائِرُ
السُّوءِ ، وَكَانَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا يُسَاعِدُهُ بِالْكَلَامِ أَسْتِجْرَارًا إِلَيْهِ ، فَيَأْنِسُ بِهِ وَيُظْهِرُ
لَهُ عِدَاوَتِي ، إِلَى أَنْ أَظْهَرَ اللَّهُ سِرِّيَّتَهُ ، فَعَلِمَهَا الْبَادِي وَالْحَاضِرُ ، وَسَقَطَ مِنْ
عَيُونِ النَّاسِ كُلِّهِمْ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَقْصِدًا لِلْعُلَمَاءِ وَمُنْتَابًا لِلْفَضَلَاءِ ، وَرَدَّ ذَلِكَ عِنْدَ
إِخْوَانِهِ جَمَلَةً . أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَسَتَرْنَا فِي كِفَايَتِهِ ، وَلَا سَلْبِنَا مَا بَنَا مِنْ نِعْمَتِهِ .
فِيَا سُوءَ تَاهِ لِمَنْ بَدَأَ بِالْأُسْتِقَامَةِ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْخُلْدَانَ يَحِلُّ بِهِ وَأَنَّ الْعَصْمَةَ سَتْفَارِقُهُ ،
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، مَا أَشْنَعُ هَذَا وَأَفْظَعُهُ . لَقَدْ دَهَمْتُهُ إِحْدَى بَنَاتِ الْحَرَسِ ، وَأَلْقَيْتُ
عَصَاهَا بِهِ أَمْ طَبَّقَ . مِنْ كَانَ لِلَّهِ أَوْلَا ثُمَّ صَارَ لِلشَّيْطَانِ آخِرًا ، وَمِنْ إِحْدَى
الْكَلِمَتَيْنِ :

أَمَّا الْغِلَامُ فَقَدْ حَانَتْ فَضِيحَتُهُ	وَأَنَّهُ كَانَ مَسْتَوْرًا فَقَدْ هَتَكَ
مَا زَالَ يَضْحَكُ مِنْ أَهْلِ الْهَوَى عَجَبًا	فَالآنَ كُلُّ جَهُولٍ مِنْهُ قَدْ ضَحِكََا
إِلَيْكَ لَا تَلْخُ صَبَبًا هَائِمًا كِلَفًا	يَرَى التَّهْمَكَ فِي دَيْنِ الْهَوَى نُسْكََا
ذُو نَخْبَرٍ وَكِتَابٍ لَا يُفَارِقُهُ	نَحْوَ الْحَدِّثِ يَسْعَى حَيْثُ مَاسَلْكََا
فَاعْتَاظَ مِنْ سَمَرِ أَقْلَامِ بَنَانٍ فَتَى	كَأَنَّهُ مِنْ أُجَيْنٍ صَيْغٍ أَوْ سُبْكََا

يا لائى سَفَهًا فى ذاك قِلَّ فَلَمْ تشهد جَبِينين يوم الملتقى أُشْتَبِكا
دَعْنى وَوَرِدَى فى الآبار أطلبه إليك عنى كذا لا أبتغى البركا
إذا تعففت عَفَّ الحب عنك وإن تركت يوماً فإنَّ الحب قد تركا
ولا تحُلَّ من الهجران مُنْعَقِدًا إلا إذا ما حلت الأزر والتككا
ولا تُصَحِّح للسلطان مملكةً أو تدخل البرد عن إنفاذه السككا
ولا بغير كثير المسح يذهب ما يعلو الحديد من الأصداء إن سُبكا

وكان هذا المذكور من أصحابنا قد أحكم القراءات إحكامًا جيدًا ، واختصر كتاب الأنبارى فى الوقف والابتداء اختصارًا حسنًا أعجب به من رآه من المقرئين ، وكان دائبًا على طلب الحديث وتقييده ، والمتولى لقراءة ما يسمعه على الشيوخ الحداث ، مثابرًا على النسخ مجتهدًا به . فلما أمتحن بهذه البلية مع بعض الغلمان رفض ما كان مُعْتَمِدًا وباع أكثر كتبه واستحال أستحالة كلية ، نعوذ بالله من الخذلان ، وقلت فيه كلمة وهى التالية للكلمة التى ذكرت منها فى أول خبره ثم تركتها .

وقد ذكر أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الرويدى فى كتاب اللفظ والإصلاح : أن إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة ، مع علو طبقة فى الكلام وتمكنه وتمككه فى المعرفة ، تسبب إلى ما حرم الله عليه من فتن نصرانى عشقه بأن وضع له كتابًا فى تفضيل التثليث على التوحيد . فيا غوثاه عياذك يارب من تولج الشيطان ووقع الخذلان . وقد يعظم البلاء ، وتكلب الشهوة ، ويهون القميص ، ويرق الدين حتى يرضى الإنسان فى جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح ، كمثلى ما دهم غبيد الله بن يحيى الأزدي المعروف بابن الحريرى ، فإنه رضى بإهمال داره وإباحة حريمه والتعريض بأهله طمعًا فى الحصول على بُغْيَتِهِ من فتنى كان علقه . نعوذ بالله من الضلال ونسأله الحياطة وتحسين آثارنا وإطابة أخبارنا ، حتى لقد صار المسكين حديثًا تعم به المحافل ، وتصاغ فيه الأشعار ، وهو

الذى تسميه العرب الديوث . وهو مشتق من التدبث ، وهو التسهيل . وما بعد تسهيل من تسمح نفسه بهذا الشأن تسهيل ، ومنه بعير مديث . أى مذل . ولعمري إن الغيرة لتوجد في الحيوان بالخلق ، فكيف وقد أكدتها عندنا الشريعة ، وما بعد هذا مصاب . ولقد كنت أعرف هذا المذكور مستورا إلى أن أستهواه الشيطان ونعوذ بالله من الخذلان . وفيه يقول عيسى بن محمد بن محمل الحولاني :

يا جاعلاً إخراج حرّ نسائه شرّ كالصيد جاذر الغزلان
إني أرى شرّاً كائمزق ثملاً تحظى بغير مذلة الحرمان
وأقول أنا أيضاً :

أباح أبو مروان حرّ نسائه ليبلغ ما يهوى من الرشا الفرد
فعاثته الديوث في قبج فعله فأنشدني إنشاد مستبصر جلد
لقد كنت أدركت المنى غير أنني يعيرني قومي بإدراكها وحدى
وأقول أيضاً :

رأيت الحزيري فيما يعانى قليل الرشاد كثير السفاه
يبيع ويبتاع عرضاً بعرض أمور وجدك ذات أشتباه
ويأخذ مِمّا بإعطاء هاء ألا هكذا فليكن ذو النواهي
ويبدل أرضاً تغذى النبات بأرض تحف بشوك العضاء
لقد خاب في تجره ذو أبتياح مهبّ الرياح بمجرى المياه

ولقد سمعته في المسجد الجامع يستعيز بالله من العصمة كما يستعاذ به من الخذلان .

ومما يشبه هذا أنى أذكر أنى كنت في مجلس فيه إخوان لنا عند بعض مياسير أهل بلدنا ، فرأيت بين بعض من حضر وبين من كان بالحضرة أيضاً من أهل صاحب المجلس أمراً أنكرته وغمراً أستبشعته ، وخلوات الحين بعدالحين ،

Great Powers

Enrollment: 30

Wk	Publisher	Edition	Year	ISBN
----	-----------	---------	------	------

RoutledgeCurzon
, 2004.

وصاحب المجلس كالغائب أو النائم ، فنبهته بالتعريض فلم ينتبه ، وحرر كته بالتصريح فلم يتحرك ، فجلت أكرر عليه بيتين قديمين لعله يقطن . وهما هذان :
إن إخوانه المقيمين بالأمة سأتوا للزنا لا للغناء
قطعوا أمرهم وأنت حمار موقر من بلاد غباء
وأكثر من إنشادهن حتى قال لى صاحب المجلس : قدأملت أن من سماعهما
فتفضل بتركهما أو إنشاد غيرهما . فأمسكت وأنا لا أدري أغافل هو أم متغافل .
وما أذكر أنى عدت إلى ذلك المجلس بعدها . فقلت فيه قطعة منها :

أنت لاشك أحسن الناس طناً و يقيناً ونيةً وضميراً
فأنتبه إن بعض من كان بالأمة سجليساً لنا يعانى كبيراً
ليس كل الركوع فأعلم صلاةً لا ولا كل ذى لحاظ بصيراً
وحدثنى ثعلب بن موسى الكلاباذنى قال : حدثنى سليمان بن أحمد الشاعر
قال : حدثنى امرأة اسمها هند كنت رأيته في المشرق ، وكانت قد حجّت خمس
حجّات ، وهى من المتعبّدات المجتهدات ، قال سليمان : فقالت لى : يابن أخى ،
لا تحسن الظن بأمرأة قط فإنى أخبرك عن نفسى بما يعلمه الله عز وجل : ركبّت
البحر مُنصرفاً من الحج وقد رفضت الدنيا وأنا خامسة خمس نسوة ، كلهن قد
حجّجن ، وصرنا فى مركب فى بحر القلزم ، وفى بعض ملاحى السفينة رجل مضمّر
الخلق مديد القامة واسع الأكتاف حسن التركيب ، فرأيت أول ليلة قد أتى إلى
إحدى صواحي فوضع إحليله فى يدها وكان ضحاً جداً . فأمكنته فى الوقت من
نفسها . ثم مر عليهن كلهن فى ليالى متواليات ، فلم يبق له غيرها ، تغنى نفسها ،
قالت : فقلت فى نفسى : لأنتقم منك . فأخذت موسى وأمسكتها بيدي . فأتى
فى الليل على جارى عادته . فلما فعل كفعله فى سائر الليالى سقطت الموصى عليه
فارتاع وقام لينهض . قالت : فأشفقت عليه وقلت له : وقد أمسكتك : لازلت أو
أخذ نصيبى منك . قالت العجوز : ففضى وطره وأستغفر الله .

وإن للشعراء من لطف التعريض عن الكناية لعجبا . ومن بعض ذلك
قولي حيث أقول :

أتانى وماء المزن في الجو يُسْفَك كمحض لجين إذ يُمدّ ويُسَبَك
هلال الدّياجى انحطّ من جو أفقه فقلّ في محب نال ما ليس يُدْرَك
وكان الذى إن كنت لى عنه سائلا فالى جواب غير ألى أضحك
لفرط سرورى خلّتنى عنه نأما فيا عجبا من موقن يتشكك
وأقول أيضا قطعة منها :

أتيتنى وهلالُ الجو مُطْلَع قبيل قرع النَّصارى للنّواقيس
كحاجب الشَّيخ عمّ الشَّيْبُ أكثره وإخص الرُّجل في لُطف وتقويس
ولاح في الأفق قوس الله مُكْتَسِيا من كل لون كأذ ناب الطّواويس
وإن فيما يبدو إلينا من تعادى المتواصلين في غير ذات الله تعالى بعد الألفة ،
وتدابره بعد الوصال ، وتقاطعهم بعد المودة ، وتباغضهم بعد المحبة ، واستحكام
الضعائن ، وتأكّد السخائم في صدورهم ، لكاشفا ناهيا لو صادف عقولا سليمة
وآراء نافذة وعزائم صحيحة . فكيف بما أعد الله لمن عصاه من النّكال الشديد
يوم الحساب وفي دار الجزاء ، ومن الكشف على رؤوس الخلائق (يوم تذهل
كل مُرضعة عما أرضعت وتضع كلّ ذات حمل حملها وترى الناس سُكّارى
وما هم بسُكّارى ولكنّ عذابَ الله شديد) . جعلنا الله ممن يفوز برضاه
ويستحق رحمته .

ولقد رأيت امرأة كانت مودتها في غير ذات الله عز وجل . فعهدتها أصفى
من الماء والطف من الهواء وأثبت من الجبال وأقوى من الحديد وأشدّ أمزاجا
من اللون في الملون ، وأنفذ استحكاما من الأعراض في الأجسام ، وأضوأ من
الشمس ، وأصح من العيان ، وأثقب من النجم ، وأصدق من كدر القطا ، وأعجب
من الدهر ، وأحسن من البر ، وأجل من وجه أبى عامر ، وألد من العافية ، وأحلى

من المني ، وأدنى من النفس ، وأقرب من النسب ، وأرسخ من النقش في الحجر ، ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة أقطع من الموت ، وأنفذ من السهم ، وأمر من السقم ، وأوحش من زوال النعم ، وأقبح من حلول النقم ، وأمضى من عقم الرياح ، وأضر من الحق ، وأدهى من غلبة العدو ، وأشد من الأسر ، وأقسى من الصخر ، وأبغض من كشف الأستار ، وأنأى من الجوزاء ، وأصعب من معاناة السماء ، وأكبر من رؤية المصاب ، وأشنع من خرق العادات ، وأقطع من فجأة البلاء ، وأبشع من السم الزعاف ، وما لا يتولد مثله عن الذحول والترات وقتل الآباء وسبي الأمهات . وتلك عادة الله في أهل الفسق القاصدين سواء ، الآمين غيره ، وذلك قوله عز وجل : (ياليتني لم آخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني) . فيجب على الليب الاستجارة بالله مما يورط فيه الهوى . فهذا خلف مولى يوسف بن ققام القائد المشهور ، كان أحد القائمين مع هشام بن سليمان بن الناصر ، فلما أمر هشام وقتل وهرب الذين وازروه فرّ خلف في جملتهم ونجا . فلما أتى القسطلات لم يطق الصبر عن جارية كانت له بقرطبة فكرّر راجعاً . فظفر به أمير المؤمنين المهدي ، فأمر بصلبه . فلعهدي به مصلوباً في المرج على النهر الأعظم وكأنه القنفذ من النبل .

ولقد أخبرني أبو بكر محمد بن الوزير عبد الرحمن بن الليث رحمه الله أن سبب هروبه إلى محلة البرابر أيام تحوّلهم مع سليمان الظافر إنما كان لجارية يكلف بها تصيّر عند بعض من كان في تلك الناحية ، ولقد كاد أن يتلف في تلك السفرة .

وهذان الفصلان وإن لم يكونا من جنس الباب فإنهما شاهدان على ما يقود إليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر ، الذي يستوى في فهمه العالم والجاهل ، فكيف من العصمة التي لا يفهمها من ضعفت بصيرته . ولا يقولن امرؤ : خلوت . فهو وإن انفرد فبمرأى ومسمع من علام الغيوب (الذي يعلم خائنة الأعين

وما تخفى الصدور) (وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) (وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابِعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا وهو عليم بذات الصدور) وهو عالم الغيب والشهادة (وَيَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ) وقال: (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد).

وليعلم المستخف بالمعاصي. المتكلم على التسويف. المعرض عن طاعة ربه أن إبليس كان في الجنة مع الملائكة المقرَّبين فلمعصية واحدة وقعت منه استحق لعنة الأبد وعذاب الخلد وصير شيطاناً رجياً وأبعد عن رفيع المكان. وهذا آدم صلي الله عليه وسلم بذنب واحد أُخرج من الجنة إلى شقاء الدنيا ونكدِها. ولولا أنه تلقى من ربه كلمات وتاب عليه لكان من الهالكين. أفترى هذا المغتر بالله ربّه ويأملانه ليزداد إثمًا يظن أنه أكرم على خالقه من أبيه آدم الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد لهم ملائكته الذين هم أفضل خلقه عنده؟ أو عقابه أعزّ عليه من عقوبته إياه؟ كلا، ولكن أستمعذاب التمني واستيطاء مركب العجز وسخف الرأي قائدة أصحابها إلى الوبال والخزى، ولو لم يكن عند ركوب المعصية زاجر من نهى الله تعالى ولا حامي من غليظ عقابه لكان في قبائح الأحداث عن صاحبه وعظيم الظلم الواقع في نفس فاعله أعظم مانع وأشد رادع لمن نظر بعين الحقيقة واتبع سبيل الرشد، فكيف والله عز وجل يقول: (وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهَا مُهَانًا).

حدثنا الهمداني في مسجد القمري بالجانب الغربي من قرطبة سنة إحدى وأربع مائة. حدثنا ابن سبويه وأبو إسحاق البلخي بخراسان سنة خمس وسبعين

وثلاثمائة . قالوا : ثنا محمد بن يوسف : ثنا محمد بن إسماعيل : ثنا قتيبة بن سعيد : ثنا جرير عن الأعمش عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل قال : قال عبد الله ، وهو ابن مسعود : قال رجل : يا رسول الله ، أى الذنب أكبر عند الله ؟ قال : أن تدعو الله ندا وهو خلقك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك أن يطعم معك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك . فأنزل الله تصديقها : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) وقال عز وجل : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله) .

حدثنا الهمداني عن أبي إسحاق البلخي وابن سبويه عن محمد بن يوسف عن محمد بن إسماعيل عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وسعيد بن المسيب الخزوميين وأبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . وبالسند المذكور إلى محمد بن إسماعيل عن يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد فقال : يا رسول الله ، إني زنت . فأعرض عنه . ثم رد عليه أربع مرات . فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أباك جنون ؟ قال : لا . قال : فهل أحصنت ؟ قال : نعم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم . اذهبوا به فارجموه .

قال ابن شهاب : فأخبرني من سمع جابر بن عبد الله قال : كنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصلى ، فلما أذلقته الحجارة هرب فأدركناه بالحرّة فرجمناه .

حدثنا أبو سعيد مولى الحاجب جعفر فى المسجد الجامع بقربة عن أبي بكر . قرئ عن أبي جعفر النحاس عن سعيد بن بشر عن عمرو بن رافع

عن منصور عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرفاشي عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي ، قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد ، وتغريب سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم . فإِذَا لَشُنْعُهُ ذَنْبَ أَنْزَلَ اللَّهُ وَحْيَهُ مُبَيِّنًا بِالشَّهْرِ بِصَاحِبِهِ ، وَالْعَنْفَ بِفَاعِلِهِ ، وَالتَّشْدِيدَ لِمُقْتَرَفِهِ ، وَتَشَدَّدَ فِي الْآلِ يُرْجَمُ إِلَّا بِحَضْرَةِ أَوْلِيَائِهِ عَقُوبَةً رَجْمَهُ ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ إِجْمَاعًا لَا يَنْقُضُهُ إِلَّا مُلْحِدٌ أَنْ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ عَلَيْهِ الرِّجْمُ حَتَّى يَمُوتَ .

فِيهَا قَتْلُهُ مَا أَهْوَلَهَا ، وَعَقُوبَةُ مَا أَفْظَعَهَا ، وَأَشَدُّ عَذَابِهَا وَأَبْعَدُهَا مِنَ الْإِرَاحَةِ وَسُرْعَةِ الْمَوْتِ .

وطوائف من أهل العلم منهم الحسن بن أبي الحسن وابن راهويه وداود وأصحابه يرون عليه مع الرجم جلد مائة ، ويحتجُّون عليه بنص القرآن وثبات السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبفعل على رضي الله عنه بأنه رَجِمَ أَمْرَأَةٌ مُحْصَنَةٌ فِي الزَّانَا بَعْدَ أَنْ جُلِدَتْ مِائَةً . وَقَالَ : جُلِدَتْهَا بِكِتَابِ اللَّهِ وَرَجِمَتْهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ . وَالْقَوْلُ بِذَلِكَ لَازِمٌ لِأَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ ، لِأَنَّ زِيَادَةَ الْعَدْلِ فِي الْحَدِيثِ مَقْبُولَةٌ ، وَقَدْ صَحَّ فِي إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ الْمَنْقُولُ بِالْكَافَةِ الَّذِي يَصْحَبُهُ الْعَمَلُ عِنْدَ كُلِّ فِرْقَةٍ وَفِي أَهْلِ كُلِّ نَحْلَةٍ مِنْ نَحْلِ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، حَاشَى طَائِفَةَ يَسِيرَةٍ مِنَ الْخَوَارِجِ لَا يُعْتَدُّ بِهِمْ ، أَنَّهُ لَا يَحِلُّ دَمُ أَمْرِيٍّ مُسْلِمٍ إِلَّا بِكُفْرٍ بَعْدَ إِيمَانٍ ، أَوْ نَفْسٍ بِنَفْسٍ ، أَوْ بِمُحَارَبَةٍ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ يُشْهَرُ فِيهَا سَيْفُهُ وَيَسْعَى فِي الْأَرْضِ فُسَادًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ ، وَبِالزَّانَا بَعْدَ الْإِحْصَانِ . فَإِنْ حَدَّ مَا جَعَلَ اللَّهُ مَعَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ وَمُحَارَبَتَهُ وَقَطَعَ حُجَّتَهُ فِي الْأَرْضِ وَمُنَابَذَتَهُ دِينَهُ لِجُرْمٍ كَبِيرٍ وَمَعْصِيَةِ شِعْءٍ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُسْكَفَرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) . (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) وَإِنْ كَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ اخْتَلَفُوا فِي تَسْمِيَّتِهَا فَكُلُّهُمْ مُجْمَعٌ مِمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْهَا أَنَّ الزَّانَا يَقْدَمُ فِيهَا ،

لا اختلاف بينهم في ذلك ولم يُوعِد الله عز وجل في كتابه بالنار بعد الشرك إلا في سبع ذُنُوب ، وهي الكبائر : الزنا أحدها ، وقذف المحصنات أيضاً منها ، منصوصاً ذلك كله في كتاب الله عز وجل .

وقد ذكرنا أنه لا يجب القتل على أحد من ولد آدم إلا في الذنوب الأربعة التي تقدم ذكرها . فأما الكفر منها فإن عاد صاحبه إلى الإسلام أو بالذمة إن لم يكن مرتدّاً قبل منه ، ودُرِيَ عنه الموت . وأما القتل فإن قبل الولي الدية في قول بعض الفقهاء أو عفا في قول جميعهم سقط عن القاتل القتل بالقصاص . وأما الفساد في الأرض فإن تاب صاحبه قبل أن يُقَدَّر عليه هُدِر عنه القتل ، ولا سبيل في قول أحد مؤلف أو مخالف في ترك رَجْم المُحَصَّن ، ولا وجه لرفع الموت عنه البتة .

ومما يدل على شناعة الزنا ما حدثنا القاضي أبو عبد الرحمن : ثنا القاضي أبو عيسى عن عبد الله بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى عن الليث عن الزهري عن القاسم بن محمد بن أبي بكر عن عبيد بن عمير : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصاب في زمانه ناساً من هُذَيْل ، فخرجت جارية منهم فأتبعها رجل يُريدها عن نفسها فرمته بحجر فقضت كبده . فقال عمر : هَذَا قَتِيلُ اللَّهِ ، وَاللَّهِ لَا يُوَدَّى أَبَدًا .

وما جعل الله عز وجل فيه أربعة شهود وفي كل حكم شاهدين إلا حياطةً منه ألا تشبع الفاحشة في عباده ، لعظمها وشُنْعُهَا وقبحها ، وكيف لا تكون شنيعة ومن قذف بها أخاه المسلم أو أخته المسلمة دون صحة علم أو تيقن معرفة فقد أتى كبيرة من الكبائر أَسْتَحَقَّ عليها النار غدًا ، ووجب عليه بنص التنزيل أن تُضْرَب بشرته ثمانين صوتًا .

ومالك رضى الله عنه يرى ألا يُؤْخَذ في شيء من الأشياء حد بالتعريض دون التصريح إلا في قذف .

وبالسند المذكور عن الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد عن محمد بن عبد الرحمن عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أمر أن يُجلد الرجل قال لآخر : ما أبى بزنا ولا أمى بزانية .

في حديث طويل وبإجماع من الأمة كلها دون خلاف من أحد نعلمه أنه إذا قال رجل لآخر : يا كافر ، أو يا قاتل النفس التي حرم الله ، لما وجب عليه حد ؛ احتياطاً من الله عز وجل إلا ثبتت هذه العظيمة في مسلم ولا مسلمة . ومن قول مالك رحمه الله أيضاً أنه لا حد في الإسلام إلا والقتل يغني عنه وينسخه إلا حد القذف ، فإنه إن وجب على من قد وجب عليه القتل حد ثم قتل . قال الله تعالى : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدوهُم ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .) (إلا الذين تابوا) . وقال تعالى : (إِنْ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الغضب واللعنة المذكوران في اللعان إنيهما مُوجبتان .

حدثنا الهمداني عن أبي إسحاق عن محمد بن يوسف عن محمد بن إسماعيل عن عبد العزيز بن عبد الله ، قال : ثنا سليمان عن ثور بن يزيد عن أبي الغيث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ . قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وإن في الزنا من إباحة الحريم ، وإفساد النسل ، والتفريق بين الأزواج الذي عظم الله أمره ، ما لا يهون على ذى عقل أو من له أقل خلاق ، ولولا مكان هذا العنصر من الإنسان وأنه غير مأمون الغلبة لما خفف الله عن البكرين وشدد على المحصنين . وهذا عندنا وفي جميع الشرائع القديمة النازلة من عند الله عز وجل

حُكْمًا بَاقِيًا لَمْ يُنْسَخْ وَلَا أُزِيلَ ، فَيَتْرَكَ النَّازِرَ لِعِبَادِهِ الَّذِي لَمْ يَشْغَلْهُ عَظِيمٌ مَا فِي خَلْقِهِ وَلَا يَحِيفُ قُدْرَتُهُ كَبِيرٌ مَا فِي عَوَالِمِهِ عَنِ النَّظَرِ لِحَقِيرٍ مَا فِيهَا ، فَهُوَ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) . وَقَالَ : (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) . وَقَالَ : (عَالِمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) .

وإِنْ أَعْظَمَ مَا يَأْتِي بِهِ الْعَبْدُ هَتَكَ سِتْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادِهِ . وَقَدْ جَاءَ فِي حُكْمِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي ضَرْبِهِ الرَّجُلَ الَّذِي ضَمَّ صَبِيًّا حَتَّى أُمِنَ ضَرْبًا كَانَ سَبَبًا لِلْمَنِيَّةِ . وَمِنْ إِعْجَابِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بِاجْتِهَادِ الْأَمِيرِ الَّذِي ضَرَبَ صَبِيًّا مَكَّنَ رَجُلًا مِنْ تَقْبِيلِهِ حَتَّى أُمِنَ الرَّجُلُ ، ضَرْبَهُ إِلَى أَنْ مَاتَ ، مَا يَنْسَى شِدَّةَ دَوَاعِي هَذَا الشَّأْنِ وَأَسْبَابِهِ . وَالتَّزْيِيدُ فِي الْاجْتِهَادِ ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَرَاهُ فَهُوَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَتَّبِعُهُ عَلَى ذَلِكَ عَالَمٌ مِنَ النَّاسِ . وَأَمَّا الَّذِي نَذْهَبُ إِلَيْهِ فَالَّذِي حَدَّثَنَا هُذَيْفَةُ الْهَمْدَانِيُّ عَنِ الْبَلْخِيِّ عَنِ الْبُخَارِيِّ عَنِ الْفَرَبْرِ عَنِ الْبُخَارِيِّ قَالَ : ثَنَا يَحْيَى بْنُ سَلِمَانَ ، ثَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ بَكِيرٍ أَنَّ حَدَّثَهُ عَنْ سَلِمَانَ بْنِ يَسَارٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي بَرْدَةَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : لَا يُجْلَدُ فَوْقَ عَشْرَةِ أَسْوَاطٍ إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَبِهِ يَقُولُ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ النَّسَائِيُّ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَأَمَّا فِعْلُ قَوْمِ لُوطَ فَشَنِيعٌ بِشِيعٍ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) . وَقَدْ قَذَفَ اللَّهُ فَاعِلِيَهُ بِحِجَارَةٍ مِنْ طِينٍ مَسْوُومَةٍ . وَمَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ يَرَى عَلَى الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ بِهِ الرَّجْمَ أَحْصَيْنَا أَوْ لَمْ يُحْصَيْنَا . وَاحْتِجَّ بَعْضُ الْمَالِكِيِّينَ فِي ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي رَجْمِهِ فَاعِلِيَهُ بِالْحِجَارَةِ : وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبْعِيدٍ . فَوُجِبَ بِهَذَا أَنَّهُ مَنْ ظَلَمَ الْآنَ بِمِثْلِ فَعَلِهِمْ قَرُبَتْ مِنْهُ .

والخلاف في هذه المسألة ليس هذا موضعه . وقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم بن السري أن أبا بكر رضى الله عنه أحرق فيه بالنار . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى اسم المحرق فقال : هو شجاع بن ورقاء الأسدي أحرقه بالنار أبو بكر الصديق لأنه يؤتى في دبره كما تؤتى المرأة .

وان عن المعاصي للمذاهب للعقل واسعة ، فما حرم الله شيئاً إلا وقد عوض عباده من الحلال ما هو أحسن من المحرم وأفضل ، لا إله إلا هو .

وأقول في النهي عن اتباع الهوى على سبيل الوعظ :

أقول لنفسى ما مُبين كحالِكِ	وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكِ
صُنْ النفسَ عما عابها وارفضِ الهوى	فإنَّ الهوى مفتاحُ بابِ المهالكِ
رأيتُ الهوى سهلُ المبادى لذيتها	وعقباه مرَّ الطعمِ ضَمَكِ المسالكِ
فما لذَّةُ الإنسانِ والموتُ بعدها	ولو عاش ضِعْفَى عُمرِ نوح بنِ لامَكِ
فلا تَتَّبِعْ داراً قليلاً لبائِها	فقد أنذرتنا بالفناء المَواشِكِ
وما تَرَكْها إلا إذا هى أَمَكْتِ	وكم تاركٌ إضماره غير تاركِ
فما تاركُ الآمالِ عَجَباً جَوَازِراً	كتاركها ذاتِ الصُّروعِ الحَواشِكِ
وما قابلُ الأمرِ الذى كان راغِباً	بشهوةِ مُشتاقٍ وعقلِ مُبارِكِ
لأجدى عبادِ الله بالفوزِ عنده	لدى جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ فوقِ الأرائِكِ
ومن عَرَفَ الأمرَ الذى هو طالِبِ	رأى سَبباً ما فى يَدى كلِّ مالِكِ
ومن عَرَفَ الرحمنَ لم يَعْصِ أمرَه	ولو أنه يُعطى جميعَ المَمالِكِ
سبيلُ التَّقَى والنسكِ خيرُ المسالكِ	وسالِكها مُستبصرٌ خيرُ سالِكِ
فما فقدَ التَّنْغِيسَ من عاجِ دونِها	ولا طابَ عيشٌ لأمْرِى غيرِ سالِكِ
وطوبى لأقوامِ يَؤُمُّونَ نحوها	بِخَفَّةِ أرواحٍ وَلينِ عرائِكِ
لقد فَقَدُوا غَلَّ النفوسِ وَفُضِّلُوا	بِعزِ سلاطينِ وأَمَنِ صَمالِكِ
فَعاشُوا كما شَاءُوا وماتُوا كما أَشْتَمُوا	وفازُوا بدارِ الخُلدِ رَحِبِ المَبارِكِ

عَصُوا طَاعَةَ الْأَجْسَادِ فِي كُلِّ لَذَّةٍ بُنُورِ مَحَلِّ ظُلْمَةِ الْغَىِّ هَاتِكَ
فَلَوْلَا اعْتِدَادُ الْجِسْمِ أَقْبَتَ أَنْهَمُ يَعْيشُونَ عَيْشًا مِثْلَ عَيْشِ الْمَلَائِكَةِ
فِي رَبِّ قَدْ مَهَّمُ وَزِدَ فِي صَلَاحِهِمْ وَصَلَ عَلَيْهِمْ حَيْثُ حَلَّوْا وَبَارَكَ
وَيَا نَفْسَ جِدِّي لَا تَمَلِّي وَشَمَّرِي لَنَيْلِ سُرُورِ الدَّهْرِ فِيمَا هُنَاكَ
وَأَنْتِ مَتَى دَمَرْتَ سَعِيكَ فِي الْهَوَى عَلِمْتَ بِأَنَّ الْحَقَّ لَيْسَ كَذَلِكَ
فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ الشَّرِيعَةَ لِلْوَرَى بِأَبْيَنِ مِنْ زُهِرِ النُّجُومِ الشُّوَابِكِ
فِي نَفْسِ جِدِّي فِي خِلَاصِكَ وَأَنْفَذِي نَفَازَ السِّیُوفِ الْمُرْهَفَاتِ الْبَوَاتِكِ
فَلَوْ أَعْمَلَ النَّاسُ التَّفَكُّرَ فِي الَّذِي لَهُ خُلِقُوا مَا كَانَ حَتَّى بِضَاحِكَ

باب فضل التعفف

وَمَنْ أَفْضَلُ مَا يَأْتِيهِ الْإِنْسَانُ فِي حُبِّهِ التَّعَفُّفَ ، وَتَرَكَ رُكُوبَ الْمَعْصِيَةِ وَالْفَاحِشَةِ ،
وَأَلَّا يَرْغَبَ عَنْ مُجَازَاةِ خَالِقِهِ لَهُ بِالنَّعِيمِ فِي دَارِ الْمَقَامَةِ ، وَالْأَيَّاصِ مَوْلَاهُ الْمُتَفَضِّلُ
عَلَيْهِ الَّذِي جَعَلَ لَهُ مَكَانًا وَأَهْلًا لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ . وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رُسُلَهُ وَجَعَلَ كَلَامَهُ
ثَابِتًا لَدَيْهِ ، عُنَايَةً مِنْهُ بِنَا وَإِحْسَانًا إِلَيْنَا . وَإِنْ مِنْ هَامٍ قَلْبُهُ وَشُغْلٌ بِالْهَوَى وَأَشْدُّ
شَوْقُهُ وَغَضَبُهُ وَجَدَهُ ثُمَّ ظَفَرَ فَرَامَ هَوَاهُ أَنْ يَغْلِبَ عَقْلَهُ وَشَهْوَتَهُ ، وَأَنْ يَقْهَرَ دِينَهُ ،
ثُمَّ أَقَامَ الْعَدْلَ لِنَفْسِهِ حَصْنًا ، وَعَلِمَ أَنَّهَا النَّفْسُ الْأَمَارَةُ بِالسُّوءِ ، وَذَكَرَهَا بِعِقَابِ اللَّهِ
تَعَالَى وَفَكَرَ فِي أَجْرَائِهِ عَلَى خَالِقِهِ وَهُوَ يَرَاهُ ، وَحَذَرَهَا مِنْ يَوْمِ الْمَعَادِ وَالْوُقُوفِ
بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ الشَّدِيدِ الْعِقَابِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيِّنَةٍ ،
وَنَظَرَ بَعِينَ ضَمِيرِهِ إِلَى انْفِرَادِهِ عَنْ كُلِّ مَدَافِعٍ بِحُضْرَةِ عَلَامَةِ الْغُيُوبِ (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ
مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) . (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرِ
الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ) . (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحَضَّرًا وَمَا
عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا) . (يَوْمَ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ
الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) . (يَوْمَ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ
رَبُّكَ أَحَدًا) يَوْمَ الطَّامَةِ الْكُبْرَى ، (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى وَبَرَزَتْ

الجحيم لمن يرى فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) واليوم الذي قال الله تعالى فيه : (وكلّ إنسان ألزمناه طائفة في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) عندها يقول العاصي : يا ويلتي ! ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فكيف بمن طوى قلبه على آخر من بحر الغنى . وطوى كسحه على أحد من السيف ، وتجرّع غصصاً أمر من الحنظل ، وصرف نفسه كرهاً عما طمعت فيه وتيقنت ببلوغه وتهيات له ولم يحل دونها حائل ، لخرى أن يسرّ غداً يوم البعث ويكون من المقربين في دار الجزاء وعالم الخلود ، وأن يأمن روعات القيامة وهول المطلع ، وأن يعوّضه الله من هذه القرحة الأمن يوم الحشر .

حدثني أبو موسى هارون بن موسى الطيب قال : رأيت شاباً حسن الوجه من أهل قرطبة قد تعبد ورفض الدنيا ، وكان له أخ في الله قد سقطت بينهما مؤونة التحفظ ، فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده ، فعرضت لصاحب المنزل حاجة إلى بعض معارفه بالبعد عن منزله . فنهض لها على أن ينصرف مُسرِعاً . ونزل الشاب في داره مع أمراته ، وكانت غاية في الحسن وترباً للضيف في الصبي ، فأطال رب المنزل للمقام إلى أن مشى العسس ولم يُمكنه الانصراف إلى منزله ، فلما علمت المرأة بقوات الوقت وأن زوجها لا يمكنه الحجيء تلك الليلة تآقت نفسها إلى ذلك الفتى فبرزت إليه ودعته إلى نفسها ، ولا ثالث لها إلا الله عز وجل ، فهم بها ثم تاب إليه عقله وفكر في الله عز وجل فوضع إصبعه على السراج فتفقق ثم قال : يا نفس ، ذوق هذا وأين هذا من نار جهنم . فهال المرأة ما رأت ، ثم عاودته فعاودته الشهوة المركبة في الإنسان فعاد إلى الفعلة الأولى . فانباج الصباح وسبأته قد اصطلمتها النار .

أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لقرط شهوة قد كلبت عليه ؟ أو ترى

أن الله تعالى يضيّع له المقام ؟ كلا إنه لا كرم من ذلك وأعلم .
ولقد حدثتني امرأة أثق بها أنها علقها فتى مثلها من الحُسن وعلقتة وشاع
القولُ عليهما ، فأجتمعما يوماً خاليتين فقال : هلمى نحقق ما يقال فينا . فقالت :
لا والله لا كان هذا أبداً . وأنا أقرأ قول الله : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض
عدوٌّ إلا المتقين) . قالت . فما مضى قليل حتى اجتمعما في حلال .

ولقد حدثتني ثقة من إخواني أنه خلا يوماً بجارية كانت له مفارقة في الصبي ،
فتعرضت لبعض تلك المعاني ، فقال لها : كلا ، إن من شكر نعمة الله فيما مَنَحني
من وصالك الذي كان أقصى آمالي أن أجتنب هواي لأمره . ولعمري إن هذا
لغريب فيما خلا من الأزمان ، فكيف في مثل هذا الزمان الذي قد ذهب خيره
وأتى شره .

وما أقدر في هذه الأخبار -- وهي صحيحة -- إلا أحد وجهين لاشك فيهما :
إما طبع قد مال إلى غير هذا الشأن واستحكمت معرفته بفضل سواه عليه فهو
لا يُجيب دواعي الغزل في كلمة ولا كلمتين ولا في يوم ولا يومين ، ولو طال على
هؤلاء الممتحنين ما أمتحنوا به لجادت طباعهم وأجابوا هاتف الفتنة ، ولكن الله
عصمهم بانقطاع السبب المحرك نظراً لهم وعلماً بما في ضمائرهم من الاستعاذة به
من القبائح ، وأستدعاء الرشد . لا إله إلا هو .

وإما بصيرة حضرت في ذلك الوقت ، وخاطر تجرد أنعمت به طوابع الشهوة
في ذلك الحين ، لخير أراد الله عز وجل لصاحبه . جعلنا الله ممن يخافه
ويرجوه . آمين .

وحدثني أبو عبد الله محمد بن عمرو بن مضاء عن رجال من بني مروان ثقات
يسندون الحديث إلى أبي العباس الوليد بن غانم أنه ذكر أن الإمام عبد الرحمن
ابن الحَكَم غاب في بعض غزواته شهوراً وثقف القصر بابنه محمد الذي ولي الخلافة
بعده ورتبه في السطح وجعل مَبيتَه ليلاً وقعوده نهراً فيه ، ولم يأذن له في الخروج

البتة . ورتب معه في كل ليلة وزيراً من الوزراء وفتى من أكابر الفتیان يديتان معه في السطح . قال أبو العباس : فأقام على ذلك مدة طويلة وبعده بأهله وهو في سن العشرين أو نحوها ، إلى أن وافق مبيتي في ليلتي نوبة فتى من أكابر الفتیان ، وكان صغيراً في سنه وغاية في حسن وجهه . قال أبو العباس : فقلت في نفسي : إني أخشى الليلة على محمد بن عبد الرحمن الهلاك بمواقعة المعصية وتزيين إبليس وأتباعه له . قال : ثم أخذت مضجعي في السطح الخارج ومحمد في السطح الداخل المأطل على حرم أمير المؤمنين ، والفتى في الطرف الثاني القريب من المطلع فظللت أرقبه ولا أغفل وهو يظن أنني قد نمت ولا يشعر باطلاعى عليه . قال : فلما مضى هزيع من الليل رأيته قد قام وأستوى قاعداً ساعة لطيفة ثم تعوذ من الشيطان ورجع إلى منامه . ثم قام بعد حين وألبس قيصره وأستوفز ثم نزعه عن نفسه وعاد إلى منامه . ثم قام الثالثة وألبس قيصره ودلى رجله من السرير وبقي كذلك ساعة ثم نادى الفتى بأسمه فأجابه ، فقال له : انزل عن السطح وأبق في الفصيل الذي تحته . فقام الفتى مؤتمراً له . فلما نزل قام محمد وأغلق الباب من داخله وعاد إلى سريره . قال أبو العباس : فعلمت من ذلك الوقت أن الله فيه مراد خير .

حدثنا أحمد بن محمد بن الجصور عن أحمد بن مطرف عن عبيد الله بن يحيى عن أبيه عن مالك عن حبيب بن عبد الرحمن الأنصارى عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : سبعة يُظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعتة امرأة ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق صدقة فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) .

وإني أذكر أني دعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار صورته
وتألف القلوب أخلاقه ، للحديث والجمالة دون منكر ولا مكروه ، فسارعت إليه
وكان هذا سحراً . فبعد أن صليت الصبح وأخذت زيتي طرقتي فكرت فسنحت
لي أبيات ، ومعى رجل من إخواني فقال لي : ما هذا الإطراق ؟ فلم أجبه
حتى أكملتها ، ثم كتبتها ودفعتها إليه وأمسكت عن السير حيث كنت نويت .
ومن الأبيات :

أراقك حُسنَ غيبه لك تَأْرِيقُ وتبريد وصل سره فيك تحْرِيقُ
وقرب مزار يقتضى لك فرقة وشيكاً ولولا القرب لم يك تفريق
ولذة طعم مُعقب لك علقماً وصاباً وفصح في تضاعيفه ضيق

ولولم يكن جزاء ولا عقاب ولا ثواب لوجب علينا إفناء الأعمار وإتعب
الأبدان وإجهد الطاقة وأستنفاد الوسع وأستفراغ القوة في شكر الخالق الذي
أبتدأنا بالنعم قبل أستنهلها ، وأمتن علينا بالعقل الذي به عرفناه ، ووهبنا الحواس
والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات ، وصرف لنا السموات جارية بمنافعها ، ودبرنا
التدبير الذي لو ملكنا خلقنا لم نهتد إليه ، ولا نظرنا لأنفسنا نظره لنا ، وفضلنا على
أكثر مخلوقات ، وجعلنا مستودع كلامه ومستقر دينه ، وخلق لنا الجنة دون أن
نستحقها ، ثم لم يرض لعباده أن يدخلوها إلا بأعمالهم لتكون واجبة لهم ، قال
الله تعالى : (جزاء بما كانوا يعملون) . ورشدنا إلى سبيلها وبصّرنا وجه ظلّها ،
وجعل غاية إحسانه إلينا وأمتنانه علينا حقاً من حقوقنا قبله ، وديناً لازماً له ،
وشكرنا على ما أعطانا من الطاعة التي رزقنا قواها ، وأتابنا بفضلِهِ على تفضله .

هذا كرم لا تهتدى إليه العقول ، ولا يمكن أن تكيّفه الأبواب . ومن عرف
ربه ومقدار رضاه وسخطه هانت عنده اللذات الذاهية والحطام الفاني ، فكيف
وقد أتى من وعيده ما تقشعرّ لسماعه الأجساد ، وتذوب له النفوس ، وأورد علينا
من عذابه ما لم يئته إليه أمل فأين المذهب عن طاعة هذا الملك الكريم ،

وما الرغبة في لذة ذاهبة لا تذهب الندامة عنها ، ولا تفني التباعة منها ، ولا يزول
الخرى عن رآكبها ، وإلى كم هذا التمدى وقد أسمعنا المنادى ، وكأن قد حدا بنا
الحادى إلى دار القرار ، فإما إلى جنة وإما إلى نار ، ألا إن التنبط في هذا المكان
لهو الضلال المبين . وفي ذلك أقول :

أَقْصَرَ عَنْ لَهْوِهِ وَعَنْ طَرَبِهِ	وَعَفَّ فِي حُبِّهِ وَفِي عُرْبِهِ
فَلَيْسَ شُرْبُ الْمُدَامِ هِمَّتَهُ	وَلَا اقْتِنَاصُ الظَّيَالِ مِنْ أَرَبِهِ
قَدْ آتَى الْقَلْبَ أَنْ يُفِيقَ وَأَنْ	يُزِيلَ مَا قَدْ عَلَاهُ مِنْ حُجْبِهِ
أَلْهَاهُ عَمَّا عَهْدَتْ يُعْجِبُهُ	خَيْفَةُ يَوْمٍ تُبْلَى السَّرَائِرُ بِهِ
يَأْنَسُ جَدَى وَشَمْرَى وَدَعَى	عَنْكَ اتِّبَاعَ الْهَوَى عَلَى لَعْبِهِ
وَسَارِعَى فِي النَّجَاةِ وَأُجْهَدَى	سَاعِيَةً فِي الْخِلَاصِ مِنْ كُرْبِهِ
عَلَى أَحْطَى بِالْفَوْزِ فِيهِ وَأَنْ	أَنْجُوَ مِنْ ضَيْقِهِ وَمَنْ لَهْبِهِ
يَأْيِسُ اللَّاعِبُ الْمُجْدُ بِهِ أَلَا	دَهْرٌ أَمَا تَتَّقَى شَبَابَ نَكْبِهِ
كَفَاكَ مِنْ كُلِّ مَا وَعُظْتَ بِهِ	مَا قَدْ أَرَاكَ الزَّمَانُ مِنْ عَجْبِهِ
دَعِ عَنْكَ دَارًا تَفْنَى غَضَارَتَهَا	وَمَكْسَبًا لَاعِبًا بِمُكْسَبِهِ
لَمْ يَضْطَرْبْ فِي مَحَلِّهَا أَحَدٌ	إِلَّا نَبَا حَدَّثَهَا بِمُضْطَرَبِهِ
مَنْ عَرَفَ اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَةٍ	لَوْى وَحَلَّ الْفُؤَادَ فِي رَهْبِهِ
مَا مُنْقَضِ الْمُلْكِ مِثْلَ خَالِدِهِ	وَلَا صَحِيحِ التَّقَى كَمُؤْتَشَبِهِ
وَلَا تَقَى الْوَرَى كَفَاسِقِهِمْ	وَلَيْسَ صِدْقُ الْكَلَامِ مِنْ كَذْبِهِ
فَلَوْ أَمْنًا مِنَ الْعِقَابِ وَلَمْ	نَخْشَ مِنَ اللَّهِ مُتَّقَى غَضَبِهِ
وَلَمْ نَخَفْ نَارَهُ الَّتِي خُلِقَتْ	لِكُلِّ جَانِي الْكَلَامِ مُحْتَقَبِهِ
لَكَافَ فَرَضًا لَزُومَ طَاعَتِهِ	وَرَدُّ وَفْدِ الْهَوَى عَلَى عَقَبِهِ
وَصَحَّةُ الزَّهْدِ فِي الْبَقَاءِ وَأَنْ	يَلْحَقَ تَفْنِيدُنَا بِمُرْتَقَبِهِ
فَقَدْ رَأَيْنَا فِعْلَ الزَّمَانِ بِأَهْدٍ	لَهُ كَفَعَلَ الشُّوَاطِ فِي خَطْبِهِ

كم مُتَعِبٍ فِي الْإِلَهِ مُهَبَّتِهِ رَاحَتُهُ فِي الْكَرِيهِ مِنْ تَعَبِهِ
 وَطَالِبٍ بِأَجْتِهَادِهِ زَهْرَ الْ دُنْيَا عَدَاهُ الْمَنُونِ عَنْ طَلْبِهِ
 وَمُدْرِكٍ مَا أَبْتَغَاهُ ذِي جَدَلٍ حَلَّ بِهِ مَا يَخَافُ مِنْ سَبَبِهِ
 وَبَاحِثٍ جَاهِدٍ لِبُعَيْتِهِ فَإِنَّمَا بَحْثُهُ عَلَى عَظْبِهِ
 بَيْنَا تَرَى الْمَرْءَ سَامِيًا مَدَكًا صَارَ إِلَى السُّفْلِ مِنْ ذُرَى رُتْبِهِ
 كَالزَّرْعِ لِلرَّجُلِ فَوْقَهُ عَمَلٌ أَنْ يَنْهَمَ حُسْنَ الثَّمَوِ فِي قَصْبِهِ
 كَمْ قَاطَعَ نَفْسَهُ أَسَى وَشَجَا فِي إِثْرٍ جَدٍّ يَجِدُّ فِي هَرَبِهِ
 أَلَيْسَ فِي ذَاكَ زَاجِرٌ عَجَبٌ يَزِيدُ ذَا اللَّبِّ فِي حُلَى أَدْبِهِ
 فَكَيْفَ وَالنَّارُ لِلْمُسَىءِ إِذَا عَاجَ عَنِ الْمُسْتَقِيمِ مِنْ عَقْبِهِ
 وَيَوْمَ عَرَّضَ الْحِسَابُ يَفْضَحُهُ لَهُ وَيُبْدِي الْخَفَى مِنْ رَيْبِهِ
 مَنْ قَدْ حَبَاهُ الْإِلَهِ رَحْمَتَهُ مَوْصُولَةً بِالْمَزِيدِ مِنْ نَشْبِهِ
 فَصَارَ مِنْ جَهْلِهِ يَصْرَفُهَا فَيَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فِي كُتْبِهِ
 أَلَيْسَ هَذَا أَحْرَى الْعِبَادِ غَدَاً بِالْوَقْعِ فِي وَايِلِهِ وَفِي حَرَبِهِ
 شُكْرًا لِرَبِّ لَطِيفٍ قُدْرَتُهُ فَيُنَا كَحَبْلِ الْوَرِيدِ فِي كُتْبِهِ
 رَازِقُ أَهْلِ الزَّمَانِ أَجْمَعِهِمْ مَنْ كَانَ مِنْ عُجْبِهِ وَمِنْ عَرَبِهِ
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي تَفَضُّلِهِ وَقَمَعَهُ لِلزَّمَانِ فِي نَوْبِهِ
 أَخْدَمْنَا الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ وَمَنْ فِي الْجَوِّ مِنْ مَائِهِ وَمِنْ شُهْبِهِ
 فَاسْمَعِ وَدَعْ مَنْ عَصَاهُ نَاحِيَةً لَا يَحْمِلُ الْحَمْلَ غَيْرُ مُحْتَطَبِهِ

وَأَقُولُ أَيْضًا :

أَعَارَتْكَ دُنْيَا مُسْتَرَدٍّ مُعَارَهَا غَضَارَةُ عَيْشٍ سَوْفَ يَذْوِي أَخْضَارُهَا
 وَهَلْ يَتَمَنَّى الْمُحْكَمُ الرَّأْيَ عَيْشَةً وَقَدْ حَانَ مِنْ دُهِمِّ الْمَنَايَا مَزَارُهَا
 وَكَيْفَ تَلَذُّ الْعَيْنُ هُجْمَةً سَاعَةً وَقَدْ طَالَ فِيهَا عَايِنَتُهُ أُعْتِبَارُهَا
 وَكَيْفَ تَقَرُّ النَّفْسُ فِي دَارِ نُقْلَةٍ قَدْ اسْتَيْقَنْتَ أَنْ لَيْسَ فِيهَا قَرَارُهَا

وَأَتَى لَهَا فِي الْأَرْضِ خَاطِرُ فِكْرَةٍ
أَلَيْسَ لَهَا فِي السَّعْيِ لِلْفَوْزِ شَاغِلٌ
خَفَاتِ نَفُوسٌ قَادَهَا لَهْوُ سَاعَةٍ
لَهَا سَائِقٌ حَادٍ حَثِيثٌ مُبَادِرٌ
تُرَادُ لِأَمْرِ وَهْيِ تَطَلُّبٍ غَيْرِهِ
أُمْسِرَعَةٌ فِيمَا يَسُوءُ قِيَامُهَا
تَعْطَلُ مَفْرُوضًا وَتَعْنِي بِفَضْلَةٍ
إِلَى مَا لَهَا مِنْهُ الْبَلَاءُ سَكُونُهَا
وَتُعْرَضُ عَنْ رَبِّ دَعَاها الرُّشْدُهَا
فِي أَيِّهَا الْمَرُورُ بَادِرٌ بِرَجْعَةٍ
وَلَا تَتَخَيَّرُ فَانِيًا دُونَ خَالِدٍ
أَتَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ فِيمَا تَرْكَبْتَهُ
وَتَتْرَكَ بَيِّضَاءَ الْمَنَاهِجِ ضَلَّةً
تُسَرُّ بِلَهْوٍ مُعَقَّبٍ بِنَدَامَةٍ
وَتُفْنَى اللَّيَالِي وَالْمَسَرَّاتِ كُلِّهَا
فَهَلْ أَنْتِ يَا مَغْبُوبُونَ مُسْتَيْقِظَةٌ فَقَدْ
فَعَجَّلَ إِلَى رِضْوَانِ رَبِّكَ وَأَجْتَنَبَ
يَجِدُ مُرُورَ الدَّهْرِ عِنْسَكَ بِلَاعِبٍ
فَكَمْ أُمَةٍ قَدْ غَرَّتْهَا الدَّهْرُ قَبْلُنَا
تَذَكَّرْ عَلَى مَا قَدْ مَضَى وَأَعْتَبِرْ بِهِ
تَحَامَى ذَرَاهَا كُلِّ بَاغٍ وَطَالِبٍ
تَوَافَتْ بَيْطُنَ الْأَرْضِ وَأَنْشَتْ شَمْلُهَا

وَلَمْ تَذَرِ بَعْدَ الْمَوْتِ أَيْنَ مَحَارِهَا
أَمَا فِي تَوْقِيهَا الْعَذَابَ أَزْدَجَارُهَا
إِلَى حَرٍّ نَارٍ لَيْسَ يُطْفِئُ أَوَارُهَا
إِلَى غَيْرِ مَا أَضْحَى إِلَيْهِ مَدَارُهَا
وَتَقْصِدُ وَجْهًا فِي سِوَاهِ سَفَارُهَا
وَقَدْ أَقْنَعْتُ أَنَّ الْعَذَابَ قَصَارُهَا
لَقَدْ شَفَهَا طُفْيَانُهَا وَأَغْتَارُهَا
وَعَمَّا لَهَا مِنْهُ النِّجَاحُ نِفَارُهَا
وَتَتَّبِعُ دُنْيَا جَدَّةٍ عَنْهَا فِرَارُهَا
فَلِلَّهِ دَارٌ لَيْسَ تَخْضَعُ نَارُهَا
دَلِيلٌ عَلَى مَحْضِ الْعُقُولِ اخْتِيَارُهَا
وَتَسْلُكِ سُبُلًا لَيْسَ يَخْفَى عَوَارُهَا
لِبَهْمَاءٍ يُؤْذِي الرَّجُلَ فِيهَا عَثَارُهَا
إِذَا مَا أَنْقَضَى لَا يَنْقُضِي مُسْتَثَارُهَا
وَتَبْقَى تِبَاعَاتُ الذُّنُوبِ وَعَارُهَا
تَبِينُ مِنْ سَرِّ الْخُطُوبِ أَسْتِثَارُهَا
نَوَاهِيهِ إِذْ قَدْ تَجَلَّى مَنَارُهَا
وَتُفَرِّقُ بِدُنْيَا سَاءَ فَيْكِ سِرَارُهَا
وَهَاتِيكَ مِنْهَا مُقَرَّرَاتُ دِيَارُهَا
فَإِنَّ الْمَذَكِّيَ لِلْعُقُولِ اعْتِبَارُهَا
وَكَانَ ضِمَانًا فِي الْأَعَادَى اتِّصَارُهَا
وَعَادَ إِلَى ذِي مِلْكَةٍ اسْتِعَارُهَا (١)

وكم راقد في غفلة عن منية
ومظلمة قد نالها منسلط
أراك إذا حاولت دُنْيَاكَ ساعياً
وفي طاعة الرحمن يُقَعِّدُكَ الونى
تحاذر إخواناً ستفنى وتنقضى
كأنى أرى منك التبرم ظاهراً
هناك يقول المرء من لى بأعصر
تنبه اليوم قد أظلك ورده
تبرأ فيه منك كل مُخالط
فأودعت في ظلماء ضنك مقرها
تنادى فلا تدرى المنادى مفرداً
تنادى إلى يوم شديد مُقْزِع
إذا حُشِرَتْ فيه الوحوش وُجِعَتْ
وزينت الجنّات فيه وأزلقت
وكوّرت الشمس المنيرة بالضحى
لقد جلّ أمر كان منه أنظامها
وسيرت الأجيال والأرض بدلت
فإما لدار ليس يفنى نعيمها
بحضرة جبّار رفيق مُعاقب
ويندم يوم البعث جاني صغارها
ستغبط أجساد وتُحيا نفوسها
إذا حَقَّقَهُمْ عَفْوُ الإله وفضله
سيلحقهم أهل الفسوق إذا استوى

مشمرة في القصد وهو سعارها
مدلّ بأيدي عند ذى العرش ثارها
على أنها بادٍ إليك أزوارها
وتبدي أناة لا يصحّ اعتذارها
وتنسى التي فرض عليك حذارها
مبيناً إذا الأقدار حلّ اضطرارها
مضت كان ملكاً في يدي خيارها
عصيب يوافي النفس فيها احتضارها
وإن من الآمال فيه أنهارها
يلوح عليها للعيون أغبرارها
وقد حُطَّ عن وجه الحياة خمارها
وساعة حشر ليس يخفى أشتارها
صحائفنا وأثال فينا أنتشارها
وأذكى من نار الجحيم أشتعارها
وأسرع من زهر النجوم أنكدارها
وقد حلّ أمر كان منه أنتثارها
وقد عطّلت من مالكيها عشارها
وإما لدار لا يُفك إسارها
فتحصي المعاصي كبرها وصغارها
وتهلك أهلها هناك ككارها
إذا ما أَسْتَوَى إسرارها وجِهارها
وأسكنهم داراً حلالاً عُقارها
بَحْلَبَةِ سَبَقِ طَرْفِهَا وحمارها

يُفَرِّقُ بَنُو الدُّنْيَا بَدُنِيَاهُمْ الَّتِي
هِيَ الْأُمُّ خَيْرُ الْبَرِّ فِيهَا عَقُوقُهَا
فَمَا نَالَ مِنْهَا الْحَظَّ إِلَّا مَهِينُهَا
تَهَافَّتَ فِيهَا طَامِعٌ بَعْدَ طَامِعٍ
تَطَامَنُ لَغَمْرِ الْحَادِثَاتِ وَلَا تَكُنْ
وَيَاكَ أَنْ تَغْتَرَّ مِنْهَا بِمَا تَرَى
رَأَيْتُ مُلُوكَ الْأَرْضِ يَبْغُونَ عُدَّةً
وَحَلُّوا طَرِيقَ الْقَصْدِ فِي مُبْتَغَاهُمْ
وَأَنْ الَّتِي يَبْغُونَ نَهَجَ بَقِيَّةِ
هَلِ الْعِزُّ إِلَّا هِمَّةٌ صَحَّ صَوْنُهَا
وَهَلِ رَاجِحٌ إِلَّا أَمْرٌ مُتَوَكِّلٌ
وَيَلْقَى وَلَاةَ الْمَلِكِ خَوْفًا وَفِكْرَةً
عَيَانًا نَرَى هَذَا وَلَكِنْ سَكْرَةً
تَدْبُرُ مِنَ الْبَانِي عَلَى الْأَرْضِ سَقْفَهَا
وَمَنْ يَمْسِكُ الْأَجْرَامَ وَالْأَرْضَ أَمْرُهُ
وَمَنْ قَدَّرَ التَّدْيِيرَ فِيهَا بِحِكْمَةٍ
وَمَنْ فَتَقَّ الْأَمْوَالَ فِي صُفْحِ وَجْهِهَا
وَمَنْ صَيَّرَ الْأَلْوَانَ فِي نَوْرِ نَبْتِهَا
فَمَنْهَنْ مَخْضَرٌّ يَرُوقُ بِصَيِّصِهِ
وَمَنْ حَفَرَ الْأَنْهَارَ دُونَ تَكَلُّفٍ
وَمَنْ رَتَّبَ الشَّمْسَ الْمُنِيرَ أَيْضَاضِهَا
وَمَنْ خَلَقَ الْأَفْلاكَ فَا مَتَدَّ جَرِيهَا

يُظَنُّ عَلَى أَهْلِ الْحُظُوطِ اقْتِصَارُهَا
وَلَيْسَ بِغَيْرِ الْبَذْلِ يُحْمَى ذِمَارُهَا
وَمَا الْهَلَكُ إِلَّا قَرْبُهَا وَاعْتِمَارُهَا
وَقَدْ بَانَ لِلُّبُ الذِّكْرُ اخْتِبَارُهَا
لَهَاذَا اعْتِمَارَ يَحْتَنِيكَ غَمَارُهَا
فَقَدْ صَحَّ فِي الْعَقْلِ الْجَلِيُّ عِيَارُهَا
وَلَذَّةُ نَفْسٍ يُسْتَطَابُ أُجْتَارُهَا
لِمُتَبِعِهِ الصَّفَارُ جَمَّ صَغَارُهَا
مَكِينُ لُطْلَابِ الْخِلَاصِ اخْتِصَارُهَا
إِذَا صَانَ هَمَّاتِ الرِّجَالِ انْكَسَارُهَا
قَنُوعٌ غَنَى النَّفْسَ بَادٍ وَقَارُهَا
تَضِيقُ بِهَا ذُرْعًا وَيَفْنَى اصْطِبَارُهَا
أَحَاطَتْ بِهَا مَا إِنْ يُفْنِقُ خُفَارُهَا
وَفِي عِلْمِهِ مَعْمُورُهَا وَقِفَارُهَا
بَلَا عَمَدٍ يُدْنِي عَلَيْهِ قَرَارُهَا
فَصَحَّ لَدَيْهَا لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا
فَمِنْهَا يَغْدَى حَبِّهَا وَثَمَارُهَا
فَأَشْرَقَ فِيهَا وَرَدُّهَا وَبَهَارُهَا
وَمِنْهَا مَا يَغْشَى اللَّحَاطُ أَحْمَارُهَا
فَنَارُ مِنَ الصَّمِّ الصَّلَابِ انْفِجَارُهَا
غَدَا وَبِيدُو بِالْعَشَى أَصْفَارُهَا
وَأَحْكَمَهَا حَتَّى أَسْتَقَامَ مَدَارُهَا

وَمَنْ إِنْ أَلَمْتَ بِالْعُقُولِ رِزِيَّةً فَلَيْسَ إِلَى حَى سِوَاهُ أَفْتَقَارُهَا
تَجِدُ كُلَّ هَذَا رَاجِعٌ نَحْوَ خَالِقِ لَهُ مُلْكُهَا مُنْقَادَةٌ وَائْتِمَارُهَا
أَبَانَ لَنَا الْآيَاتِ فِي أَنْبِيَائِهِ فَأَمَكْنَ بَعْدَ الْعَجْزِ فِيهَا اقْتِدَارُهَا
فَانْطَقَ أَفْوَاهًا بِالْفَظَاظِ حِكْمَةً وَمَا حَلَّهَا إِيثَارُهَا وَأَتْفَارُهَا
وَأَبْرَزَ مِنْ صُفْمِ الْحِجَارَةِ نَاقَةً وَأَسْمَعَهُمْ فِي الْحَيْنِ مِنْهَا حُورُهَا
لِيُوقِنَ أَقْوَامٌ وَتَكْفُرَ عُصْبَةٌ أَنَاهَا بِأَسْبَابِ الْهَلَاكِ قِدَارُهَا
وَشَقَّ لِمُوسَى الْبَحْرَ دُونَ تَكْلَفِ وَبَانَ مِنَ الْأَمْوَاجِ فِيهِ انْحِسَارُهَا
وَسَلَّمَ مِنْ نَارِ الْأَنْوَقِ خَلِيلَهُ فَلَمْ يُؤْذِهِ إِحْرَاقُهَا وَأَعْتَارُهَا
وَنَجَّى مِنَ الطُّوفَانِ نُوحًا وَقَدْ هَدَّتْ بِهِ أُمَّةٌ أَبَدَى الْفُسُوقِ شِرَارُهَا
وَمَكَّنَ دَاوُدًا بِأَيْدِيهِ وَابْنَهُ فَتَعَسَّرَ بِهَا مُلْقَى لَهُ وَبِدَارُهَا
وَذَلَّ جِبَّارُ الْبِلَادِ لِأَمْرِهِ وَعَلَّمَ مِنْ طَيْرِ السَّمَاءِ حِوَارُهَا
وَفَضَّلَ بِالْقُرْآنِ أُمَّةَ أَحَدٍ وَمَكَّنَ فِي أَقْصَى الْبِلَادِ مُغَارُهَا
وَشَقَّ لَهُ بَدْرُ السَّمَاءِ وَخَصَّهُ بِآيَاتِ حَقٍّ لَا يَخُلُ مُعَارُهَا
وَأَنْقَذَنَا مِنْ كُفْرٍ أَرَبَانَا بِهِ وَكَانَ عَلَى قُطْبِ الْهَلَاكِ مَنَارُهَا
فَمَا بَالُنَا لَا نَتْرِكُ الْجَهْلَ وَيُنْحَنَا لِنَسْلَمَ مِنْ نَارٍ تَرَامِي شَرَارُهَا

هنا أعزك الله انتهى ما تذكرته إيجاباً لك ، وتقمناً لمسرتك ، ووقوفاً عند أمرك . ولم أمتنع أن أورد لك في هذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراء ويكثرون القول فيها ، موفيات على وجوهها ، ومفردات في أبوابها ، ومنعمات التفسير ، مثل الإفراط في صفة النحول ، وتشبيه الدموع بالأمطار وأنها تروى السفار ، وعدم النوم البتة ، وانقطاع الغذاء جملة ، إلا أنها أشياء لاحقيقة لها ، وكذب لا وجه له ، ولكل شيء حد ، وقد جعل الله لكل شيء قدراً . والنحول قد يعظم ولو صار حيث يصفونه لكان في قوام الذرة أو دونها ، ونخرج عن حد المعقول . والسهر قد يتصل ليالي ، ولكن لو عدم الغذاء أسبوعين هلاك . وإنما قلنا إن الصبر عن النوم

أقل من الصبر عن الطعام ؛ لأن النوم غذاء الروح والطعام غذاء الجسد ، وإن كانا يشتركان في كليهما ولكننا حكينا على الأغلب . وأما الماء فقد رأيت أن ميسوراً البناء جارنا بقرطبة يصبر عن الماء أسبوعين في حمارة القيظ ويكتفى بما في غذائه من رطوبة .

وحدثني القاضي أبو عبد الرحمن بن جحاف أنه كان يعرف من كان لا يشرب الماء شهراً .

وإنما اقتصرت في رسالتي على الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجود سواها أصلاً ، وعلى أنني قد أوردت من هذه الوجوه المذكورة أشياء كثيرة يكتفى بها لئلا أخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم . وسيرى كثير من إخواننا أخباراً لهم في هذه الرسالة مكنياً فيها من أسمائهم على ما شرطنا في ابتدائها . وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتب المَلَكُان ويحصىه الرقيبان من هذا وشبهه ، استغفار من يعلم أن كلامه من عمله . ولكنه إن لم يكن من اللغو الذي لا يؤاخذ به المرء فهو إن شاء الله من اللّم المعفو ، وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب . وعلى كل حال فليس من الكبائر التي ورد النص فيها .

وأنا أعلم أنه سينكر على بعض المتعصبين على تأليفي لمثل هذا ويقول : إنه خالف طريقته ، وتجافى عن وجهته ، وما أحل لأحد أن يظن في غير ما قصدته ، قال الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) .

وحدثني أحمد بن محمد بن الجسوري ، ثنا بن أبي دليم ، ثنا ابن وضاح عن يحيى ابن مالك بن أنس عن أبي الزبير المكي عن أبي شريح السكبي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إياكم والظن فإنه أكذب الكذب .

وبه إلى مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن الأعرج عن أبي هريرة

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت .

وحدثني صاحبي أبو بكر محمد بن إسحاق ، ثنا عبد الله بن يوسف الأزدي ، ثنا يحيى بن عائد ، ثنا أبو عدى عبد العزيز بن علي بن محمد بن إسحاق بن الفرج الإمام بمصر ، ثنا أبو علي الحسن بن قاسم بن دحيم المصري ، ثنا محمد بن زكريا الغلابي ، ثنا أبو العباس ، ثنا أبو بكر عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه قال : وضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه للناس ثمانى عشر كلمة من الحكمة منها : ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك عليه .

ولا تظن بكلمة خرجت من فى أمرىء مسلم شراً وأنت تجد لها فى الخير محملاً . فهذا أعزك الله أدب الله وأدب رسوله صلى الله عليه وسلم وأدب أمير المؤمنين . وبالجملة فإنى لا أقول بالمرأية ولا أنسك نسكاً أعجمياً . ومن أدى الفرائض المأمور بها ، وأجتنب المحارم المنهى عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه أسم الإحسان ، ودعنى مما سوى ذلك وحسبى الله .

والكلام فى مثل هذا إنما هو مع خلاء الذرع وفراغ القلب ، وإن حفظ شيء وبقاء رسم وتذكر فائت لمثل خاطرى لعجب على ما مضى وذهنى . فأنت تعلم أن ذهنى متقلب وبالى مهصر بما نحن فيه من نبو الديار ، والخلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير الإخوان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة فى البلاد ، وذهاب المال والجاه ، والفكر فى صيانة الأهل والولد ، واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الاقدار ، لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا . وإن الذى أبقى لأكثر مما أخذ ، والذى ترك أعظم من الذى تحيىف ، ومواهبه المحيط ببناء ونعمه

التي غمرتنا لا تجد . ولا يؤدي شكرها ، والكل منحه وعطاياه ، ولا حكم لنا في
أنفسنا ونحن منه ، وإليه منقلبنا ، وكل عارية فراجعة إلى مُعيرها . وله الحمد أولاً
وآخرأً وعوداً وبدءاً وأنا أقول :

جعلتُ اليأس لي حصناً ودرعاً	فلم ألبس ثياب المستضام
وأكثر من جميع الناس عندي	يسير صانعي دون الأنام
إذا ما صح لي ديني وعرضي	فلست لسا تولي ذا أهتام
تولي الأمس والغد لست أدري	أُدركه فقياً ذا أغتام

جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين : آمين آمين
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

تم طبع هذه الرسالة المعروفة بطوق الحمامة لأبي محمد علي بن سعيد بن حزم
بالقاهرة عام ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م والله الحمد ومنه العون ﴿

فهارس الكتاب

- (١) فهرست الأبواب ١٥٧
- (٢) فهرست الأعلام ١٥٨ - ١٦٢
- (٣) فهرست القبائل ١٦٣
- (٤) فهرست الأماكن ١٦٣
- (٥) فهرست القوافي ١٦٤

فهرست الأبواب

الصفحة		الصفحة	
٤٢	باب الطاعة — ١٦	١	١ — المقدمة
٤٦	» الخالفة — ١٧	٢	٢ — الكلام في ماهية الحب
٤٧	» العاذل — ١٨	١١	٣ — باب علامات الحب
٤٨	» المساعد من الاخوان — ١٩	١٩	٤ — » من أحب في النوم
٥٠	» الرقيب — ٢٠	٢٠	٥ — » من أحب بالوصف
٥٣	» الواشى — ٢١	٢٢	٦ — » من أحب من نظرة واحدة
٥٩	» الوصل — ٢٢	٢٤	٧ — » من لا يحب إلا جمع المطاولة
٦٧	» الهجر — ٢٣	٢٨	٨ — » من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها
٧٨	» الوفاء — ٢٤	٣٩	٩ — باب التعريض بالقول
٨٣	» القدر — ٢٥	٣١	١٠ — » الاشارة بالعين
٨٤	» البين — ٢٦	٣٣	١١ — باب المراسلة
٩٥	» القنوع — ٢٧	٣٤	١٢ — » السفير
١٠٢	» الضنى — ٢٨	٣٦	١٣ — » طلى البحر
١٠٥	» السلو — ٢٩	٣٩	١٤ — » الاذاعة
١١٥	» المدح — ٣٠	٤١	١٥ — ومن أسباب الكشف
١٢٢	» قبح المعصية — ٣١		
١٤٢	» فضل التعفف — ٣٢		

فهرست الأعـلام

الصفحة	الصفحة
٨٥	آدم عليه السلام ١٣٨، ١٢٨
٧٢	إبراهيم بن السري أبو إسحاق ١٤١
١٢٣	إبراهيم بن سيار النظام أبو إسحاق { ٣٣، ١٠٠
٢	١٣٠، ٩٨
٤٤	إبراهيم بن عيسى أبو إسحاق ٥٨، ٥٧
١٥٣	ابن أبي يزيد ٧٢
١٥٣	ابن برطال = زكريا بن يحيى
١٥٣	ابن الحذاء ٢٢
١٣٦	ابن الحريري = عبيد الله بن يحيى الأزدي
٧٠	ابن راهويه ١٣٧
١٣٦	ابن الركيكة = محمد بن أحمد بن وهب
١٥٣	ابن زبيدة = محمد بن هارون
١٠٤	ابن سيديويه ١٣٦، ١٣٥
٢١	ابن سهل الحاجب ٩٧
١٥٣	ابن شهاب الزهري ١٣٦
١٣٨	ابن الطائي = محمد بن يحيى التميمي
١١٩، ١١٨	ابن عباس ٦
١٢٦	ابن القرضي = المصعب بن عبد الله الأزدي
١٣٨	ابن قزمان ١١٥
٥	ابن مسعود ٥٧، ٥٦
١٣٩	ابن المقفل = عبد الله بن هذيل النجفي
١٥٣، ١٤٥، ١٣٩، ١٢٠	ابن وضاح ١٥٣
١٣٦	ابن وهب ١٤٠
١٣٦	أبو إسحاق البلخي ١٣٩، ١٣٦، ١٣٥
أحمد بن محمد بن جدير أبو عمرو ١٠٤، ٤٤	أبو إسحاق بن سيار = إبراهيم بن سيار
٥٦	أبو بردة الأنصاري ١٤٠
٤١	أبو بكر الصديق ١٤٠، ٥٧
١١٨	أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ١٣٦
١٠٧	أبو بكر المقرئ ١٣٦، ٧٠
٥٦	أبو تمام حبيب ٩٨
١٢٥	أبو الجعد ١١٦
	أبو جعفر النحاس ١٣٦، ٧٠

الصفحة

١٢١، ٣٨	حبيب بن هاني
١٣٧	حطان بن عبد الله الرقا
١٤٥	حفص بن عاصم
٤٥، ٤٤، ٢٨، ٢١، ٤٥	الحكم المستنصر
■	» بن هشام
٢	حمام بن أحمد

(خ)

١١٨، ٨٥	خيران
---------	-------

(د)

١٣٧	داود
١٢٧	» عليه السلام
٥	دعجاء

(ر)

١٠٧، ٥٧، ٥٦	رسول الله صلى الله عليه وسلم
١٢٣، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩	
١٤٠، ١٤٥، ١٥٣، ١٥٤	
	الرمادي = يوسف بن هارون
١٢٣	روح بن زنباع الجنداي

(ز)

١١٦	زرياب
٦٥	زكريا بن يحيى
١٣٨	الزهري
٦٣	زياد بن أبي سفيان
١٢٣	زيد بن أسلم
١٠٧	زيد بن طلحة بن ركانة

(س)

١٣٦	سعيد بن بشر
١٥٤، ١٣٦	» » المسيب
٤٤	» » منذر بن سعيد
١٠٧	ساعة بن صفوان
١٣٩	سليمان
١٣٢	» بن أحمد

الصفحة

٩٩	أحمد بن محمد بن إسحاق
١٥٣، ١٤٥	» » » الجصور
١٤٥، ١٠٧	» » مطرق
٣٨	» » مغيث
	» » يحيى بن إسحاق الرويدى أبو
١٣٠	الحسين

١٩	إسماعيل بن يونس
١١٦	أسلم بن عبد العزيز
١٥٣	الأعرج
١٣٦	الأعمش
١٣٠	الأنباري

(ب)

٩٨	البحترى
١٤٠	البخارى
١٢٦	بكر بن العلاء
١٤٠	بكير
١٤٠	البلخي
	البليدي = أحمد بن محمد بن جدير

(ت)

١٣٢	تملب بن موسى الكلذاني
١٣٩	تور بن يزيد

(ج)

١٣٦	جابر بن عبد الله
١٣٦	جرير المحدث
١٣٦	جعفر الحاجب
١٠٤	جعفر مولى ابن جدير

(ح)

١٣٧	الحسن
١٣٧	» بن أبي الحسن
١٩	حاتم أبو البقاء
١٤٥	حبيب بن عبد الرحمن
١٥٤	» » قاسم بن دجيم

الصفحة

١٥٤	عبد العزيز بن علي
٥٦	عبد الله بن عمر بن الخطاب
١٣٦	» » مسعود
١١٨	» » هذيل النجبي
١٣٨، ١٠٧	» » يحيى
١٢٠	» » بن أحمد بن دحون
١٥٤	عبد الله بن يوسف الأزدي
٢٩	عبد الملك بن مروان الطليق
٤٥	» » منذر
٩٣، ٩٢	عبد الوهاب بن أحمد أبو المغيرة
١	عبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة
٥	عبيد الله بن عتبة
٥٦	» » يحيى
١٤٥، ١٣٠	» » الأزدي
١٣٨	عبيد بن عمير
٥	عثمان بن محمد بن عبد الرحمن
١٢٣	عطاء بن يسار
٧٤	عفراء
١٣٦	عفيل
١١٩، ١١٨	علي بن حمود الحسني
١٢٥، ٥٦	» » عبد العزيز
١١٥، ١٩	عمار بن زياد أبو السري
١٥٤، ١٣٩، ١٣٨، ٥٦	عمر بن الخطاب
١٣٩	عمرة بنت عبد الرحمن
١٤٠	عمرو
١٣٦	عمرو بن رافع
١٣٦	» » شرحبيل
١٣١	عيسى بن محمد بن محمد بن الحولاني

(غ)

٦٥	غالب
١٠٠	الفريش

الصفحة

١١٨	سليمان الظافر
١٤٠	» بن يسار

(ش)

١٣٧	الشافعي
١٤١	شجاع بن ورقاء

(ص)

٣٨	صبح (أم المؤيد)
٥	» (أم هاشم المؤيد بالله)
٥٦	صفوان بن سليم

(ط)

٧٠	طرفة بن العبد
	الطليق = عبد الملك بن مروان
	طروب (أم عبد الله بن عبد الرحمن
٥	ابن الحكم)

(ع)

١١٦	عاتكة بنت قند
٤٠	عاصم بن عمرو أبو الفتح
٥	العامر بن عبد الله بن مسلمة
١٣٧	عبادة بن الصامت
١١٧، ٧٢	عبد الرحمن بن أبي يزيد
٤٦	» » أحمد بن محمود أبو المظفر
١٤٠	عبد الرحمن بن جابر
١٤٤، ٥	عبد الرحمن بن الحكم
٧٢	» » سليمان البلوي
٤٥	» » عبيد الله
١١٨	» » محمد
٢٢	» » القيرى
١١٨	» » العنبري أبو شاكر
٧٧، ٢٩	عبد الرحمن المرتضى
٥	» » بن معاوية
١٣٩	عبد العزيز بن عبد الله

الصفحة

- ١٤٠ » » » النسائي
١٤٤ » » عمرو بن مضاء أبو عبد الله
٤٦ محمد بن كليب أبو عبد الله
١١١، ٢٩ » المهدي
٣٨ » بن هارون
١٢٣ » » وضاح
٦٥ » » يحيى
١١٧ » » » التيمي أبو عبد الله
١٣٩، ١٣٦ » » يوسف
المرخيطي = مسلة بن أحمد
٦٥ مروان بن أحمد بن شهيد
١٠٥، ١٠٤ » » يحيى بن أحمد ابن جدير
المستنصر = الحكم المستنصر
٤٤ مسلم
٤٤ مسلة بن أحمد المرحيطي
١٩، ١١٨ المصعب بن عبد الله الأزدي
» المطرف بن محمد بن عبد الرحمن
٤٤ المظفر بن أبي عامر
» » عبد الملك
١٠٠ معبد
١٤١ معمر بن المثنى أبو عبيدة
٤٤ مقدم بن الأصفر
١٣٧ منصور
٤٥ المنصور بن أبي عامر
» منصور بن تزار
٤٥ منذر بن سعيد
٤٠ موسى بن عاصم بن عمرو

(ن)

- ٢٨ الناصر
» نزار بن معد
النظام = ابراهيم بن سيار الظلام

(هـ)

- ١٤٣ هارون بن موسى الطيب أبو موسى

الصفحة

- غزلان (زوج محمد بن عبد الرحمن)
(ف)

- ١٤٠ الفهربري

(ق)

- القاسم بن سلام أبو عبيد ١٣٨، ١٢٥، ٥٦
» » محمد بن عبد الرحمن
» » يحيى التيمي أبو عمرو ١١٩
قتادة ١٥٤
قتيبة بن سعيد ١٣٦

(ل)

- لابان ٩
لوط عليه السلام ١٤٠
الليث بن سعد ١٣٩، ١٣٨، ١٣٦

(م)

- مالك بن أنس ١٣٩، ١٢٣، ١٠٧، ٥٦
١٥٣، ١٤٥، ١٤٠
مجاهد بن الحصين القيسي ١٩
محمد بن ابراهيم الطليطلي ١٢٦
» » » أبي دليم ١٢٣
محمد بن أبي عامر ٣٨
» » أحمد بن وهب ٨٠
» » » » إسحاق أبو بكر ٢٢
محمد بن إسحاق ١١٨
» » » أبو بكر ١٥٤، ١٨
» » » إسماعيل ١٣٩، ١٣٦
» » » بنو الحجرى أبو بكر ١٠٣
» » » داود ٦
» » » زكريا الغلابي ١٥٤
» » » عامر أبو عامر ١١٦، ١٨
» » » عباس بن أبي عبيدة ١٠٤
» » » عبد الرحمن بن الحكم ١٤٤، ١٣٩، ٥
» » » » الليث أبو بكر ١٣٤
محمد بن علي بن رفاعة ١٢٥، ٥٦

الصفحة		الصفحة	
١٣٩	» » سعد	١١٦	هاشم بن عبد العزيز
١٤٠	» » سليمان	٧٧	هشام بن محمد أبو بكر
١٥٤	» » عائذ	١١١، ٢٩	» المويد
٢	» » مالك	١٢	همام بن أحمد
١٥٣	» » » بن أنس	١٤٠، ١٣٩، ١٣٦، ١٣٥	الهمداني
٦٥	» » محمد	١٣٢	هند
١٠٥، ١٠٤	» » » محمد بن عباس		
١٣٨، ١٢٣	» » يحيى		
١٨	يزيد بن عمر بن هيرة	٥	واحد (زوج المظفر بن عبد الملك)
٩	يعقوب (عليه السلام)	١٤٤	الوليد بن عامر أبو العباس
٦٥	يوسف بن سعيد العكي	١٢٣	وهب بن ميسرة
٢٣، ٢٢	» » هارون الرمادي		
١٢٧	» » يعقوب عليه السلام		
١١٨	يونس بن محمد المرادي أبو الوليد	١٣٦	يحيى بن بكير

(و)

(ي)

فهرست القبائل

الصفحة		الصفحة	
١٤٤،١١٨،٢٨،٢٢	بومروان	(١)	آل مفيت
(خ)		٣٨	أهل القيروان
١٢٧،٦٣	الخوارج	٤٦	(ب)
(م)		١١٧،١١٢،١٠٥،٤٥	البربر
١٣٠،٩٨،٤٥	المعتزلة	١٣٤،١٢٤،١٢٠	

فهرست الأماكن

الصفحة		الصفحة	
(ش)		(١)	الأندلس
٨٥،٤١	شاطبة	١١٨،٤٥،٢٩	(ب)
(ص)		٢٢	باب العطارين
٩٧	صقلية	١٢٠	بغداد
(ق)		١١٩،١١٨	بلنسية
٦٥،٤٥،٤٤،٤٠،٣٨،٢٢	قرطبة	(ج)	
١٠٥،٩٤،٨٦،٧١،٧٠		٤٤	جامع قرطبة
١١٨،١١٧،١١٢،١١١		٨٥	الجزائر
١٥٣،١٤٣،١٣٦،١١٩	(م)	(خ)	
١٨	مالقة	١٣٥	خراسان
٦	المدينة	(ر)	
١١٨،٨٥،١٩،٤١	المرية	٢٢	الريص
١٣٥	مسجد القمري	١١١	ربض الزاهرة
١٥٤،٥	حصر	٧٢	الرصافة
٧١	مقبرة باب عامر	(س)	
٤٤	مقبرة قريش	٧٢	سبئية
(و)			
١٨	واسط		

فهرست القوافي

الصفحة

١٠٢ »	رأيتك - وتسمعا
٥٨ »	ولا - صلاحها
١٧ هزج	جميل - مسفوح

(خ)

٢١ بسيط	أبدلت - بالنسخ
---------	----------------

(د)

١٦ طويل	مشوق - يعربد
١٨ »	ألا - لجود
١٨ »	وإن - لجليد
٨٥ »	مني - البعد
٨٧ »	لغد - البعد
٩٧ »	يلوموني - يحسد
٩٧ »	أني - محمود
٩٩ »	توحش - عود
٤٠ »	ولا - تريده
٢٥ »	حبة - زنادها
٦ »	ودادي - ولم يزد
٣٠ »	يعيونها - عندي
٥٨ »	أم - الهند
٧٠ »	تذكرت - تهمير
٨٧ »	أطمت - البعيد
٦٨ »	يلوم - بالصدى
١٠٠ »	ولما - الندي
١٠١ »	وقلوا - محيدا
٨٩ بسيط	وجه - يزد
١١٥ »	لو - جلدی
٢١ مخلع البسيط	قد - يبدو
٢٤ وافر	سأبعد - الرشيد
٧٢ »	لعلك - تزيدا
١٣١ كامل	أباح - الفرد
٧٤ مجزوء الكامل	لا - يعده
١٠٨ »	لو - تود
٦٧ سريع	هل - فادی
٧٧ »	با - في العقد
٨٨ »	بشرى - شداد
١٠٤ خفيف	قد - نژاد

الصفحة

(ع)

٨٦ طويل	أظنك - أولياته
١٢ خفيف	وإذا - الفناء
١٣٢ »	إن - للفناء

(ا)

٩٦ طويل	أرى - حشى
٦٣ سريع	كيف - نوى

(ب)

١ طويل	أودك - سراب
١٠٥ »	إذا - رطاب
٦٨ »	أقمت - يهرب
٦٨ »	وسراء - أنحبب
٨٥ »	أرى - مغيب
٩٦ كامل	إن - وأكذب
٨٦ »	لك - قرابه
١٤٧ منسرح	أقصر - عربه
٩٢ متقارب	وقالوا - ترغبه

(ت)

٣٦ طويل	يلوم - وساكت
١٢ »	فليس - البهت
٩١ مجزوء المديد	كل - يفيت
٨٧ خفيف	للتلاق - وفاته

(ث)

٩١ طويل	كأن - نوافث
٥٢ »	على - بناكت
١١٨ خفيف	ليت - ريث

(ج)

١٣ بسيط	أهوى - أرج
١٦ »	خلوت - ما أنبلج

(ح)

١٨ طويل	دتل - ويسقع
---------	-------------

الصفحة

بسيط ١٢٣
متقارب ٦١
رجز ١٥

أبليتني - للنواقيس
جري - الفرسى
أرعى - والخنس

(س)

سريع ٦٦ كم - الفراش

(ص)

طويل ٨٧ خفيت - شخص
رجز ٤٦ غامض - الفرس

(ض)

طويل ٨٢ وخذني - نضاض
» ٩٠ بذلت - معرض
» ٥٤ وهل - متأرض
بسيط ٦٠ أسامر - عرضا
متقارب ٤٧ إذا - ممرضا

(ط)

طويل ٤٣ وقد - سخط

(ظ)

بسيط ٩٧ زار - والحفظة

(ع)

طويل ٣٣ عزيز - قاطع
» ٧٢ سريع - يسرع
» ٨٩ وفد - وتسرع
» ٨٦ وذى - مصرعى
بسيط ٨٢ ولى - أضلعة
متقارب ٧٣ وكنت - السامع

(ف)

طويل ١١١ يسكى - الذوارف
بسيط ١١ وأستلذ - أنصرف
» ٩٥ ليت - وقفا
وافر ٩٨ أغار - كفى
سريع ٩٦ لا - ينصف
هزج ٢١ وبا - طرفي
متقارب ٢٢ أخ - شريفا
» ٩٠ بذلتي - جزا

الصفحة

متقارب ٤٢

فهل - حد

(ذ)

طويل ٤٢ ولاني - جهيد

(ر)

» ١٤٨ أعارتال - اخضرارها
» ٥٨ ولا - تدرى
» ٦٣ وددت - في صدرى
» ٧٦ رهبت - في المقابر
» ٧٧ أساعة - النسر
» ١٢ إذا - وتقطرا
» ٩٤ لئن - سرا
بسيط ٢٠ يا - القمر
» ٢٣ عيني - البصير
» ٦٠ وسائل - والعذر
» ١١٠ انى - المقاصير
» ١٣٧ ضريدة - تقدير
» ١٢٨ وجرحل - جبار
» ٦١ برغبة - مقفورا
» ٧٨ أفعال - الاثر
مخلع البسيط ٧٦ ما - هجر
وافر ١١٣ هواك - سرير
» ٨٨ وددت - ظهرا
كامل ١٠٦ فاس - المقصر
سريع ٧٥ هجرث - المهاجر
» ٧٥ كانت - بالمشتري
متسرح ١٨ أنس - حقر
خفيف ١١٠ لا - بنكر
» ١١٤ خل - القفار
» ١٣٢ أنت - وضميرا
متقارب ١٢٠ لئن - يستتر
رجز ٤٣ ليس - المستكبر

(ز)

طويل ٥٨ ولى - وهرز

(س)

طويل ٥٥ عجت - يتنفس
بسيط ٦٢ كأنها - مياس
» ٨٩ سنوب - أنفاس

الصفحة

(ن)

٨٦	طويل	لأبرد - هيمانه
٩٢	»	فقا - الملوان
٣٤	»	جواب - سا كندا
٥١	»	يطبل - قنونه
٥٨	»	يدا - بيننا
٨٣	»	أقمت - بيننا
٢٩	بسيط	منهم - جان
١٠	»	ما - يقرونا
١٥	وافر	تعلمت - الهنون
٢١	»	لقد - في العيان
١١٥	»	فان - عين
١٢٨	مديد	لا - الحن
٢١	كامل	وصفول - هذيان
١٣١	»	يا - الفزلان
٢٦	خفيف	كذب - ماني
٦٦	خفيف	يضحك - معنى
٩٣	»	ليس - منا
١٠	مقارب	تري - المعاني
٩٦	»	يقولون - شجنى
٣٧	»	ورى - يمن
٧٦	رجز	مهود - صفيان
١٢٧	مجزوء الرجز	لا - للجن

(ه)

٥٢	طويل	ورب عنه
١٠٨	طويل	فكوتوا - تصلوه
٣٨	بسيط	السر - له
٣٧	»	ما - فيه
٨٠	»	وليس - مفشيه
١٣١	مقارب	رأيت - السفاء

(ي)

١٠	طويل	أمن - العي
٨٧	»	غنيت - الحلى
١٠٦	»	دعوتى - معاديا
١١١	وافر	منعت - عليا
٦٥	خفيف	إن - الحلى
١٢٧	مجثث	وفائل - غيا

الصفحة

رجز ٥٣

(ق)

١٤٦	طويل	أرافل - تحريق
٥٢	النسرح	صار - وريفا

(ك)

١٣٣	طويل	أتانى - ويسبك
٤١	»	أقول - هما لك
١٢٩	بسيط	أما - هتكا
٣٧	مجزوء الوافر	دموع - ينهتك

(ل)

٩٩	طويل	زانبك - هامل
١٧	»	أقت - الأمل
٩٥	»	فان - وصل
٣٥	»	رسولك - صقه
٧٥	»	دنا - راحلا
٤٨	بسيط	أحب - أمل
٨	وافر	قليل - يقل
١٠٢	»	يقول - علل
١٠٨	»	ألا - وأهلى
٩٠	كامل	الآن - بخله
٩٣	مجزوء الكامل	أجزعت - الذميل
٦٤	سريع	ومن - والقائل
٦٤	رجز	إذا - القافل

(م)

٩١	طويل	مهذبة - نجوم
٥٩	طويل	والذب - ملازم
٩٩	بسيط	طاف - يم
٣١	وافر	عتاب - وخضم
٣١	وافر	غزال - غمام
١٥٥	وافر	جعل - المستضام
٥١	وافر	مواصل - غما
٢	وافر	رقيب - المناما
٧٢	كامل	دع - باظالم
٩٣	كامل	لا - تتقيم
١٠٩	كامل	كانت - إبراهيم
٩٨	خفيف	أنت - كريما

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 074441872